

وليم فوكنر

اللصوص

ترجمة: خالدة سعيد

التكوين

رواية

وليم فوكنر

اللصوص

رواية

نقلَتْها إلى العربية خالدة سعيد

التكوين

* صدرت الطبعة الأولى من هذه الترجمة عام 1963
عن دار مجلة شعر - بيروت

ولد **وليم فوكنر** قرب أوكسفورد في ولاية الميسيسبي عـام (1897). عمل كملقمّ للفحم ليلاً في محطة توليد للطاقـة، كتـب أول رواياتـه «**راتب الجندي**» (1926). «**بينما أرقد محتضرة**» (1930) ، ثم كتـب «**الملاذ**» ، وقد عمل فيما بعد ككاتب للسيناريو في هوليوود. وقبل موتـه بقليـل في تمـوز (1962)، انتقـل فـوكنر إلى «تشارلوتـسفيل» فرجينيا. وقد منح جائزة **نوبل للآداب** عام (1949). أما كتبه الأخرى فمنـــها: «**الـــصخب والعنـــف**» (1929)، «**اللامهـــزوم**» (1934)، «**النحلات البرية**» (1939)، «**اهبط يا موسى**» (1942)، «**متطفل في التراب**» (1948)، و«**قـداس لراهبـة**» (1951) وكـذلك «**أبـسالوم، أبسالوم**»، «**اللصوص**» 1962.

WILLIAM FAULKNER

The Reivers

الطبعة الأولى **2015**

هاتف: 00963 112236468

فاكس: 00963112257677

ص. ب: 11418، دمشق. بيروت

www.attakwin.com

taakwen@yahoo.com

الفصل الأول

قال جدي:

هكذا هو بون هوجانبك. لو نُقش اسمُه على حجر لصحّ أن يكون شاهدةَ قبره، شأن مقاييس "بريتون" لمعرفة هوية الشخص، أو مثل إعلان للشرطة؛ حتى أن أيّ شرطيّ في شمالي الميسيسيبي كان يستطيع أن يتعرّف إليه من بين الجموع ويوقفه.

كان الوقت صباح السبت، حوالي الساعة العاشرة. كنّا ـ أنا وأبو جدك ـ في المكتب: أبي جالس إلى الطاولة يُخرج النقود من كيس الكتّان ويقابلُها بقائمة الفواتير التي جمعتُها من ساحة البلدة؛ وأنا جالس على كرسيّ قرب الجدار انتظر ساعة الظهر حتى أتقاضى تعويضي (الأسبوعي) البالغ عشرة سنتات، ثم نذهب إلى البيت. وبعد تناول الغداء، يتاح لي الذهاب للاشتراك في لعبة البيسبول التي كانت تبدأ منذ الصباح دون حضوري: كانت الفكرة من ذلك (فكرة جدّك لا فكرتي) أنّ الرجل منذ أن يبلغ الحادية عشرة من عمره، يترك وراءه سنةً يُحاسَب عنها، أو يغدو مسؤولاً عن المكان الذي يشغله، وعن الرّقعة التي يحتلها في اقتصاد العالم، (في جفرسون، ميسيسيبي، على الأقل).

كنت أغادر البيت مع أبي صباح كلّ سبت بعد تناول طعام الفطور، بينما يكون الصبيان الآخرون في الشارع مُسلّحين بالكُرات والمضارب وقفازات البيسبول ـ فضلاً عن إخوتي الثلاثة الذين كانوا

أسعد مني حظاً لمجرد أنهم أصغر سناً. كان هذا منطق أبي: ما دام أيُّ إنسان بالغ ومنتج يستطيع أن يعيل أربعة أولاد، فإن بإمكان أكبر هؤلاء سناً أن يكسب ما يفي بحاجاته الضرورية. هكذا كنت أتجول صباحَ كلّ سبت حاملاً الفواتير لشحن صناديق البضائع التي نقلها سوّاقونا الزنوج، خلال الأسبوع، من المستودع إلى الأبواب الخلفية لحوانيت البقالة، ودكاكين الخرضوات الحديدية، ومخازن لوازم المزارعين، ثم أعود بكيس الكتان إلى أبي، ليراجع الحساب ويضبطه. بعد ذلك ألزَم المكتبَ حتى الظهر، لأردّ على رنين الهاتف. وهكذا كنت أكسب عشر سنتات في الأسبوع، وهو المبلغ الذي كان يُفتَرَض أن أعيش منه.

ثمّ ذات صباح، دخل بون وهو يقفز. كانت الدرجة لا تعلو كثيراً عن أرض الممر، حتى بالنسبة لصبي في الحادية عشرة (مع ذلك فإن جون بويل مدير الإسطبل، دفع صن توماس سائقنا الأصغر، إلى أن يقترض، أو يغتصب، من مكانٍ ما قطعة خشب يجعلها درجة متوسطة العلوّ لتناسبني). غير أنّ بون كان يصعدها، كعادته، بخطوته الواسعة. لكنه، هذه المرة، آثر أن يقفز فوقها قفزاً إلى الغرفة. ولم يكن وجه بون يبدو لطيفاً أو هادئاً في الأحوال العادية؛ أمّا في تلك اللحظة فقد بدا كأنه سينفجر ويندفع من بين كتفيه، من فرط الهيجان والسرعة، وهو يقفز باتجاه المكتب صائحاً بوالدي: "انتبهْ يا سيد موري، ابتعدْ من الطريق". ثم انقضّ على دُرْج الطاولة الأسفل، حيث يوجد مسدّس الإسطبل. فهل دفع بون، في طريقه، الكرسيَّ إلى الوراء (كان كرسيّاً دوّاراً ذا عجلات) أم أن أبي هو الذي قذف به إلى الخلف ليتمكن من أن يُبعد يدَ بون الممتدة؟ في النتيجة تبعثرت أكوام النقود المرتبة، في كل اتجاه، حول المكتب، فيما بدأ أبي يصيح، هو الآخر:

"يا للشيطان، كفى!".

"سأقتل لودوس!" صاح بون. "لعله اجتاز الساحة الآن وذهب! انتبه يا سيد موري!".

"لا!" قال أبي. "اخرج!".

"ألا تَدَعُني آخذه؟".

"لا، يا للشيطان".

"حسناً". قال بون هو يقفز راجعاً باتجاه الباب ويخرج منه. واكتفى أبي بالجلوس هناك. لابد أنّك لاحظت مدى جهل الناس الذين تجاوزوا الثلاثين أو الأربعين من العمر. لا أعني أنهم سريعو النسيان. هذا تمويه، إذ يسهل القول: "أوه، أبي (أو جدي) أو أمي (أو جدتي)، طاعنون في السن، وقد نَسُوا". ففي الحياة أشياء وحقائق جارحة لا يمكن نسيانها، أياً كانت سنُّك. فلو عبرتَ، في صغرك، حفرة أو خندقاً، فوق جسر مكوّنٍ من جذع شجرة، ثم عدت إليه، وأنت في الخامسة والثلاثين أو الأربعين من العمر، وقد ذهب الجذع، قد لا تتذكره، ولكنك لا تضع قدمَك في الفراغ حيث كان الجذعُ فيما مضى. هكذا كان أبي حينئذٍ. جاء بون إلى المكتب وهو يقفز دونما إنذار، حتى كاد يُسقِط كرسيَّ أبي، مندفعاً نحو الدرج حيث وضُعَ المسدس. لكن أبي كان مستعداً لإبعاد يده عن الدرج أو سحقها. إذاك استدار بون وقفز عائداً كما جاء. وظنّ أبي، كما يبدو، أنّ ذلك ينهي المسألة. حتى أنه كفّ عن قذف الشتائم، وكأنّ شيئاً لم يحصل. ثم أعاد الكرسي إلى مكانه قرب الطاولة وتطلّع إلى النقود المبعثرة التي سيضطر إلى عدّها من جديد، فعاد يشتم بون ثانية، لا لحادث المسدّس، وإنما لمجرد كونه بون هوجانبك. وظل كذلك إلى أن قلت له:

"ذهب ليستعير مسدس جون بويل".

وصرخ أبي قائلاً: "ماذا؟" ثم قفز هو أيضاً، وأسرعنا نعبر المكتب إلى الردهة ومنها إلى كومة البضائع، خلف الإسطبل، حيث كان جون بويل ولاستر يساعدان "جيبي" الحدّاد في تركيب نعالٍ لثلاثة بغال وجواد مسرج. وكان أبي، كلما قطع ثلاث خطوات، يصرخ: "جون! بون! جون! بون!" دون أن يضيع الوقت بالشتائم.

ولكنه، هذه المرة، أيضاً وصل متأخراً. لأن بون خدعه أو بالأحرى، خدعنا. إذ لم يكن مسدس جون بويل مجرد مسألة معنوية وحسب، بل كان مسألة عاطفية أيضاً. كان مسدساً من عيار 41، قديماً جداً لكنه في حالة جيدة، لأن جون حرص على إبقائه كذلك، منذ أن اشتراه من أبيه، حين كان في الحادية والعشرين من عمره. لكنّه لم يكن يحمله، بحكم الضرورة، أعني لم يكن للمسدس وجودٌ رسميّ علني. كان هناك تقليد قديم كالإسطبل نفسه، وهو أن المسدّس الوحيد التابع للإسطبل، يبقى راقداً في قرارة الدرج الأيمن؛ وكان معروفاً لدى الجميع أن ليس لأيّ موظف أن يحمل سلاحاً منذ وصوله إلى الاصطبل حتى انصرافه إلى البيت، فكيف بإحضار السلاح واستعماله. وقد أوضح جون ذلك لنا جميعاً وحصل على تأييدنا وعطفنا وتفهّمنا، ما دعم مركزه أمام العالم وأمام والدي نفسه. وما كانت تلك المشكلة لتحدث لولا بون هوجانبك ـ وبون هو الذي أخبرنا كيف وفّر جون ثمن المسدس بالعمل الإضافي في أوقات استراحته؛ وذلك بمساعدة أبيه في المزرعة في أوقات كان يحب أن يمضيها في النوم أو الأكل، إلى أن وضع في عيد ميلاده الحادي والعشرين آخر قرش في يد أبيه ونال المسدس. ثم إنه أخبرنا كيف كان المسدسُ الرمزَ الحيّ لرجولته والدليلَ الذي لا يُدحَض على أنه بلغ الحادية والعشرين وصار رجلاً. ومع أنه لم يعتزم استعماله أبداً، إلا أنه أحبّ أن يحمله باستمرار. كان يشعر أنّه لو ترك المسدس في

البيت عند مجيئه إلى العمل، لكان كمن يترك رجولته هناك. وقد أخبرنا (وصدّقناه) بأنه لو دُعي إلى الاختيار بين ترك المسدس في البيت، أو عدم المجيء إلى العمل، لَما تردد في الاختيار.

لذلك خاطت له زوجته، في البدء، جيباً مُرتّباً متيناً بقياس المسدس، داخلَ صدرية بزّة العمل. وقد عرف جون أن ذلك لا يكفي، لا لأن المسدس قد يسقط في أية لحظة، بل لأنه كان ظاهراً بوضوح من فوق الثياب. وهو لم يكن ظاهراً لنا وحسب، إذ كنا جميعاً نعرف أنه هناك ـ عن طريق مستر بالوت رئيس عمال الإسطبل، الأبيض، وعن طريق بون مساعده (الذي كان يعمل ليلاً ما يعني أنه الآن نائمٌ في سريره)، ثمّ مروراً بكل الزنوج من سواقين وسائسي خيل، إلى أحقر خدم الإسطبل، أي إليَّ أنا، الذي كان عملي فيه يقتصر على جمع فواتيرِ البضاعة المتراكمة أيام السبت، والردّ على الهاتف. حتى العجوز دان جرينّب القذر، ذو اللحية الملطّخة بالتبغ، الذي لم يكن يوماً ثملاً تماماً، والذي لم تكن له وظيفة رسمية في الإسطبل، لا بسبب معاقرته الخمرة، بل لأن اسمه كان في الواقع "جرينيه" لا "جرينّب". وكان هذا الاسم من أقدم الأسماء في المنطقة، إلى أن أنجبت الأسرة "لوي جرينيه" البروتستانتي، الذي اجتاز الجبال من فيرجينيا وكارولينا، بعد الثورة، وجاء إلى ميسيسيبي في العِقد التاسع من القرن الثامن عشر، وأسّس جفرسون وأعطاها اسمها ـ وأن هذا العجوز، الذي لا يعيش في مكان معيّن ـ إذ ليست له أسرة باستثناء ابن أخ مخبول أو ابن عم لا يزال يعيش في خيمة بين أدغال النهر، خلف منعطف "فرانشمان باند" الذي كان ذات يوم جزءاً من مزرعة "جرينيه" ـ بل يظهر فجأة ـ وهو الذي لا يبلغ به السُكْرُ قطّ حدّاً يعيقه عن سياقة العربة ـ في الإسطبل، في الوقت المناسب، ليأخذ العربةَ إلى المحطة لملاقاة قطارَي التاسعة

والنصف صباحاً، والرابعة والربع بعد الظهر، وإيصال الباعة المتجوّلين إلى الفندق. وقد كان أحياناً يبقى للعمل طول الليل، حين كانت تُقام في دار الأوبرا تمثيليات فولكورية زنجية، أو حفلات راقصة أو مسرحيات. وكان بعضُ الناس يعزو سبب استمراره في عمله إلى كونِ زوجة السيد بالوت الأولى ابنتَه. أمّا نحن، العاملين في الإسطبل، فكنا نعتقد أن استمراره في عمله راجع إلى أن أبي كان في صباه يذهب لصيد الثعالب مع والد دان العجوز عند منعطف فرانشمان باند.

كان المسدسُ ظاهراً ليس لنا فقط، بل لأبي أيضاً. إذ كان، هو الآخر، على علم به. كان لابد من ذلك، فمؤسّستُنا كانت صغيرة جداً ومتشابكة ومتداخلة. لذلك كانت مشكلة أبي المعنويّة هي مشكلة جون بويل ذاتها، وكان كلاهما يعرفها ويداريها كما يجب أن يفعل رجلان شريكان: فإذا اضطر أبي إلى إعلان معرفته بوجود المسدس، صار لزاماً عليه أن يُخيّر جون بين إبقاء المسدس في البيت، أو عدم العودة إلى العمل. وكان جون يعرف هذا. لكنه، لفرط رجولته أيضاً، أبى أن يضع أبي في موقف يحمله على إفشاء معرفته بوجود المسدس. وهكذا خاطت له زوجته الجيب في صدريته، تحت إبطه الأيسر، لا في جيب بزة العمل. بذلك لم يعد المسدس ظاهراً، أو على الأصح ناتئاً، عندما كان يلبس صدريته أو يعلقها بمسماره الخاص في غرفة السروج، إذا اشتدت حرارة الطقس أو كانت كما هي الآن.

تلك كانت حالُ المسدس عندما جاء بون الذي كان يُفتَرَض أن يأوي، آنذاك، إلى الفراش كما وعد، لا أن يتسكع حول الساحة، حيث واجه ما دفعه إلى العودة نحو الإسطبل، مقتحماً باب المكتب، مُظهراً كلاً من أبي وجون بويل بمظهر الكاذب.

غير أن أبي وصل متأخراً هذه المرة أيضاً. إذ إنّ بون خدعه، أو بالأحرى خَدَعنا. لأن بون كان يعرف هو أيضاً بأمر المسمار في غرفة السروج. وكان ذكياً، أذكى من أن يعود، عبر الممر، من أمام المكتب. وعندما وصلنا إلى الساحة، كان جون ولوستر وجيبي (والبغال الثلاثة والحصان أيضاً) يراقبون مصراع الباب الذي كان ما يزال يتأرجح وقد اقتحمه بون ساعتئذٍ، حاملاً المسدس في يده. وتبادل جون وأبي النظر حوالى عشر ثوانٍ، ثم انهار صرح ما بينهما من "تفاهم شرف" وصار إلى غبار. مع ذلك بقي الشرف، أو الولاء.

وقال جون: "إنه لي".

"نعم". قال أبي. وأضاف: "رأى لودوس في الساحة".

فقال جون: "سأقبض عليه وآخذه منه. مُرْني بذلك".

وقال جيبي: "ليمسكْ أحدُكم بلودوس".

ومع أن لودوس كان قصيراً، إلا أنه كان ضخماً، بخلاف بون، له ساق مفتولة، بشكل مخيف، نتيجة حادث قديم نزل به أثناء العمل؛ كان في وسعه أن يمسك حافر الحصان أو البغل الخلفي ويلويه على ركبته الملوية، فلا يجد الحصان أو البغل مناصاً من الارتماء. وذلك لعجزه عن تحرير ساقه والحفاظ على توازنه، فيرفسه بالساق الأخرى.

وقال جون: "لا أحدَ منكم يفهم لودوس. إنه أكثرُنا مسالمة. رأيت بون هوجانبك يطلق النار قبله".

ولم يلقِّبْه بالسيد، مع أنه لم يكن يُغفِل ذلك، حين يخاطب رجلاً أبيض يعتبره نداً له، لأن جون هذا كان مهذّباً.

وتابع جون كلامه مخاطباً أبي:

"مُرْني، يا سيدي موري".

فأجاب أبي: "لا، اركض إلى المكتب وتلفن للسيد هامبتون (كان مدير الشرطة آنذاك). أخبِرْه بأنني أريده أن يقبض على السيد بون بأسرع ما يمكن".

وراح أبي في اتجاه البوابة.

"رُحْ معه!" قال جيبي للوستر، وأضاف: "قد يحتاج إلى شخص ما يلحق ببون. أغلق البوابة".

هكذا ذهبنا نحن الثلاثة، عبر الممرّ صوب الساحة. كنت أهرول لأتمكن من اللحاق بهم، وذلك للحيلولة دون بون والمسدس وجون بويل. ألم يقل جون نفسُه أن لا أحد يفهم لودوس جيدا؟ كنّا جميعاً نعرف أن بون لم يُحسِنْ إصابةَ الهدف، وأنه إذا أطلق الرصاص على لودوس، فسوف يخطئه. كان لودوس أيضاً أحد سوّاقينا حتى صباح الثلاثاء الماضي. هذا ما حصل، حسب رواية بون والسيد بالوت وجون بويل، بل لودوس نفسه أيضاً: منذ أسبوع أو أسبوعين، وجد لودوس معشوقة جديدة. كانت ابنة (أو زوجة لم نعرف بالضبط) صاحب مزرعة تبعد ستة أميال عن المدينة.

وعندما جاء بون ليتناوب العمل مع السيد بالوت، كانت الدواب كلُّها والعربات والسواقون جميعاً هناك ما عدا لودوس. وذهب السيد بالوت إلى البيت قائلاً لبون أن يُعْلِمَه بعودة لودوس.

هكذا شهد السيد بالوت. وهذه شهادة بون أيضاً. وقد أكّد جون بويل قسماً منها (كان والدي قد ذهب إلى البيت قبل ذلك). ولكن ما

كاد السيد بالوت يجتاز الباب الأمامي حتى وصل لودوس من الطريق الخلفية، وأخبر بون بأن إطار إحدى عجلات عربته ارتخى، فتوقّف عند بيتنا ورأى والدي، الذي أشار عليه بأن يقود العربة وسط الساقية، في المرعى، فينتفخ خشب العجلة ويضغط الإطار. كما أشار عليه أن يقود البغال إلى زريبتنا ويطعمها، ثم يعود ويخرجها في الصباح. وهذا ما كنا نتوقع أن يصدّقه بون، بينما ينكره جون بويل فوراً، إذ إنّ من يعرف الرجلين يدرك ذلك، كما يدرك أن والدي ـ مهما كان التدبير الذي يتخذه بشأن العربة في الليل ـ سيرسل لودوس إلى الدواب ليعود بها إلى مرابطها في الإسطبل، حيث تُنظَّف وتُعلَف جيداً. ولكن هذا ما قال بون إنه سمعه، لذلك لم يجد داعياً لإقلاق عشاء السيد بالوت، كي ينقل الخبر إليه، ما دام أبي يعرف مكان البغال والعربة، وهو الذي يملكها لا السيد بالوت.

أما رواية جون بويل، التي سردها على مضض، لأنه كان يؤثر ألا يرويها لولا أن بون جعل سكوته (سكوت جون) عن الحقيقة مسألة أخلاقية أهم من ولائه لأبناء جنسه، فهي أنه عندما رأى لودوس يدخل من باب الإسطبل الخلفي، وهو خالي اليدين، بينما كان السيد بالوت يخرج من الباب الأمامي، تاركاً المسؤولية لبون، لم يهتم جون بالاستماع إلى ما كان لودوس يقوله، بل عبَر الردهة واجتاز الباحة إلى نهايتها.

وكان جون قد بلغ العربةَ حين عاد لودوس إليها. كان فيها كيس من الطحين، وجالون من زيت الكاز و (كما قال جون) كيس من روح النعنع. هذا ما حصل تقريباً. فمع أن كلمة جون بشأن الجياد والبغال، داخل الإسطبل، لم تكن تُرَدّ، حتى عند بون ذاته مروراً بالسيد بالوت أو أبي، إلا أنه كان في هذه القضية لا يملك نفوذاً، وإنما كان مجرد

عامل في إسطبل موري بريست. وكان هو ولودوس يعرفان ذلك، بل لعلّ لودوس ذكّره به. لكنني أشك في الأمر، إذ كان يكفي أن يقول له لودوس عبارة كهذه: "إذا أخبرتَ موري بريست كيف استعرتُ هذه العربة وهذه الدّواب، سأخبره أنا بالشيء المخيّط في ثيابك!".

ولا أحسبه قال ذلك أيضاً لأنه، هو وجون، كانا يعلمان به كما كانا يعلمان بأن لودوس، لو انتظر أن يخبر جون أبي بما أسْماه

"استعارة" للعربة والدواب، لما عرف أبي بذلك فقط. وكانا يعلمان أيضاً بأن جون لو انتظر أن يخبر لودوس (أو أي زنجي آخر في الإسطبل أو حتى في جفرسون) أبي بأمر المسدس، لَما عرف بذلك أيضاً. وهكذا يُرجّح ألا يكون لودوس قد قال شيئاً، وأن جون اكتفى بكلمة "حسَناً"، ولكن إذا لم تعد البغال إلى مرابطها، دون قطرة عرق أو أثر للسوط، ودون أن يبدو عليها النعاس، وذلك قبل مجيء السيد بالوت صباح الغد بساعة كاملة (لابد أنك لاحظت كيف اسقط كلاهما بون من روايته للحادثة: فلا لودوس قال إنّ السيد بون يعرف أن هذه البغال لن تعود الليلة ـ أليس هو المسؤول هنا إلى أن يعود السيد بالوت صباحاً؟ ـ ولا جون قال إنّ كل من يصدق الحكاية التي أتيتَ بها الليلة عن البغال، ليس جديراً بأية مسؤولية، ولا أكون مقتنعاً بعد بأن اسمه بون هوجانبك،) فإن السيد موري لن يعلم فقط بغياب البغال، بل سيعلم أيضاً أين كانت.

لكن جون لم يقل ذلك. ومع أن بغال لودوس عادت إلى مرابطها قبل الشروق بساعة، فقد أرسل السيد بالوت في طلب لودوس، بعد وصوله إلى الإسطبل بربع ساعة، وأخبره بأنه مطرود من العمل. فقال لودوس "إن السيد بون علم ببقاء البغال خارج الإسطبل وقد أرسلني لأحضر له زجاجة وسكي، وذلك حوالي الرابعة هذا الصباح".

فقال له بون: "لم أرسلك إلى أي مكان". وتابع بون قائلاً: "عندما جاء إلى هنا، البارحة مساء، بتلك القصة الملفّقة، زاعماً أن البغال موجودة في حوش السيد موري لم أصغ إليه. بل لم أهتمّ بأن أساله عن مكان العربة والدواب. كل ما قلته هو أن يمرّ قبل أن يعيد العربة صباحاً، بمحلّ "ماك ونبوش" ويأتيني بجالون من وسكي "أنكل كال بوكرايت". وقد أعطيته المبلغ اللازم ـ دولارين".

وقال لودوس: "وأتيتك بالوسكي. لا أعرف ما فعلت بها".

فأجاب بون: "أتيتني بنصف زجاجة من سائل معظمه ماء وفلفل أحمر. لا أعرف ماذا سيفعل بك السيد موري لإبقائك البغال خارج الإسطبل، لكن هذا لا يقارَن بما سيفعله بك كالفن بوكرايت عندما أريه تلك الوسكي ويعلم أنك زعمت أنها من صنعه".

وقال لودوس: "إن السيد ونبوش يقيم على بعد ثمانية أميال من المدينة. ولم يكن باستطاعتي الذهاب إليه والعودة قبل منتصف الليل.

فقال بون: "لهذا إذن احتجت إلى العربة. وأخيراً انسحبتَ من جفرسون، والآن تجوب المنطقة كلّها لتجد نافذة خلفية تتسلل منها. حسناً، ستجد الوقت الكافي الآن. المشكلة الوحيدة هي أنك ستضطر للمشي"..

وصاح لودوس بفظاظة:

"قلت لي زجاجة وسكي، فجلبت لك زجاجة..".

وقاطعه بون قائلاً: "لم تكن تحوي نصفها". ثم التفت إلى السيد بالوت وقال: "يا للشيطان، لستَ مضطراً أن تدفع له راتبه الأسبوعي الآن". (كان أجر السواقين الأسبوعي دولارين؛ كان هذا عام 1905،

كما تذكر) "إنه مدين لي بثمن الوسكي. ماذا تنتظر؟ أتنتظر مجيء السيد موري ليطرده بنفسه؟"

ومع ذلك، فلو اعتزم السيد بالوت (وأبي) طرد لودوس فعلاً لكانا أعطياه أجره الأسبوعي. وكونهما لم يفعلا ذلك (ولودوس يعرف ذلك) بدليل أن لودوس كان سيُمنَح أجر أسبوع (مع عطلة) لإبقائه الدواب خارج الإسطبل طول الليل، دون استئذان. كان سيحضر صباح الاثنين التالي، في الوقت المحدد، مع باقي السواقين ويكون جون بويل قد هيأ له الدواب كأنّ شيئاً لم يحدث. إنما كان على القدَر أو الشائعات والتقوّلات، أن تتدخل في الأمر.

هكذا أسرعنا ـ وأنا أهرول ـ عابرين الممرّ باتجاه الساحة. ولم نكد نبلغ نهاية الممر حتى سمعنا طلقات الرصاص الخمس: وهاو، وهاو، وهاو، وهاو، وهاو، هكذا. ثم وصلنا الساحة (لم تكن بعيدة: كانت عند المنعطف أمام مخزن ابن العم "إسحاق ماك كاسلن" للخرضوات) وصار بإمكاننا مشاهدة من فيها. كان هنالك جمع كبير. فقد اختار بون يوماً مناسباً يكثر فيه الشهود. كان السبت الأول من كل شهر، حتى في تلك الأيام، يُعتبر يوم البازار، وخصوصاً في أيار، حين تحسب الناس مشغولين في زراعة الأرض. الأمر لم يكن كذلك في مقاطعة "يوكناباتووفا". كانوا هناك جميعاً، السود منهم والبيض: كانت إحدى التجمعات تضم السيد هامبتون (جد الفتى الصغير آنذاك، الذي صار الآن عمدة، أو الذي سيصير عمدة في العام التالي) واثنين من المتفرّجينَ يتعاركان مع بون. وكان هناك تجمّع آخر حول وكيل عمدة آخر يمسك بلودوس، على بعد عشرين قدماً، وهو لا يزال في الوضعية المتجمدة للركض، أو متجمداً في وضعية الركض، أو في وضعية الركض المتجمّد. وكان هناك جمهور ثالث

خلف نافذة مخزن ابن العم آيك التي اصطدمت بها إحدى رصاصات بون (ولم يُعرف أين ذهبت الرصاصات الأربع الأخرى) بعد أن اخترقت عجيزة فتاة زنجية، كانت الآن تتمدد على البلاط، وتصرخ، إلى أن خرج ابن العم "آيك" من المخزن وغيّب صوتها بجعيره الهائج على بون، ليس لأنه هدّم نافذته (وكان ابن العم "آيك" شاباً آنئذ... وأفضل رجال الغابات والصيادين الذين عرفتهم المقاطعة) بل لأنه لم يستطع أن يصيب هدفاً على بعد عشرين قدماً فقط. وتتالت بعد ذلك الأحداث بسرعة أكبر. كان مكتب الدكتور بيبودي في الطرف الآخر من الشارع، فوق حانوت "كريستيان" للأدوية. وكان السيد هامبتون يحمل مسدس جون بويل ويتقدم الجمع، يتبعه أوستر وزنجي آخر يحمل الفتاة التي كانت ما تزال تصرخ وتنزف مثل خنزير مطعون، على طول الدرج، يتبعهم أبي ومعه بون، ثم أنا ووكيل العمدة ولودوس وأكبر جمهور يتسع له الدرج، إلى أن توقّف السيد هامبتون والتفت وصاح بهم. كان مكتب القاضي ستيفنس قريباً من عيادة الدكتور بيبودي الذي كان يقف على رأس السلّم حين صعدنا. وهكذا دخلنا ـ أعني والدي وأنا وبون ولودوس ووكيل العمدة ـ لننتظر عودة السيد هامبتون من مكتب الدكتور بيبودي. ولم يستغرق ذلك طويلاً.

وقال السيد هامبتون: لا بأس. لم تكد تخدشها الرصاصة. اشتر لها فستاناً جديداً (لم تكن تلبس شيئاً تحت فستانها) وكيساً من الملبس، وأعطِ أباها عشرة دولارات، فيسوّي هذا حساب بون معها. أما حسابي أنا معه فلم أقرره بعد".

ثم نفخ هامبتون في وجه بون لحظة ـ كان رجلاً ضخماً، له عينان رماديتان صغيرتان، وجسم ضخم كجسم بون، دون أن يكون له طوله ـ وقال له حسناً!".

وقال بون: "شتمني. وأخبر صن توماس أنني صغير العجيزة وابن ساقطة".

فنظر السيد هامبتون إلى لودوس وقال له "ما جوابك؟".

قال لودوس: "لم أقل أبداً إنه صغير العجيزة. بل قلت إنه صغير العقل".

وصرخ بون قائلاً: "ماذا؟".

وقال القاضي ستيفنس: "هذا أسوأ".

وقال بون: "طبعاً أسوأ. ألا ترى؟ لم يكن لي خيار. فكيف لي، أنا الرجل الأبيض، أن أقف ساكناً وأدع بغّالاً زنجياً لعيناً ينتقدني، أو يقول أمام خمسة من الشهود إنني بلا عقل. ألا ترى؟ إنك لا تستطيع استرجاع شيء، أي شيء. لا يمكنك حتى إصلاحه، لأنه ليس هناك ما يُصلَح".

وأوشك بون أن يبكي. و تلوّت تقاطيع وجهه الضخم المحمرّ، القاسي الذي يشبه الجوز، واعتُصِرَت كوجه طفل. ثم تابع قائلاً: "لو أنني حصلتُ الآن على مسدس آخر وصوبتُه على صن توماس، لأخطأته أيضاً".

فنهض أبي فجأة وبسرعة، وكان الجالس الوحيد. حتى القاضي ستفنس كان واقفاً ينتفض في الغرفة قبالة المدفأة ويداه تحت ذيل معطفه كما لو كان الوقتُ شتاء، والنارُ تشتعل في المدفأة. وقال أبي: "يجب أن أعود إلى العمل. ماذا يقول المثل القديم عن العمال البليدين؟ ثم أضاف، دون أن يوجِّه الكلام إلى أحد: أريد أن يوضع بون وهذا الغلام تحت كفالة مالية، استتباباً للأمن. لنقل مئة دولار عن كل منهما. أنا أكفلُهما بشرط أن أحصل منهما على كفالتين متبادلتين نتفق عليهما ويستحق دفعهما حين

يرتكب أي منهما أي ذنب لا... أ..". فأسعفه القاضي ستينفنس قائلاً: "... لا يرضيك!".

وقال له أبي: "أشكرك". ثم أضاف متسائلاً: "لا أدري إن كان هذا قانونياً أم لا".

فقال القاضي: "أنا أيضاً لا أدري. يمكننا أن نجرب. وإذا لم يكن شيءٌ كهذا قانونياً، وجب أن يكون كذلك".

وقال له أبي: "أشكرك". واتجهنا أنا وبون وأبي نحو الباب.

وقال لودوس: يمكنني أن أعود الآن، فلا انتظر حتى يوم الاثنين، إن كنت تحتاج إلي".

فأجابه أبي: "كلا".

وهبطنا الدرج ـ أنا وأبي وبونٍ، نحو الشارع. جرى هذا كلُّه يوم السبت، يوم البازار. لكن كان كلُ شيء قد انتهى. أعني إلى أن يجد شخصٌ آخر يُدعى بون هوجانبك مسدساً آخر. ومشينا في الشارع نحو الإسطبل ـ أنا وأبي وبون. كان صوتُ بون يمر الآن فوق رأسي صوب ظهر أبي قائلاً:

"إذا كنت سأفي المئتي دولار بمعدل دولار في الأسبوع، فذلك يستغرق سنة وثمانية وأربعين أسبوعاً. وسيبلغ التعويض عن نافذة "آيك" عشرة دولارات، أو خمسة عشر دولاراً، كما أظن، بالإضافة إلى ما سأتحمّله عن تلك الفتاة التي جاءت صدفة في الطريق، قل: سنتين وثلاثة أشهر. معي الآن حوالي أربعين دولاراً. إذا أعطيتك هذا المبلغ نقداً، هل تتركني أنا ولودوس وصن توماس في أحد الاصطبلات وتقفل الباب علينا عشر دقائق؟".

قال أبي: "كلا".

الفصل الثاني

كان ذلك يوم السبت. وعاد لودوس إلى العمل صباح الاثنين. ويوم الجمعة التالي مات جدي ـ الجد الآخر، والد أمي، جد جدك ـ مات في خليج سان لويس.

بون لم يكن ملكاً لنا ـ أعني ليس لنا وحدنا، نحن آل بريست، أو بالأحرى آل ماك كاسلين وآل ادموندس الذين ينحدر منهم آل بريست. كان لبون مالكون ثلاثة. ليس فقط نحن الذين يمثلنا جدي ووالدي وابن العم آيك ماك كاسلين وابنُ عمّنا الآخر زاكاري ادموندس، الذي تنازل ابن العم آيك في عيد ميلاده الحادي والعشرين لوالده زاكاري ماك كاسلن ادموندس، عن مزرعة ماك كاسلن ـ بل أيضاً الميجر دي سبين والجنرال كومبسون، إلى يوم وفاته. كان بون يمثّل شركةً مساهمة يملك فيها ثلاثتُنا ـ ماك كاسلين ودي سبين والجنرال كومبسون ـ حصصاً متساوية. لكن المسؤولية المترتّبة على كلّ من هذه الحصص لم تكن محدَّدة. والنظام الوحيد الذي كان يُعمل به في هذه الشراكة هو أن يهبّ للدفاع عن بون من كان أكثرَ قرباً من المشكلة التي أحدثها، أو المخالفة التي ارتكبها أو تحمّل مسؤوليتها. كان بون جمعية خيريّة ذات فوائد للحماية، حيث الفوائد من نصيب بون، بينما المشاركة والإحسان من نصيبنا نحن.

كانت جدتُه ابنةَ أحد زعماء قبيلة تشيكاسو الهندية. وقد تزوّجت تاجر وسكي من البيض، فكان بون يعلن أحياناً أن دم التشيكاسو الملَكي يجري في عروقه بنسبة تسعة وتسعين في المئة ـ وتختلف

النسبة بحسب حجم الكأس التي تناولها. وليس هذا فقط، بل كان يعلن أنه سليل "إيسيتيبّها" نفسِه، وأنه سيقاتل كل من يجرؤ على أن يُلمح إلى أن في عروقه قطرةً واحدة من الدم الهندي.

كان قوياً، أميناً، شجاعاً. ولكن لا يُركَن إليه أبداً. كان طولُه ستَّ أقدام وأربع بوصات ويزن مئتين وأربعين رطلاً انكليزياً، وله عقل طفل. منذ سنة، كان أبي قد بدأ يقول إنني سأتخطاه عقلياً في أية لحظة.

ومع أنه كان ظاهرةً بيولوجية مكتملة من لحمٍ ودم، باستثناء لحظاتِ السكر التي كان يتحرّق فيها لقتال أيّ رجلٍ أو أية جماعة دفاعاً عن حقوق الأجداد، أو ضدَّهم، (حسبما يكون تأثير الخمر عليه)؛ فلا بدّ أنه أمضى سنواته التسع أو العشر الأولى، في مكان ما. إذ كان يبدو كما لو أنه خُلق مكتملاً، وله من العمر تسعٌ أو عشرٌ أو إحدى عشرة سنة؛ فيتجه بواسطتنا نحن الفرقاء الثلاثة ـ ماك كاسلين ودي سبين وكومبسون ـ كحلٍّ لورطة حصلت في مخيم صيد الميجر دي سبين.

إنه المخيم نفسه الذي بقينا نسميه مخيّم ماك كاسلين، بضع سنوات أخرى بعد موت ابن العم "آيك"، تماماً كما بقينا ـ نحن آباءك ـ نسميه مخيّم دي سبين بعد موت الميجر دي سبين بسنوات. ولكن عندما اشترى الميجر دي سبين، في أيام أبي، الأرض أو استعارها أو استأجرها (أو كما كان الناس يفعلون ليكتسبوا صكوك التملك الشرعية في الميسيسيبي بين عامي 1865 و 1870) وبنى الكوخ والإسطبلات وأكواخ الكلاب، كان المخيم مخيمَه: هو الذي اختار الرجال الذين اعتبرهم جديرين بصيد الحيوانات التي كُتِب عليها الصيد. وهكذا لم يكن يملك الصيادين وحسب، بل مكان الصيد

والطريدة أيضاً: الدببة والغزلان والذئاب والفهود التي كانت ترتادها على بعد أقل من عشرين ميلاً عن جفرسون. وهي القطاعات الأربعة أو الخمسة من أدغال حوض النهر التي كانت جزءاً من حلم توماس ستبن بالمملكة الشاسعة ـ الحلم الذي لم يتبدّد وحسب بل دمّر معه ستبن أيضاً ـ الأدغال التي كانت في تلك الأيام بمثابة بوابة شرقية إلى المستنقعات والغابات العذراء التي كانت تمتدّ غرباً، من التلال حتى المدن والمزارع على طول الميسيسيبي.

كان يبعد عشرين ميلاً إذن. وكان آباؤنا يغادرون جفرسون بالعربات في منتصف ليل الخامس عشر من تشرين الثاني (كانت تُقطع على الجياد بسرعة أكبر) ويبلغون موقع غزال أو دب مع الفجر. ولم تكن البراري، حتى عام 1905، قد تراجعت أكثر من عشرين ميلاً آخر، فكان على العربات المحمَّلة بالبنادق والطعام والفُرش أن تتحرك مع غروب الشمس؛ وكانت شركة قطع أخشاب شمالية قد مدَّت آنذاك خطاً حديدياً ضيقاً لشحن الأخشاب، يتّصل بالخط الرئيسي، ماراً على بعد ميل واحد من مخيم الميجر دي سبين الجديد، حيث أُعِدّ موقفٌ غير رسمي لإنزال الميجر وضيوفه، وحيث تنتظرهم عربات كانت قد تحركت منذ اليوم السابق. وكان بوسعنا أن نرى نهاية هذه الحقبة بحلول عام 1924.

كان الميجر دي سبين وبقية الفوج القديم قد ذهبوا باستثناء ابن العم آيك وبون (كانت الطريق قد رُصفت بالحصى من جفرسون إلى محطة دي سبين) فصار بإمكان ورثتهم أن يوقفوا سياراتهم عندما يسمعون أصوات الفؤوس والمناشير، حيث لم تكن تُسمع، قبل سنة، غيرُ أصوات كلاب الصيد. ولأن مانفريد دي سبين كان صرّافاً لا صيّاداً كأبيه فقد باع الأرض، والأخشاب. في عام 1940 (وكان قد

أصبح اسمُه مخيم ماك كاسلين) كـان علـيهم ـ علينـا، أن نحمـل كـل شيء في شاحنات بيك آب، ونمضي مسافة مئتي ميـل علـى طرقـات بعيدة حتى نـصل إلى بريـة تُنـصب فيهـا الخيـام. ومـع ذلـك، كانـت السيارة وسيلة عقيمة، عمليّاً وبالضرورة، للوصول إلى البراري. لكـن ربما أنّهم سيجدون ـ أو ستجدون ـ البراري في الوجه الثـاني للمـريخ أو للقمر، وفيها دببة وغزلان!

ولكن عندما وصل بون إلى المخـيّم ذات يـوم، بكامـل هيكلـه، وله من العمر عشر سنوات أو إحـدى عـشرة أو اثنتـا عـشرة سـنة، لم يكـن أمـام الميجـر دي سـبين والجنـرال كومبـسون ومـاك كاسـلين أدموندس ووالتر وأيويل وبوب ليجيت والستة الآخرين سوى عـشرين ميلاً يجتازونها. وعلى الرغم من أن الجنـرال كومبـسون كـان قـد قـاد الجنود في ستلوه، برتبة كولونيل، دونما فشل كـبير، وقـادهم ثانيـة، كجنرال دونما فشل كبير أيضاً، أثناء تقهقر جونسون في آتلنتا، إلا أنـه كان قليـل الخـبرة باسـتطلاع الأرض ومـا يتعلـق بالطوبوغرافيـا، إلى درجة أنه كان يضل طريقه بعد مغادرة المخيم بعشر دقائق (كان يجـب أن تتوفر في البغال التي يختارها القدرة على إعادته إلى المخيم في أيـة لحظة، وذلك حين بلغ به الانهيار حداً جعلـه يقبـل باسـتـشارة بغلـة). هكذا كانت حالهم. وعندما كان يعود آخر صياد منـهم، يعمـدون إلى نفخ البوق بالتناوب، إلى أن يصل الجنرال كومبسون. كان هذا التـدبير كافياً إلى أن بدأ سمع الجنرال يضعف بدوره، وجـاء يـوم اضـطر فيـه والتر اويل وسام، الذي كان نصف زنجـي ونـصف هنـدي مـن قبيلـة تشيكاسو، إلى تعقّب أثره، وخيّما معه في الغاب طول الليـل. وهكـذا خُيّر الجنرال بين أن يمتنع عن مغادرة المخيّم أو أن يُطرَد من النـادي، حينذاك ظهر بون هوجانبك. كان عملاقاً وهو في العاشـرة أو الحاديـة

عشرة من عمره، وأضخم من الجنرال كوميسون الذي استقبله كلُقْية. وبدا بون كأنه لا يعرف غير اسمه، ولا يملك غيره. حتى ابن العم آيك لم يكن متأكداً ممن يكون قد عثر على بون أولاً، ماك كاسلين أدموند أو الميجر دي سبين، حين حرّره سيّده. كل ما كان يعرفه آيك - أو يذكره - هو أنّ بون كان هناك، في الثانية عشرة من العمر تقريباً، خارج بيت ماك كاسلين، حيث كان ماك كاسلين أدموند يربي آيك وكأنه أبوه، فتعهد بون أيضاً وكأنه أبوه، مع أن ماك كاسلين إدموند نفسه لم يكن قد تجاوز الثلاثين.

على أية حال، عندما أدرك الميجر دي سبين أنه سيضطر إما إلى طرد الجنرال كومبسون من النادي، وهو أمر صعب، أو إلى منعه من مغادرة المخيم، وهذا مستحيل، كما أدرك أنه كان عليه أن يُزوّده بفتى على شاكلة بون هوجانبك، عند ذلك ظهر بون هوجانبك الذي قدّمه ماك كاسلين إدموند أو - أدموند ودي سبين معاً -. وفي وسع آيك أن يتذكر هذا المشهد، أعني تحميل أسرّة المخيّمات والبنادق والزاد في العربة، يوم الرابع عشر من تشرين الثاني، مع تنيزجم (جد بوبوبوشامب الذي سيأتي ذكره قريباً) وسام وبون. كان آيك آنذاك في الخامسة أو السادسة من عمره. وكان ماك يعتلي حصاناً ويقف في الطليعة، وهم في طريقهم إلى المخيم حيث كانت مهمة بون أن يتبع الجنرال كومبسون، كل صباح، على بغلة ثانية ليعيده إلى الاتجاه الصحيح، في الوقت المناسب، فيصلا إلى المخيم قبل حلول الظلام.

هكذا جعل الجنرال كومبسون من بون رجل أدغال غصباً عنه. ومع أنه كان يجلس إلى مائدة واحدة مع والتر أيويل، ويستكشف معه الغابة نفسها، وينامان معاً تحت المطر نفسه، فإنّ ذلك لم يجعل بون ماهراً في إطلاق الرصاص. ويروي والتر أيويل عن هذا الموضوع

حكايات طريفة. منها أنه ترك بون مرة عند كمين لصيد الغزلان (كان الجنرال كومبسون قد ذهب أخيراً إلى أبيه، أو إلى نادي المحاربين القدامى، ولعلهم قد أصروا على الذهاب إليه، لأنهم لم يجدوا مكاناً آخر يناسبهم للإقامة الدائمة ـ وكان بون قد أصبح يصطاد كغيره بانتظام) وعندما سمع أيريل أصوات الكلاب، عرف أن الغزال سيمر قرب كمين بون. ثم لم يلبث أن سمع أصوات خمس طلقات من بندقية بون العتيقة (كان الجنرال كومبسون قد أوصى له بها، ولم تكن أحسن حالاً حين كانت في حوزة كومبسون، ما كان يحمل والتر على الاستغراب إذا انطلقت البندقية مرتين دون أن تتعطل، فكيف إذا أطلقت خمس طلقات). وتبع الطلقات صوت بون يخترق الأدغال قائلاً: "يا للشيطان! نزل! ألحقوه! ألحقوه!" فأسرع والتر باتجاه كمين بون ووجد الخرطوشات الخمس المفرغة على الأرض، وهي لا تبعد أكثر من عشر خطوات عن آثار الغزال الذي مر، لكن دون أن تمسه.

حينئذ اشترى جدي تلك السيارة ووجد بون رفيقة روحه. في هذه الفترة كان قد أصبح رسمياً (بموافقة ماك كاسلين وأدموند وبريست معاً) من خدم إسطبلنا العمومي. كانت معظم الأعمال، في تلك الأيام، أعمالا إضافية، كإطعام الدواب وتنظيف السروج والعربات... ولكن كان لبون طريقة خاصة مع الجياد والبغال، وسرعان ما أصبح سائقاً منتظماً لعربات الأجرة ـ التي تلاقي قطارات النهار، وعربات الجرّ، وعربات الركوب، والشاحنات الصغيرة. وكان الآن قد أصبح يعيش في المدينة، إلا عندما يتغيّب ماك كاسلين وزاكاري في الليل معاً، فيضطر للنوم في البيت ليحرس النساء والأولاد. أعني كان يعيش في "جفرسون". أعني، كان له بيت ـ غرفة مفردة في فندق كان يدعى في أيام جدي فندق كوميرشال الذي أُنشئ

على أمل أن ينافس فندق هولستون هاوس، ولم يبلغ يوماً مستواه. ولكن كان في أيامي فندق ناجح ينزل فيه المحلَّفون ويأكلون خلال فترات انعقاد المحاكم، وحيث كان أصحاب الدعاوى وتجّار الجياد والبغال يشعرون بحرية أكثر مما لو كانوا بين السجاد والمباصق النحاسية، والمقاعد الجلدية، ومفارش الكتان. كان ذلك فندق سنوبس. ففي تلك الأيام بدأ فايم سنوبس ينقل عشيرته من البرية الواقعة خلف منعطف الفرنسي إلى البلدة. وقد قُتل هذا الثري منذ عشر سنوات أو اثنتي عشرة سنة بيد قريب له مجنون؛ كان هذا القريب يظن أن ابن عمّه لم يرسله إلى الإصلاحية للعلاج بل للتخلص منه. ثم استأجرت المكان سيدة نحاسية الشعر لمدة قصيرة وذلك حوالى عام 1935. كانت قد أتت فجأة من مكان ما ثم ما لبثت أن عادت بسرعة، ولم تطِل إقامتها. وقد عُرفت لدى أبيك ولدى الشرطة باسم ليتل شيكاغو. أما فندق كوميرشال هذا فهو الذي تعرفه أنت باسم بنسيون السيدة راونسويل. لكنه كان ما يزال في أيام بون يدعى فندق كوميرشال. وبعد أن كان بون ينام على الأرض في مطبخ بيت كومبسون أو إدموند أو بريست، صار ينام في الفندق عندما اشترى جدّي السيارة.

لم يكن جدّي يريد شراء سيارة. لكنه أُجبر على ذلك. كان صرّافاً، ورئيس أقدم بنك في جفرسون، أي أول بنك في مقاطعة يوكناباتاوفا. وقد ظل يعتقد حتى مات ـ بعكس سواه في المقاطعة ـ بأن السيارة ظاهرة ستزول مع شروق شمس اليوم التالي مثل الفطر الذي لا جذور له. غير أن الكولونيل سارتوريس، رئيس البنك الجديد، أجبره على شراء واحدة. أو بالأحرى، أجبره رجل قصير النظر، ميكانيكي ساحر يدعى بوفالو. ولم تكن سيارة جدي أول

سيارة في جفرسون. وأضرب صفحاً عن ذكر سيارة مانفريد دي سبين الحمراء. مع أن دي سبين كان يقودها يومياً في شوارع جفرسون منذ سنوات، إذ لم يكن لها مكان في ذلك الوسط أكثر مما كان لمانفريد نفسه. كان كلاهما عازباً، وعلى هامش حياة المدينة، لا يصلحان لشيء، حتى عندما كان مانفريد محافظ جفرسون. بل إنّ لون تلك السيارة القرمزي لم يكن موضع احتقار المدينة بقدر ما كان موضع إنكار مبهم.

لم تكن سيارة جدّي أول سيارة رأتها جفرسون، والعكس صحيح. بل ولم تكن أول سيارة سكنت جفرسون. فقبل سنتين كانت إحدى السيارات قد قطعت الطريق كلها من ممفيس، مجتازة مسافة ثمانين ميلاً في أقل من ثلاثة أيام. ثم هطل المطر وبقيت السيارة في جفرسون مدة أسبوعين، في وقت قطِعت فيه الكهرباء عن المدينة. فكما كان الإسطبل العمومي يعتمد كلياً على بون، وبدونه تتوقف النقليات العامة، كذلك كان السيد بوفالو الرجل الوحيد - من هنا إلى "ممفيس" - الذي يقدر أن يُبقي المحرك البخاري لمعمل الكهرباء دائراً. ومنذ أن تبيّن أن السيارة لن تتجاوز المكان الذي بلغته، على الأقل ذلك اليوم، أصبح السيد بوفالو وبون لا يفارقانها، مثل ظلّين، ظل كبير وظل صغير: العملاق الذي تفوح منه رائحة النشادر وزيت السروج، والرجل الضئيل الذي تلوّثه بقع الشحم والهباب، بعينيه اللتين تشبهان ريشتي طائر أزرق سقطتا فوق كتلة صغيرة من الفحم، لا يكاد وزنها يبلغ مئة رطل انكليزي، مع ما في جيوبه من أدوات - ظلّ ساكن يحدّق فيها مثل ثور جامد، والآخر يحلم بها، بلطف، وحنوّ، تمتد يده القاتمة وتلمسها بعذوبة يد امرأة، تداعبها، تربّت عليها، ثم في اللحظة التالية يقرفص حتى ردفيه خلف غطائها الأمامي.

أمطرت السماء طول ذلك الليل. وفي الصباح التالي كانت ما تزال تمطر. وأخبر صاحب السيارة ـ ربما أخبره السيد بوفالو وأكد له كما يبدو ـ بأن الطرقات لن تكون سالكة قبل أسبوع أو عشرة أيام على الأقل؛ وهو شيء غريب، لأن أحداً لم يره يبتعد عن معمل الكهرباء أو المخزن الصغير في ساحة بيته الخلفية، ولم يعرف عنه أنه مشى على الطرق ما يكفي كي يتنبأ بحالتها. هكذا عاد صاحب السيارة إلى ممفيس بالقطار، تاركاً السيارة تحت الحفظ، في ساحة بيت بوفالو دون غيره. ولم نستطع أن نتصور هذا: كيف استطاع السيد بوفالو الرقيق الوديع، الغامض الكلام، المنقطع عن العالم باستمرار، الذي يغطيه شحم المعمل، الرجل الذاهل الذي يبدو كمن يمشي في نومه ـ كيف استطاع، وبأية وسائل، بأي تأثير مغنطيسي، بأية موهبة لديه كانت مجهولة، استطاع أن يُقنع الرجل الغريب بأن يترك لعبته الثمينة في حوزته.

لكنه اقتنع، وعاد إلى ممفيس؛ والآن عندما يطرأ عطل على الكهرباء في جفرسون، يضطر شخص ما للذهاب سيراً على الأقدام، أو على الحصان أو الدراجة، إلى بيت السيد بوفالو في طرف البلدة، إذ ذاك يظهر عند زاوية بيته من الساحة الخلفية زائغاً، حالماً، دونما استعجال، وهو ما يزال يمسح يديه. وفي اليوم الثالث اكتشف والدي أخيراً أين يكون بون (أو أين كان) خلال الوقت الذي يجب أن يكون فيه داخلَ الإسطبل. ولكن بون نفسه كشف السر آنذاك، حين أذاع الخبر بسرعة محمومة ثائرة. كان قد اشتبك مع السيد بوفالو بمعركة جسدية، حين شهر السيد بوفالو ـ ذلك المَعين الذي لا ينضب، كما بدا، من المفاجآت والمؤهلات ـ على بون مسدساً حقيقياً، لا يداً ملطخة بالشحم والهباب.

هكذا روى بون الخبر. كانا ـ هو والسيد بوفالو ـ على وفاق تام، وتفاهم فوري فيما يتعلق بترك السيارة بين يدي السيد بوفالو أثناء غياب صاحبها؛ إذ تصوّر بون أن السيد بوفالو سيحل لغز تسييرها حالاً فيستطيعان أن يتسللا بها في الظلام. لكن ما صدم بون وأثاره، هو أن كل ما أراد السيد بوفالو أن يعرفه هو لماذا تسير. وقال بون في ذلك: "لقد خرّبها... فككها قطعاً، قطعاً، ليرى ما بداخلها. لن يعيدها كما كانت عليه أبداً!".

لكن بوفالو أعادها. ووقف هادئاً ملطخاً بالشحوم حالِما بلطف، عندما عاد صاحب السيارة قبل أسبوعين وأدارها ومضى بها. وبعد ذلك بسنة كان بوفالو قد صنع سيارته الخاصة، بتركيب محرِّك، وأجهزة سرعة وكل شيء، في عربة ذات إطارات من المطاط. ومضت بعد ظهر ذلك اليوم وهي تقعقع برصانة، واجتازت مساحة المدينة دون أن تسرع، فأجفلت جياد عربة الكولونيل سارتوريس المشابهة لها وجمحت ساحبة العربة التي كانت فارغة لحسن الحظ فحطمتها تقريباً. وفي الليلة التالية دُوّن في سجلات جفرسون قانون ضد أي حادث تسببه عربة ميكانيكية ضمن حدود البلدة.

هكذا أُرغم جدي على شراء سيارة وهو رئيس أقدم وأكبر بنك في مقاطعة يوكنا باتاوفا، لئلاّ يخضع لسلطة رئيس بنك أصغر. أتفهم ما أعني؟ ليس أكبر أو أصغر، من حيث المكانة الاجتماعية، ولا تنافس أيضاً، بل أصحاب بنوك أشبه ما يكونون برهبان كرّسوا أنفسهم لخدمة أسرار المال الخفية، التي يستحيل النفاذ إليها. وبالرغم من تشدّد جدي ومقاومته التي لا تلين، ورفضه الاعتراف بعصر الآلة، فقد تسامح نوعاً ما بسبب ما يشبه كابوساً رؤياوياً حول مستقبلِ بلادنا العظيم الذي لا يُحَدّ والذي ستكون وحدةُ اقتصادِهِ الأساسية كتلةً صغيرة مكعبة لها أربعُ عجلات ومحرِّك.

وهكذا اشترى السيارة، ووجد بُون فيها عروسَ أحلامه، أو الحبَّ الأول لقلبه الساذج البريء. كانت من ماركة ونتون فلايَر. (هذه كانت السيارة الأولى التي اقتنيناها، قبل "الوايت ستيمر" التي اشتراها جدي بعد سنتين عندما أعلنت جدتي أنها لم تعد تطيق رائحة البنزين.) وكان بإمكانك أن تدير محركها باليد من الأمام، فلا تجازف بأكثر من كسر عظمة أو عظمتين في ساعدك. كانت لها مصابيح على الغاز للقيادة في الليل، وعندما يكون المطر على وشك السقوط كان خمسة أو ستة أشخاص يستطيعون أن يضعوا الغطاء فوقها ويُنزلوا الستائر في عشر دقائق أو خمس عشرة. كان جدي هو الذي جهّزها بفانوس على الكاز، وفأس جديدة وكتلة صغيرة من الأسلاك الشائكة المربوطة إلى بكرة، للسفر إلى خارج حدود المدينة. بهذه المعدّات كانت تستطيع الذهاب إلى أبعد من ممفيس. وقد حصل ذلك مرة، كما سيجيئك الكلام. وكان لنا جميعاً ـ الجدين والأبوين، والعمات وأبناء العم والأولاد ـ لباس خاص لركوبها يتألف من وشاح وقبّعة ونظارتين وقفّازين وثوب بلا شكل ولا لون مقفل عند العنق يدعى "مَشْلح الغبار" الذي سأتكلم عنه فيما بعد.

في تلك الأثناء كان السيد بوفالو قد علّم بون قيادة سيارته التي صنعها بيده، منذ مدة طويلة. لم يكن باستطاعتهما السير في شوارع جفرسون، بل إنهما، في الحقيقة، لم يعودا يتخطيان بها حدود بوابة السيد بوفالو الأمامية. فقد كانت هناك مساحة من الأرض المكشوفة خلف البيت عبّدها بون والسيد بوفالو فصارت سهلاً يصلح حلبة للقيادة. وهكذا، فحين ذهب بون والسيد واردوين، أمين صندوق بنك جدي (كان عازباً، وواحداً من أشهر رجال بلدتنا. ففي مدى عشر سنوات، وقف اشبيناً في ثلاثة عشر عرساً) إلى ممفيس بالقطار

وجلبا السيارة (في أقل من يومين هذه المرة، كاسرين الرقم القياسي) كان بون قد أصبح نقيب سواقي السيارات في جفرسون!

ثم ألقى جدي تلك السيارة، مخيباً حلم بون. فقد اشتراها، دافعاً ما سمّاه "بون" كمية ضخمة من النقد، ثمناً لها، وتفرّس فيها مرة، ثم منعها من التجول. كان ـ أي جدي ـ عاجزاً عن تنفيذ قراره هذا تنفيذاً كاملاً، بسبب الأمر المتعجرف الذي كان قد أصدره الكولونيل سارتوريس، والذي لم يسمح جدي ـ وهو الأكبر منه سناً ـ أن يبقيه مرعي الإجراء، مهما يكن رأيه الخاص بالعربات الآلية. والحقيقة أن هذا الرأي كان هو نفسه رأي الكولونيل سارتوريس. وحتى يوم وفاتهما (حين أصبح هواء مقاطعة يوكناباتاوفا كلها مشبعاً بروائح البنزين، وكانت لياليها لا سيما أيام السبت، تضج بأصوات الاصطدامات وزعيق الفرامل) لم يقرض أحد منهما فلساً لأي شخص اشتُبِه بأنه سيشتري به سيارة. كانت جريمة الكولونيل سارتوريس أنه أخذ المبادرة ممن يتقدمه سناً، في موضوع يوافق عليه لفظيّاً ـ وهو إقصاء السيارات عن جفرسون، حتى قبل أن تصل إليها. أرأيت؟ لقد اشترى جدّي السيارة لا تحدياً لقرار الكولونيل سارتوريس، بل لنقضه عامداً متعمّداً.

وحتى قبل قانون سارتوريس هذا، كان جدي قد نقل العربة والجياد من ساحة البيت الخلفية إلى الإسطبل العمومي، حيث تتمكن جدتي من طلبها تلفونياً بسهولة أكثر مما لو نادت بأعلى صوتها من النافذة الخلفية للطابق الثاني، لأنهم كانوا، في الإسطبل، يجيبون على التلفون دائماً، بعكس "ند" الذي لم يكن يجيب دائماً، أكان في المطبخ أو الإسطبل، أو حيثما يُفترَض أن يكون عندما تناديه جدتي. وفي الحقيقة كان غالباً ما يوجد في مكان ما على مرمى الصوت، لأن إحدى

نساء البيت كانت زوجته. وعلى ذكر ند أقول إنه كان حوذي جدي، وكانت زوجته آنذاك (تزوج أربع مرات) "دلفين" طاهية جدتي. وكانت أمي تناديه بالعم ند، وتلحّ علينا، نحن الأولاد (على ثلاثة منّا، لأن آلكسندر لم يكن بعد قادراً على نداء أحد بأي اسم) أن نناديه كذلك. ولم يحرص سواها على هذا الأمر، حتى جدي، الذي كان هو أيضاً من عائلة ماك كاسلين، ولا ند نفسه، حقاً، وهو الذي لم يستحق هذا الاسم، بالرغم من أنه عاش طويلاً حتى بدأ يشيب شعره على حدود رأسه الأصلع، ولا أقول يبيضّ، إذ إنه لم يبيضّ قط، ولا كان قد شَابَ بالفعل، حين مات في الرابعة والسبعين من العمر، دون أن يتغير فيه أي شيء، ما عدا أنه احتمل أربع زيجات متتالية. ولعله لم يشأ أن يدعى بـ "العم" ند، مع أنه من عائلة ماك كسلين؛ وقد ولد في الساحة الخلفية لبيت ماك كاسلين عام 1860، الذي كان ركيزة عائلتنا.

ورثناه بدورنا، مع حكايته (التي لم يكن لها ما يدعمها أكثر من ند نفسه) بأن أمه كانت ابنة غير شرعية للوشيوس كوينتوس كارودوس نفسه من جارية زنجية. ولم يَدَعْ ند أحداً منا ينسى أنه، كابن العم إيزاك، حفيد لانكاستر الحقيقي، بينما لم نكن نحن، آل ادموندس وبريست ـ بل حتى أنا وأنت وجدي الذين تحمل اسمه ـ لم نكن سوى أقرباء بعيدي الصلة به.

وهكذا فعندما وصل بون والسيد واردوين بالسيارة، كان الكراج مهيأً لها، وقد جُدِّدت أرضُه وبابه، ووُضع له قفلٍ جديد حمله جدي بيده وهو يدور حول السيارة ببطء محدقاً فيها وكأنه يفحص محراثاً أو حصّادة أو عربة (أو زبوناً أيضاً) يعرض صاحبُها رهناً لقاءَ قرضٍ من المال. ثم أشار إلى بون أن يقودها إلى داخل الكراج (أوه، نعم، كنا آنذاك نعرف أن بيت السيارة يدعى هكذا، حتى في عام 1904، وحتى في ميسيسيبي).

وقال بون:

"ألا تنوي أن تجربها قليلاً، على الأقل؟".

"كلا، أجاب جدي. فقادها بون إلى الكراج وخرج منه وحده. كانت الدهشة تغمر وجهه أولاً، ولكن بدت عليه فيما بعد آثار الرّعدة والرعب. وقال جدي لبون:

"هل لها مفتاح؟".

"ماذا؟".

"مقبض، زر، شنكل. شيء تدار به؟".

ومدّ "بون" يده إلي جيبه ببطء وأخرج شيئاً وضعه في يد جدي. "أغلِق الأبواب"، قال جدي، ومشى وأدخل القفلَ الجديد بنفسه وأداره ووضع المفتاح في جيبه. وفي تلك اللحظة كان بون يخوض معركةً مع نفسه. كان يجتاز أزمة. كانت القضية يائسة. وراقبناه ـ أنا، والسيدة واردوين، وجدتي، وند، ودلفين، وكل شخص أبيض أو أسود كان يعبر الطريق، عندما وصلت السيارة ـ وهو يربحها أو، على الأقل، يربح بدايتها. وقال:

"سأعود بعد الغداء، فتستطيع السيدة سارة (وهي جدتي) أن تجربها ـ حوالي الواحدة. أستطيع أن أبكّر إذا كان ذلك الوقت متأخراً".

فأجاب جدي: "سأرسل خبراً إلى الإسطبل".

ذلك أن العملية كانت مهمة، لا مجرد تسلية. كانت معركة حياة أو موت، فاستعدّ لها كما تستعدّ الجيوش عند دخول المعارك فتهتمّ بأمور التموين ونوع أرض المعركة، وتأخذ بعين الاعتبار الأساليب الماكرة في الهجوم وتفاديه، وفي طليعة ذلك كله، الصبر وبُعد النظر.

استمر ذلك طولَ الأيام الثلاثة الباقية حتى يوم السبت. وعاد بون إلى الإسطبل العمومي. وبعد ظهر ذلك اليوم لم يبتعد بون كثيراً عن الهاتف، رغم أنه تظاهر بعدم الاكتراث، حتى أنه قام بعمله، أو هكذا ظنوا، إلى أن اكتشف والدي أن بون قد كلّف لوستر من تلقاء نفسه أن يأخذ العربة وينتظر قطار بعد الظهر الذي يصل لحظة انصراف جدي من عمله. وعلى الرغم من أن المعركة كانت لا تزال دائرة تتطلب ـ بل تفرض ـ الانتباه الدائم والتحفز، بدلاً من أن تمضي بقوة الاستمرار، فقد كان بون الواثق من نفسه يقول: "بالطبع أرسلت لوستر. هذه المدينة تنمو على نحو سنحتاج معه، عما قريب، إلى عربتين لملاقاة القطارات. وقد فكّرت، منذ زمن، بلوستر ليكون السائق الثاني. لا تهتم. سأراقبه".

لكن الهاتف لم يرنّ. وحوالى السادسة اعترف بون نفسه بأنه لن يرنّ. لكن هذه كانت مجرد هدنة. لم يفقد بعد شيئاً. وفي الظلام كان يستطيع تحريك قواته في المعركة! في الصباح التالي، حوالى العاشرة، دخل ـ دخلنا ـ البنك وكأننا تذكرنا فجأة، وقال لجدي: "أعطني المفاتيح. إن غبار "الميسيسيبي" ووحله، فضلاً عن وحل تنيسي وغبارها، عالق بها. سآخذ أنبوب الماء معي من الإسطبل إذا كان ند قد وضع الأنبوب الثاني في غير محله".

كان جدي ينظر إلى بون بتأمل وهدوء، كأنما كان بون صاحب عربة أو تبّاناً جاء يستدين منه خمسة عشر دولاراً. وقال: "لا أريد أن يبتل داخل بيت العربة". لكن بون باراه في عدم الاكتراث، بل بزّه فيه، إذ كان أكثر منه استعداداً لإضاعة الوقت. وقال لجدي:

"تذكّر قول الرجل، إن المحرك يجب أن يدار كل يوم، لا للذهاب إلى مكان ما، بل لمجرد حفظ الضمامات من الصدأ، لأن

جلب قطع غيار جديدة من ممفيس أو من المعمل ذاته يكلف عشرين أو خمسة وعشرين دولاراً. لا ألومك. كل ما أعرفه هو ما قاله لك، وعلي أنا أن أصدقه. أنت صاحب السيارة. إذا كنت تريد أن تصدأ فليس ذلك من شأن أحد. ولو كانت حصاناً، لكان أمراً آخر. فأنت، حتى لو لم تدفع ثمنه مئة دولار، كنت ستأمرني أن أنطْنطه ليتريّض قليلاً".

ذلك أن جدي كان رجل أعمال بارعاً، وكان بون يدرك ذلك: يدرك أن جدي لا يعرف متى يحجز وحسب، بل متى يصالح ويلغي الحجز أيضاً.

مدّ جدي يده إلى جيبه وناول بون المفتاحين ـ مفتاح قفل المرآب، والشيء الذي تدار به السيارة.

وقال لي بون: "تعال". وفيما نحن نجتاز الشارع، سمعنا جدتي وهي تنادي ند من نافذة الطابق الثاني. ثم سكتت عندما بلغنا البوابة. وإذ عبرنا الساحة الخلفية لنجلب الأنبوب، خرجت دلفين من باب المطبخ وقالت: "أين ند؟ إننا نناديه من الصباح. هل هو في الإسطبل؟".

قال لها بون: "طبعا. وسوف أخبره لكن لا تتوقعي مجيئه".

وكان ند هناك. كان هو واثنان من أخوتي ينظرون من خلال شقوق باب الكراج. أظن أن آلكسندر كان سيذهب هو أيضاً لو استطاع المشي. لا أعرف لماذا لم تفكر العمة كالي بهذا بعد. ثم وصل آلكسندر، وجاءت أمي عبر الشارع من البيت وهي تحمله. فلعل العمة كالي ما زالت تغسل حوائجه. قال بون: "صباح الخير، أيتها السيدة سارة" وكانت جدتي قد جاءت آنذاك تتبعها دلفين. ثم جاءت سيدتان أخريان، من الجيران، وهما في قبعات النوم. لم يكن بون

صاحب بنك، أو حتى تاجراً بارعاً، ولكنه كان يقيم الدليل على أنه محارب عصابات ممتاز. تقدم بون وأدار القفل، ثم فتح باب الكراج. وكان ند أول الداخلين.

"حسناً". قال له بون، وأضاف: "أنت هنا منذ الفجر تُوَصْوِص عليها من خلال ذلك الشق. ما رأيك فيها؟".

فأجاب ند: "لا رأي لي فيها. كان باستطاعة بريست أن يشتري أفضل جواد في يوكنا باتاوفا، ثمنه مئتا دولار، بثمن هذه السيارة".

فقال بون: "ليس هنالك جواد بمئتي دولار في يوكنا باتاوفا. فلو كان هنالك، فهذه السيارة تشتري عشرة جياد. اذهب وضع الأنبوب في الحنفية".

قال لي ند، دون أن ينظر حوله: "إذهب وضع الأنبوب في الحنفية يا لوشيوس". ثم ذهب إلى باب السيارة وفتحه، فإذا به المقعد الخلفي. لم تكن للمقاعد الأمامية أبواب في تلك الأيام. وقال ند: "تفضلي أيتها السيدة سارة، وأنت، أيتها السيدة أليسون. أما دلفين، فيمكن أن تنتظر مع الأولاد دورها في النزهة التالية".

وقال بون: "أنت اذهب وضع الأنبوب في الحنفية كما قلت لك. يجب أن أخرج من هنا قبل أن أفعل شيئاً بها".

وقال ند: "لا أحسب أنك ستدفعها بيدك لتخرج. أظننا نقدر أن نركب إلى هناك. وسوف أقودها. لذلك، فكلما أسرعت بدء المسير، أسرعت هي في سيرها". وقهقه ضاحكاً وهو يقول: "تفضلي يا آنسة سارة".

وقالت جدتي: "هل هي على ما يرام، يا بون؟".

وقال بون: "نعم، يا سيدتي. فدخلت جدتي وأمي. وقبل أن يتمكن بون من إغلاق الباب كان ند يتصدر المقعد الأمامي.

صاح بون: "اخرج من هنا. إذهب وقم بعملك إن كنت تعرف".

وقال ند: "لن ألمس شيئاً قبل أن أعرف كيف. ومجرد الجلوس هنا لن يعلمني. هيا أدرها".

وتوجه بون إلى مقعد قيادة السيارة وأدار المفتاح. ثم عاد إلى الأمام وأدار العفريت. وفي الدورة الثالثة علا هدير المحرك.

وصرخت جدتي به. وعلا صياح بون فوق صوت المحرك يقول: "كل شيء على ما يرام يا سيدة ساره!" وركض عائداً إلى المقود.

"لا يهمني". قالت جدتي. وأضافت: "ادخل بسرعة! لقد أثار هذا أعصابي!" فدخل بون وأوقف هدير المحرك، ثم سحب الفرامل. وفي الحال تحركت السيارة بهدوء وببطء إلى الوراء خارج الكراج، إلى الساحة في ضوء الشمس، ثم توقفت.

فقهقه ند ضاحكاً.

وقالت جدتي: "كن حذراً يا بون". وكنت أرى يدها تتشبث بركيزة السقف.

فقال بون: "نعم يا سيدتي". وتحركت السيارة ثانية إلى الخلف وبدأت تدور ثم تقدمت إلى الأمام وهي ما تزال تدور. وكانت يد جدتي ما تزال تتشبث بالركيزة. وكان وجه أمي يبدو مثل وجه فتاة صغيرة. مشت السيارة بهدوء وببطء عبر الساحة حتى غدت قبالة البوابة المؤدية إلى الطريق نحو العالم، وتوقفت ولم يقل بون شيئاً: كان فقط يجلس خلف المقود، والمحرك يدور بهدوء ودون قرقعة.

وكان رأسه يستدير بما يكفي أن ترى جدتي وجهه. ربما لم يكن بون بارعاً في الأمور المالية مثل جدي. وكان في جفرسون من يعتقدون أنه لم يُحسن شيئاً. لكنه في هذا الأمر، كان مهاوشاً ماهراً جداً.

وجلست جدتي نحو نصف دقيقة، ثم أخرجت تنهيدة طويلة وصرخت قائلة:

"لا يجب أن ننتظر السيد بريست". ربما لم ننتصر. لكن بون ـ وهو من جانبنا ـ لم يكتشف نقطة الضعف في جبهة العدو (جدي) وحسب، بل إن العدو نفسه قد يكتشف الضعف، هذه الليلة، وقت العشاء.

وقد اكتشف "العدو"، في الواقع، أن الموقف قد تبدل. فبعد ظهر يوم السبت التالي، بعد إغلاق البنك، وبعد ظهر كل سبت تلا، ثم بعد ظهر كل يوم من أيام الصيف ما عدا الأيام المطيرة، كان جدي يجلس على المقعد الأمامي قرب بون ونتناوب، نحن الباقين، احتلال المقعد الخلفي ـ جدتي، وأمي، وأنا وأخوتي الثلاثة مع العمة كالي التي ربتنا جميعاً، كلاً بدوره، بما في ذلك أبي، ودلفين وأقاربنا وجيراننا وصديقات أمي. وكنا في مشالح الغبار والنظارات، نعبر شوارع جفرسون وضواحيها القريبة، بما في ذلك العمة كالي ودلفين، كل منهما بدورها، ما عدا ند، الذي ركبها مرة واحدة، مدة دقيقة، حين خرجت من الكراج ببطء، ودقيقتين حين دارت وقطعت الساحة، إلى أن فقدت جدتي أعصابها وصرخت محتجّة في وجه البوابة والعالم الخارجي. ولم يكرر ذلك. وفي السبت التالي كان قد عرف، وتقبّل ـ بل اقتنع بشكل ما ـ أنه حتى لو عزم جدي على جعله السائق الرسمي للسيارة ما كان ليستطيع لمسها إلا على جثة بون. ومع أنه كان يميل إلى الإقرار بوجود السيارة، فقد قام بينه وبين جدي نوع

من التفاهم الضمني وهو: أن لا يتكلم ند عنها باحتقار أو استخفاف، على أن يمتنع جدي، مقابل ذلك، عن أن يأمر ند بغسل السيارة أو تلميعها كما كان يفعل للعربة - إذ كان كل من جدي وند يعرف أن ند سيرفض حتى وإن قبل بون. وهكذا رفض جدي أن يتيح لند الفرصة لكي يرفض علناً غسل السيارة قبل أن تتاح لبون الفرصة أيضاً لكي يرفض علناً السماح له بذلك. كان ذلك حين انتقل بون - نُقل برضى الطرفين - من العمل النهاري في الإسطبل إلى العمل الليلي. ولولا ذلك، لما كانت مهنة الغسل من نصيبه بعد الآن. فتلك الطبقة الثرية في جفرسون، أصدقاء أبي ومعارفه أو ربما أصدقاء الجياد فقط، الذين كانوا يتخذون الإسطبل عنواناً ثابتاً لأعمالهم - إذا كانت لديهم أعمال ويريد - كانوا أقل غربة هناك من بون. ولو أنك أردت أن ترى بون وأرسلتني في طلبه، لوجدته يغسل السيارة أو يلمعها - كان يفعل ذلك حتى في الأسابيع الأولى مع أنها لا تكون قد غادرت الساحة منذ يوم السبت السابق ولن تغادره قبل السبت المقبل. فكان يخرجها من الكراج كل صباح فيغسلها بحنو، من قمتها حتى عجلاتها، ثم يجلس لحراستها حتى تجف.

وكان السيد بالوت يقول: "سيزيل عنها كل الدهان" هل يعرف السيد أنه يمرّر أنبوب الماء فوقها خمس ساعات كل يوم؟".

وكان أبي يقول: "وماذا لو أزاله؟ سيظل بون يجلس في الساحة طوال النهار يتأملها".

فيقول السيد بالوت: "انقله إلى العمل الليلي. حينئذٍ يمكنه أن يفعل ما يشاء بنهاره، ويتمكن جون بويل من الذهاب إلى البيت والنوم في الفراش كل ليلة، على سبيل التغيير".

ويجيب أبي: "نقلته. سأبلغه حالما أجد من يذهب إلى الكراج ليخبره".

كان هنالك فراش من القش في غرفة السروج، وكان جون بويل، حتى الآن، يمضي الليل عليه، هو أو أحد السواقين أو السُوّاس، بناء على طلبه. وهيأ والدي سريراً نقّالاً وفراشاً ووضعهما في غرفة المكتب نفسها، حيث يستطيع بون أن ينام، وهذا ما كان يحتاج إليه، ما دام قد أصبح حراً في تمضية النهار بكامله في ساحة جدي، يغسل السيارة أو يتأملها فقط.

هكذا صرنا نصعد إلى السيارة بالتناوب فتحمل منّا قدرَ ما يتسع له المقعد الخلفي، ونجتاز ساحة البلدة بعد ظهر كل يوم إلى الضواحي. كان جدّي قد جهّز السيارة بفرامل إضافي للطوارئ، فصار جزءاً لا يتجزأ من أجهزة السيارة، تماماً كالمحرك الذي يديرها.

وكنا دائماً نعبر ساحة البلدة أولاً. لعلك فكرت أن جدي، حالما اشترى السيارة، كان يفعل ما كنت تفعل، وأنه اشترى السيارة لتلك الغاية فقط: يكمن بانتظار مرور الكولونيل سارتوريس في عربته ثم يطلع له فجأة ليعلمه كيف يصدر أوامر تحدد حقوق الآخرين وامتيازاتهم دون أن يستشير من كانوا يتقدمون عليه جاهاً ومكانة. لكن جدي لم يفعل هذا. وتحققنا أخيراً أنه لم يكن مهتماً بالكولونيل سارتوريس: كان مهتماً بالجياد، والعربات. لأنه كما قلت لك كان رجلاً بعيد النظر، رجلاً قادراً على الرؤيا. وكانت جدتي تجلس متوترة جامدة تتشبث بركيزة السقف ولا تدعو جدي بالسيد بريست على عادتها منذ أن عرفناها، بل تدعوه باسمه الذي يناديه به الناس كأنها ليست قريبة له. وحين كنا نلتقي بجواد أو عربة خيل، كان سائقها يشد لجام الجواد ويسحبه ليفسح لنا الطريق. وأحياناً كانت الجياد تجفل وتقف على قوائمها الخلفية، فتصرخ جدتي: لوشيوس، لوشيوس! فيقول جدي (إذا كان سائق العربة رجلاً وكانت خالية من النساء والأولاد ولا مقطورة شحن فيها) يقول لبون بهدوء:

"لا تتوقف. تابع سيرك. لكن خفِّف السرعة الآن". أما حين يكون زمام الخيل في يد امرأة، فكان يأمر بون بالتوقف، فينزل هو نفسه ليكلم الجواد المذعور بهدوء حتى يقبض على زمامه ويقود العربة بعيداً ثم يرفع قبعته للسيدة ويعود إلى المقعد الأمامي في السيارة، حينئذٍ فقط يجاوب جدتي: "يجب أن نعوّدهم على ذلك. من يدري؟ قد تأتي إلى جفرسون سيارة أخرى في السنوات العشر أو الخمس عشرة التالية!".

الحقيقة أن ذلك الحلم الذي صنعه بوفالو بيده في ساحة بيتنا الخلفية منذ سنتين، كاد أن يشفي جدّي من عادة لازَمَتْه منذ كان في التاسعة عشرة من عمره، وهي مضغ التبغ. فعندما أدار رأسه للمرة الأولى ليبصق خارج السيارة المنطلقة، لم نكن نحن الذين نجلس في المقعد الخلفي نعرف ما سيحدث إلا بعد فوات الأوان. إذ كيف كنا سنعرف؟ لم يكن أحد منا قد ركب في سيارة من قبل مسافة أطول مما بين الكراج وبوابة الساحة (تلك كانت الرحلة الأولى)، عدا عن أننا كنا نسير بسرعة خمسة عشر ميلاً في الساعة (وهذا أمر آخر. فعندما كنا نقطع عشرة أميال في الساعة كان بون يقول إننا نقطع عشرين؛ وعن العشرين يقول أربعين. ثم اكتشفنا طريقاً قصيرة منبسطة طولها نصف ميل، على بعد أميال قليلة من المدينة، حيث يمكن للسيارة أن تنطلق بسرعة خمسة وعشرين. وقد سمعته يقول لجمع من الناس في ساحة البلدة إن السيارة تقطع ستين ميلاً في الساعة. كان ذلك قبل أن يعرف الشيء الذي على اللوحة والذي يبدو مثل عداد بخاري هو في الحقيقة مؤشر السرعة)، فكيف كان يمكن أن نعرف؟ ثم إن ذلك لم يكن ليُحدث أيّ فارق بالنسبة لأي منا. فقد كنا جميعاً نضع نظاراتنا ومشالح الغبار. وحتى حين تكون المشالح جديدة، لم يكن هناك من سبب يدعو لعدم تعرضها لتلقي البقع أو أي شيء غير الغبار. ربما لأن

جدتي كانت تجلس إلى جهة اليسار، خلف جدي مباشرة. وفي تلك الأيام كانت السيارات تدار من جهة اليمين كالعربات؛ حتى هنري فورد، الرجل الذي كان بعيد النظر مثل جدي، لم يخطر بباله أن المقود يجب أن يكون إلى ناحية اليسار.

وحين قالت جدتي لبون: "أوقف السيارة"، لم تكن ثائرة بقدر ما كان غضبها بارداً خفياً، وبقدر ما كانت مغتاظة ومصدومة. كانت قد تجاوزت الخمسين (عندما تزوجها جدي كانت في الخامسة عشرة) وخلال أعوامها الخمسين لم تكن تحلم أن شخصاً سيبصق في وجهها، فكيف بزوجها نفسه. كما لم تكن تعتقد أن بون يمكن أن يبلغ منعطفاً دون أن يضغط على البوق. فلم ترفع يدها لتمسح البصقة، بل قالت دون أن توجه الكلام إلى أحد: "خذني إلى البيت".

وصاح جدي: "مهلك، يا سارة، مهلك!" وقذف التبغ خارجاً وأخرج المنديل من جيبه الآخر. لكن جدتي لم تتناوله. كان بون قد نزل من السيارة وسار نحو بيت قريب وأتى بوعاء ماء مع صابون ومنشفة. لكن جدتي لم تقبل ذلك أيضاً. وصاحت به: "لا تلمسني!"

وهكذا مضينا، وقد جفت البقعة البنية التي سالت من نظارة جدتي إلى خدها. وراحت أمي تعرض بإلحاح أن تبصق في منديلها لتبللها وتمسحها. وقالت جدتي: "اتركيني يا أليسون!".

مع أمي كانت المسألة مختلفة. لم تكن تمانع إن مضغ جدي التبغ في السيارة. ربما كانت السيارة السبب. وشيئاً بعد شيء أصبحت النزهات تقتصر علينا، وعلى أمي، والعمة كالي، وولد أو اثنين من أولاد الجيران. كانت أمي تجلس في المقعد الخلفي وقد تضرج وجهها وتألق بالحماس كوجه فتاة صغيرة. لأنها كانت قد اخترعت درعاً يدوياً ذا قبضة مثل مروحة كبيرة، خفيفاً إلى درجة تتيح لها أن

ترفعه قبالتنا بأسرع مما يدير جدي رأسه. هكذا صار بإمكانه أن يمضغ. فقد كانت أمي دائماً متأهبة لرفع الحاجز. والحقيقة أننا جميعاً صرنا سريعين لدرجة أنه قبل أن يعرف جدي أنه سيدير رأسه إلى اليسار ليبصق، يكون الحاجز قد ارتفع ونكون نحن ركّاب المقعد الخلفي قد مِلْنا إلى اليمين وكأنّنا مشدودون بخيط واحد. كانت سرعتنا آنذاك عشرين أو خمسةً وعشرين ميلاً في الساعة، لأنه صار لجفرسون، ذلك الصيف، سيارتان إضافيتان. كأنما كانت السيارات هي التي تعبّد الطرق بنفسها قبل أن تعبّدها قوة المال الذي تمثله.

وقال جدي: "بعد خمس وعشرين سنة لن تكون في المقاطعة طريق غير صالحة لمرور السيارات في أي طقس".

وسألت أمي: "ألن يكلف ذلك مالاً كثيراً، يا بابا؟".

فأجاب جدي: "سيُصدِر معبِّدو الطرق سندات. وسيشتريها البنك".

وسألت أمي: "بنكنا؟". "بنكنا يشتري سندات السيارات؟".

وقال جدي: "نعم، سنشتريها".

"لكن ماذا عنّا؟ أقصد موري".

"سيحتفظ بعمله في الإسطبل. إنما سيكون له اسم آخر ربما كاراج بريست، أو شركة بريست للمحركات. سيدفع الناس أي ثمن للركوب والحركة. بل سيعملون لذلك. انظري إلى الدراجات. انظري إلى بون. لا نعرف لهذا سبباً!".

ثم جاء أيار التالي، ومات جدي الآخر في خليج سان لويس.

الفصل الثالث

كان أيضاً يوم سبت، وكان، في الواقع، السبت التالي. كان لودوس سيعود إلى تقاضي أجرته مساء كل سبت. لعله يكون قد كفّ عن استعارة البغال. كانت الساعة تقارب الثامنة. ولم أكن قد بلغت منتصف الطريق إلى الساحة ومعي فواتير الشحن وكيس الخيش الذي أضع فيه النقود. كنت قد انتهيت من قسم "تموين المزارعين" عندما دخل بون مسرعاً، أكثر من عادته. كان يجب أن أشك في الحال. لا، كان يجب أن أعرف فوراً. إذ إنني عرفت بون طول حياتي، عدا مراقبتي له مدة سنة مع تلك السيارة. تقدم بون إلى كيس النقود وسحبه من يدي قبل أن أتمكن من شد قبضتي عليه، وقال لي:

"اتركه. اتركه وتعال".

"على مهلك!".

"قلت اتركه. خلصّنا. أسرع. عليهم أن يبلغوا الثلاثة والعشرين".

قال ذلك وهو يستدير. فقد تجاهل كل شيء عن الفواتير غير المدفوعة. كانت، في نظره، مجرد أوراق تملك شركة سكة الحديد الكثير منها. لكن الكيس كان يحتوي على نقود.

قلت: "من الذي سيبلغ الثالثة والعشرين؟ كان الرقم الثالث والعشرون رقم قطار الصباح الذي يتجه جنوباً. أوه، نعم، كان لجفرسون قطارات ركاب آنذاك، وكان عددها كبيراً بحيث اقتضى ترقيمها للتمييز بينها.

"يا للشيطان!" قال بون. "كيف أقدر أن أنقل لك الخبر بلطف وأنت ترفض أن تصغي؟ مات جدُّك الليلة الماضية. يجب أن نعجّل".

فصرخت: "لم يمت. كان عند الردهة الأمامية هذا الصباح عندما مررنا".

كان هناك فعلاً. رأيناه أنا وأبي. كان يقرأ الصحيفة أو يقف هناك أو يجلس كعادته كل صباح، ينتظر حلول الوقت كي يذهب إلى البنك.

وقال بون: "أوه، ألا تعرف الفرق بين خليج سان لويس وموبيل؟ كان هذا بخلافه. كان خليج سان لويس يبعد ثلاثمئة ميل. ولم أكن قد رأيت جدي ليسيب إلا مرتين في عيد الميلاد في جفرسون، حين ذهبنا ثلاث مرات في الصيف، كان مريضاً منذ مدة طويلة. فذهبنا ـ نحن وأمي ـ إلى هناك في الصيف لنراه ينام في فراشه الأخير حتى لو لم نتوقّع آنذاك. أقول "لو" وأقصد أمي. ذلك أن العجوز حين يمرض يكون قد كفّ عن الحياة. فالموت الفعلي يريح الجو، ويسمح بإزاحة شيء كان منتهياً.

وقال بون: "طيب، طيب. ما عليك إلا أن تأتي. جاكسون موبيل، نيو أورليانز ـ كل ما أعرف عنها أنها هناك في مكان ما. وحيثما كانت، عليهم أن يلحقوا بالقطار". كان على اسم اورليانز الذي لم يهمل ذكره عمداً، بقدر ما دخل سهواً في محتوى عبارته، أن ينبئ بكل شيء، ويكشف لي ما عزم عليه. كان على محاولته الأخيرة لإغرائي أن تساعدني على ذلك. لكنني ربما كنت ما أزال تحت هول الصدمة، كما أنني لم أكن أعرف في تلك اللحظة ما يعرفه بون. لذلك ذهبنا بسرعة ـ وكنت أهرول حتى أتمكن من اللحاق به ـ سالكين اقصر طريق عبر الساحة، حتى وصلنا إلى البيت.

كان هناك هرج ومرج، ولم يكن قد بقي على موعد القطار إلا ساعتان. وهكذا كانت أمي منهمكة لدرجة لا تجد فيها متسعاً للتفجّع أو الحزن: كان وجهها شاحباً، عليه علائم التصميم، مؤثراً. كنت الآن أعرف ما قاله لي بون مرتين: إن جدي وجدتي ذاهبان هما أيضاً لدفن جدي ليسيب. فقد كان هو وجدي زميلين في غرفة واحدة، وفي صف واحد في الجامعة. وكان كل منهما إشبين الآخر، وهو ما يحتمل أن تكون له علاقة باختيار أمي وأبي، واحدهما الآخر، من بين الناس قاطبة. وقد عاشت جدتي، وجدتي ليسيب، متباعدتين بما يكفي حتى تستمر الأولى في معاملة وحيدة الثانية بلباقة وعطف. ثم إن الناس في تلك الأيام كانوا ينظرون إلى طقوس الجنازة بجدّ. ولا أقول الموت: الموت كان الأليف الدائم. ما من عائلة إلا وقد كُتِب تاريخها على شاهدة القبر بعبارات تذكارية موجزة إلى درجة لا تتسع معها للاسم ـ هذا إذا لم تكن الأم ترقد هي أيضاً في ذلك القبر نفسه، وهو ما يحصل أكثر الأحيان، وعدا الأزواج والأعمام والعمّات في أعوامهم العشرين أو الثلاثين أو الأربعين، والجدود والأعمام العاقرين والعمّات العوانس اللواتي مُتن فوق السرير الذي ولدن فيه.

هكذا كان جدي وجدتي ذاهبَين هما أيضاً إلى الجنازة. وهو ما يعني أننا ـ لعدم وجود أقارب لنا في البلدة ـ سنرسَل إلى مزرعة ابن العم زاكاري إدموند، التي تبعد سبعة عشر ميلاً، ونبقى هناك حتى يعود أبوانا. ويعني ذلك أن أمي وأبي سيغيبان أربعة أيام، كما يعني أن جدي وجدتي لن يعودا حتى بعد أربعة أيام. لأن جدي لم يغادر جفرسون مرة، حتى ولو كان ذاهباً إلى ممفيس، دون أن يمضي يومين أو ثلاثة في نيو أورليانز ذاهباً كان أم راجعاً. وهذه المرة ربما اصطحب أمي وأبي أيضاً. كان هذا ما أخبرني عنه بون مرتين بإطناب، وهو لا يكاد يصدّق كلامه؛ يعني أن صاحب السيارة وكل من له

سلطة عليه، سيكونون على بعد ثلاثمئة ميل عنها مدة أربعة أيام أو أسبوع. كانت جميع محاولاته الخرقاء لإغرائي وإفسادي تؤيد ذلك. حتى أنه لم يكن يتوسل إليّ. إذ كان يمكن أن يأخذ السيارة وحده، وكان سيأخذها فعلاً لو وجدني غير قابل للإفساد، بالرغم من علمه بأنه ذات يوم سيعيدها أو يعود بمفرده كي يواجه متاعب أقل مما سيواجه لو قبضت عليه شرطة جدّي. لأن العودة محتّمة. إذ أين يمكنه أن يذهب، وهو لا يعرف مكاناً آخر، وهو الذي لا تعني له أسماء جفرسون، ومانك كاسلن، ودي سبين وكومبسون، بيته وحسب، بل الأب والأم أيضاً. لكن طيف فكرة هزيلة، أو بارقة فطنة عذراء ومنطقية، أقنعته بأن يجربني أولاً ليأخذني كرهينة. ولم يكن بحاجة إلى امتحاني أولاً. إذ عندما يتحدث الكبار عن براءة الأولاد، لا يعرفون ماذا يعنون بالفعل. ولو أحرجتهم لتقدموا خطوة وقالوا: إذن هو الجهل. الولد ليس بريئاً ولا جاهلاً. ما من جريمة لم يتصوّرْها صبيّ في الحادية عشرة منذ مدة بعيدة. كل براءته في أنه لم يكبر بعد بحيث يشتهي ثمارها. وهذا ليس براءة بل قضية شهية. وكل جهله يكمن في أنه لا يعرف كيف يرتكبها.

لكن بون لم يكن يعرف هذا. كان عليه أن يغريني. وكان أمامه وقت قصير: منذ رحيل القطار حتى الغروب. كان يمكن أن يبدأ في أي وقت، في الغد، أو بعد الغد، أو أي يوم بما في ذلك يوم الأربعاء. لكن اليوم، الآن، كان موعده المفضل، إذ كانت كل جفرسون قد رأت السيارة تسير ويسودها جو الرحيل. كأنما كانت الآلهة نفسها هي التي منحتْه هذه الساعات الحرة بين الحادية عشرة والغروب. وجاءت السيارة وفيها جدي وجدتي، وصندوق الدجاج المقلي والبيض المسلوق والكعك للغداء، لأنه لن تكون هناك غربة للغداء إلى أن يغيروا القطار ويقصدوا المكان المعين في الساعة

الواحدة. وكانت جدتي وأمي تعرفان جدي وأبي جيداً. وهما لذلك تعرفان أنهما لن ينتظرا حتى الواحدة ليتناولا الغداء، أياً كان الميت. لا: جدتي أيضاً، لو كان المُصاب شخصاً آخر غير أمي. لا، هذا أيضاً خطأ. كان أفق جدتي أوسع من أفق كنّتها. فلعل كل ما كانت أمي تحتاج إليه هو أن تكون أنثى. فليس الرجال هم الذين يقفزون في وجه الموت ـ إنهم يقاومون، يحاولون أن يردّوا الضربات فتُعتَصَر أدمغتهم بنتيجة ذلك ـ بينما النساء يطوِّقْنَه، يغلِّفْنه بمعاهدة عدم مقاومة مثل حشية القطن أو نسيج العنكبوت، بعد أن ينتزعن منه الإبرة السامة ويصبح بلا أذى، لا يحوَّل إلى الحجم المناسب ويصبح قابلاً للاستعمال فقط، بل يصبح مفيداً أيضاً كعازب مفلس أو عازبة مستعدة دائماً أن تملأ المكان الفارغ أو ترافق الضيف الزائد إلى المائدة للعشاء.

أطبقت قبضاتها على قضبان الحاجز، وكان صن توماس قد رافق أمي وأبي إلى الشارع ثم تبعناهما جميعاً، أمي في وشاحها الأسود وأبي بعصابة ذراعه السوداء، ونحن وراءهما مع العمة كالي التي تحمل الكسندر. وقالت أمي: "إلى اللقاء، إلى اللقاء" وهي تقبلنا من فوق الوشاح، ورائحتها كالمعتاد، لكن يخالطها شيء أسود، مثل الوشاح الرقيق الذي لم يكن يخفي في الحقيقة شيئاً، مثل تلك البرقية التي جاءت عبر الأسلاك النحاسية مسافة ثلاثمئة ميل من خليج سان لويس. أوه، نعم، شممت رائحتها أيضاً عندما قبلتني قائلة: "أنت الولد الأكبر" الرجل. يجب أن تساعد العمة كالي على الآخرين، فلا يزعجون ابنة العم لويزا". وما كدت أدخل السيارة وأجلس قرب جدتي حتى قال بون:

"يجب أن أملأ الخزان للرحلة إلى ماك كاسلن بعد الغداء. وفكرت أن لوشيوس يقدر أن يرافقني ويساعدني لدى العودة من المحطة".

أرأيت كم كانت ستمر بسهولة؟ كانت سهلة جداً، إلى درجة تشعرك ببعض الخجل. كأنما كانت أوراق الفضيلة والاستقامة تقف ضد جدي وجدتي وأمي وأبي. حسنا: ضدي أنا أيضاً. حتى كون جفرسون لم تعرف السيارات إلا منذ ستتين أو ثلاث، ساعد بون - حسنا ساعدنا. كان لدى السيد رانسويل، وكيل شركة النفط الذي زوّد كل الدكاكين في مقاطعة يروكنا باتوفا من خزاناته على الخط الفرعي خلال الستتين الأخيرتين - كان لديه خزانات بنزين خاص، ومضخة وزنجي ليضخ منها. وكان كل ما على بون، أو أي شخص آخر يريد بنزيناً، أن يفعله، هو أن يقود السيارة ويتوقف وينزل فيرفع الزنجي المقعد الأمامي ويقيس كمية البنزين بأنبوبه المعقوف، ثم يملأ الخزان ويقبض النقود أو (إذا لم يكن رانسويل موجوداً) يدعك تكتب اسمك بنفسك وعدد الجالونات التي أخذتها على دفتر حسابات ملطخ بالشحم.

لكن مع أن جدي كان يملك السيارة منذ سنة تقريباً، لم تؤاته الجرأة هو أو جدتي (أو لم يدفعهما الفضول) على استفهام بون أو تحديه.

هكذا وقفنا هو وأنا على الشرفة. ولوّحت لنا أمي من النافذة عندما تحرك القطار. الآن جاء وقت العمل. كان عليه أن يقول شيئاً، أن يبدأ. لقد استعدّ لفرض سيطرته والقبض عليَّ، على الأقل حتى تبدأ العمّة كالي تتساءل عني. أعني لم يكن بون يعرف أنه ليس مضطراً لأن يقول شيئاً أو يفعل سوى إخباري إلى أين كنا ذاهبين. ولم يكن يعرف شيئاً عن الكائنات البشرية، ويظهر أنه نسي ما عرفه يوماً، ولا شك، عن الأولاد.

لم يكن بون نفسه يعرف كيف يبدأ. كان قد صلّى طلباً للحظ، وسرعان ما تحقق طلبه، حتى أنه لم يعرف ماذا يفعل بما حصل عليه.

لابد أنك سمعت بأن الحظ صاحب نزوات، لا يمنع أبداً بل يعطي خيراً أو شراً: يعطيك من الخير أكثر مما تستطيع التصرف به. هكذا كانت الحال مع بون.

ولم أساعده. وبذلك انتقمت. حسناً، انتقمت ممن؟ ليس من بون طبعاً بل من نفسي، من خجلي، أو ربما من أمي وأبي اللذين تركاني للعار. أو ربما من جدي الذي أفسحت سيارته للعار طريقاً، من يدري؟ ربما من السيد بوفالو نفسه ـ ذلك المأخوذ المفتون الذي بدأ المسألة كلها منذ سنتين بريئتين. لكنني شعرت بالأسف على بون لأن وقته كان قصيراً. كانت الساعة قد تجاوزت الحادية عشرة، والعمة كالي تنتظر عودتي خلال دقائق، ليس لأنها تعرف أن العودة إلى البيت لا تستغرق أكثر من عشر دقائق بعد أن سمعت صفير القطار رقم 23 يغيب في النفق، بل لأنها كانت تنتظر بفارغ الصبر حتى تطعمنا وتأخذنا إلى ماك كاسلن. لقد وُلدَتْ في الريف وما زالت تفضله. كان بون يتجنب النظر إليَّ. وقال: "ثلاثمئة ميل. لحسن الحظ أن أحدهم اخترع القطار. لو كانوا سيذهبون في عربة بغال، كما اعتاد الناس من قبل، لما وصلوا في عشرة أيام، هذا عدا عشرة أخرى للعودة".

"أبي قال أربعة أيام!"

"صحيح، هكذا قال؟ ربما أمامنا أربعة أيام لنعود إلى البيت، لكن هذا لا يعطينا الوقت كله".

عدنا إلى السيارة وصعدنا إليها. لكنه لم يُدِرها. وقال بون: "ربما حين يعود الرئّيس، بعد أربعة أيام، سيدعني أعلمك قيادة هذه السيارة. لقد كبرتَ كفاية. ثم إنك تعرف قيادتها. هل فكرت في ذلك؟".

"لا، لأنه لن يدعني".

"حسنا لا تكن عجولاً. أمامك أربعة أيام لتغير رأيه مع أن تخميني هو أنه سيتغيب عشرة".

ولم يكن بون حتى الآن، قد أتى بحركة ليدير السيارة. وأضاف قائلاً: "عشرة أيام، قال أبوك؟ كم تتصور أن هذه السيارة تقطع في عشرة أيام؟".

"أبي قال أربعة".

"حسنا، كم تقطع في أربعة أيام؟".

"لا أدري. ما من أحد هنا يعلم فيخبرني".

"حسناً".

قال ذلك وأدار السيارة فجأة وتراجع بها ثم انعطف محولاً اتجاهها، وانطلق بسرعة في غير اتجاه الساحة أو مضخة راونسوبل للبنزين، فقلت:

"حسبت أن علينا أن نتزود بالبنزين".

كنا ننطلق بسرعة. فقال بون: "غيرت رأيي. سنفعل ذلك قبل أن نذهب إلى ماك كاسلن بعد الغداء. حينئذ لن يتبخر معظمه ونحن واقفون". كنا الآن في سهل، نمر بسرعة بين أكواخ الزنوج وحقول الخضراوات وأحواش الدجاج فتقفز الكلاب والدجاج مذعورة وتبتعد قبل وصول الغبار. وقطعنا السهل إلى حقل مهجور فسيح بدت فيه آثار عجلات لكن دون إطارات. كانت عجلات سيارة السيد بوفالو التي ركّبها بنفسه والتي عزلها قانون الكولونيل سارتوريس في هذا المكان منذ سنتين، حيث تعلم بون قيادة السيارة. ولم أكن بعد فهمت، حتى أوقف بون السيارة وقال لي: "انتقل إلى هنا".

وهكذا تأخرت عن الغداء. كانت العمة كالي واقفة على الشرفة الأمامية تحمل آلكسندر. وبدأت تصيح بي وببون قبل أن يوقف السيارة وينزلني. لقد غلبني بون في معركة عادلة. ويبدو أنه لم ينس كل ما عرفه في حداثته عن الأولاد. أعرف الآن أكثر بالطبع، بل كنت أعرف آنذاك أن سقوطي وسقوط بون لم يكونا فجائيين وحسب، بل متواقتين أيضاً. لكنني فضلت الاعتقاد أن بون غلبني. على أية حال، هذا ما قلته لنفسي. كنت، وأنا مُتحصّنٌ خلف سور الاستقامة المنيع الذي اقترن بالاسم الذي أحمله، المرسوم على هيئة فروسية أجدادي الذكور كما ورثتُها ـ لا، كما أورثني إياها أبي، وكما دعمَتْها أمي وجعلتها نافذة المفعول وأفهمتني أنها معرّضة لأن يشوهها العار، بكل بساطة كنت أمتحن بون. لم أكن أجرب فضيلتي بل أمتحن مقدرة بون على نسفها؛ ولبراءتي، كنت شديد الثقة بدرعٍ هذه البراءة؛ فقد توقعت بل طلبت أكثر مما كان ذلك الرجل قادراً على تحمّله. أقول هذا لا بلهجة النصح، بل بنبرة التصميم: فإنني وقد لاحظت كم يشكّ المحامون وممارسو الفضيلة بمناعة الفضيلة كدرع، واضعين ثقتهم وأمانتهم ليس في الفضيلة، بل في الإله أو الآلهة المسؤولة عن الفضيلة؛ هكذا باعتبار الفضيلة كأنها ولاء لإلهِ الآلهة، يصبح من واجب الآلهة، إما أن تبعد التجربة أو أن تقف دونها. وهذا يوضح الكثير. إذ يبدو لي أن الآلهة المسؤولة عن الفضيلة مسؤولة عن الحظ. إن لم يكن عن الطيش أيضا.

هكذا غلبني بون في معركة عادلة، مستعملاً القفازات كما يليق بالسيد المهذب. فعندما أوقف السيارة وقال لي: "انتقل"، حسبت أنني عرفت قصده. كنا قد فعلنا ذلك أربع أو خمس مرات من قبل في حوش جدي، فكنت أجلس في حضن بون وأمسك بالمقود وأوجه السيارة بينما يدعها هو تتحرك ببطء، عابرة الحوش. هكذا كنت

مستعداً له. كنت متحفزاً، بل كنت قد بدأت أرد الضربة فاتحاً فمي لأقول: "الحر شديد، والجلوس في الحضن مزعج اليوم. ثم إنه من الأفضل أن نعود إلى البيت"، لكنني رأيته يغادر السيارة من جهته وهو ما يزال يتكلم، ويده على المقود والمحرك لا يزال يهدر. وبقيت ثانية أو ثانيتين عاجزاً عن تصديق ذلك لكنه قال لي: "عجل، ستخرج العمة كالي في أية لحظة، حاملة الطفل تحت ذراعها وهي تصرخ".

هكذا انتقلت إلى المقود، وبون بجانبي، فوقي، أمامي إحدى يديه على يدي لتشد مغيّر السرعة، والثانية على يدي لتضبط مفتاح البنزين فتحركنا إلى الأمام قليلاً، ثم إلى الوراء، ووهج الشمس في عيوننا، متوتريْن، نافذَيْ الصبر، غارقين مأخوذين، خارج الزمان، فوق الزمان، غير متأثرَيْن بالزمان، إلى أن دقّت ساعة مبنى المحكمة معلنةً انقضاء نصف ساعة على الظهر، فنبهتنا، وأعادتنا إلى عالم الخداع القاسي.

وقال بون: "حسناً، أسرع الآن". قال ذلك دون أن ينتظر، رافعاً إياي كما فعل تحت المقود. كانت السيارة تتراجع مسرعة عبر الحقل باتجاه البيت. وكنا الآن نتكلم كلام رجل لرجل، ندّين في الجريمة، ومُتّحِدَيْن طبعاً، ولكن دون أن نتساوى بعدُ في الفعالية بسبب براءتي. وهمَمْتُ أن أقول ماذا أفعل الآن؟ يجب أن تخبرني. ولكن بون سبقني إلى الكلام فصرنا في منزلة واحدة. قال: "هل تصورتَ ماذا سنفعل؟ ليس أمامنا وقت طويل".

قلت: "حسناً، هيا. إرجع إلى البيت قبل أن تبدأ العمة كالي بالصياح". أرأيت ما أعنيه حول الفضيلة؟ سمعتَ الناس ـ أو لعلك ستسمعهم ـ يتكلمون عن الشيطان، أو عن جيل شرير؛ لا وجود لأشياء كهذه. فليست هناك مرحلة من التاريخ أو جيل من البشر كبُر

إلى درجة تؤهلـه لحمـل اللافـضيلة في أيـة لحظـة معيّنـة، أكثـر ممـا يستطيع استيعاب الهواء في تلك اللحظة. كل ما يستطيعون فعله هو أن يأملوا بأن يكونوا ملوّثين بأقل قدر ممكن خلال مرورهم فيهـا. إذ ممـا يدعو إلى الرثاء أن الفضيلة لا تستطيع أن تدافع عن نفسها كمـا تفعـل اللافضيلة. ذلك أن الجزء الـذي تقدمـه الفـضيلة بالمقابـل لـيس غـير الفضيلة الباردة التي هي بلا طعم ولا رائحـة: هـذا دون أن تقـارَن مـع المكافآت البرّاقة للخطيئة واللذة بل المهارة العارفة بكل شـيء ـ تلـك المقدرة الهائلـة الـتي لا تـصدّق علـى الاختـراع والتخيُّـل ـ حـتى أن خطوات الطفولة المبعثرة تمشي بثبات في ممراتهـا المفروشـة بـالورد. لأنني، أوه أجل، نضجت بشكل مُريع منذ أن دقت الـساعة لـدقيقتين خلتـا. فقـد أوصـلتني ملاحظـاتي إلى أنـه، باسـتثناء بعـض الحـالات الخاصة التي يمكن أن توصَف بأنها حالات عدم نضج حادة، باستثناء ذلك فإن الأولاد كالشعراء يكذبون للمتعة أكثر مما يكـذبون للمنفعـة. أو هكذا كنت أتصور آنذاك، ما عدا بعـض الاسـتثناءات الـتي تتعلـق بالدفاع عن النفس ضد الكائنات الأكـبر مـني (والـديّ) والأقـوى، لا غير. علـى الأقـل لـيس الآن. كنـت منجرفـاً مثـل بـون. وفي الخطـوة التالية، كنت أكثر مسؤولية. لأنني أدركت ـ كلا ـ عرفـت. كـان ذلـك واضحاً؛ بون نفسه اعترف به. كنت أذكـى منـه. لقـد أحسست بتلـك الشعلة المحمومة الظافرة التي لا بـد أن "فاوسـت" نفـسه قـد عاشـها: بأنني كنت القائد، كنت الرئيس، والسيد، بيننا نحن الهـالكَين اللـذَين تجاوزنا نقطة الرجوع.

كانت العمة "كالي" واقفة على الشرفة الأمامية، حاملـة الكـستذر وهي تـصرخ. فقلـت لهـا: "اهـدأي! ألـيس الغـداء جـاهزاً؟ تعطّلـت السيارة. أصلحها بون. ولم يتح لنا الوقـت كـي نزوّدهـا بـالبنزين. لـذا عليَّ أن آكل بسرعة وأعود لأساعده على مـلء الخـزان". وذهبـت إلى

غرفة الطعام. كان الغداء على المائدة ـ كان ليسيب وموري يأكلان، وقد ألبسَتهما العمة كما لو كانا ذاهبين إلى ممفيس ولن يبتعدا أكثر من سبعة عشر ميلاً لقضاء أربعة أيام عند ابن العم زاك. ولا أعرف سبباً لذلك، إن لم تكن بحاجة إلى إشغال وقتها بأي شيء، بين وقت رحيل أمي وأبي ووقت الغداء. لأن موري وآلكسندر يجب أن يناما وقت القيلولة. وكان موري سيوسخ ثيابه فتضطر أن تغسل وجهه وتلبسه ثانية.

انتهيت قبلها ورجعت أجتاز الشارع إلى ساحة بيت جدي. (كانت العمة كالي ما تزال تصرخ في البيت، لكن بصوت غير مرتفع. إنما ماذا كانت تستطيع أن تفعل وهي وحيدة وزنجية ؟). ربما كان ند قد ذهب إلى المدينة حالما تحركت السيارة. وربما كان سيعود ليتغدى. كان قد عاد. ووقفنا في الساحة الخلفية. وغمزني. كانت لعينَي ند، في بعض الأحيان، بل معظم الوقت، نظرة حمراء، كنظرة الثعلب. قال لي: "لِمَ لا تبقى هنا؟".

فقلت: "وعَدت بعض الرفاق بأن نهرب غداً ونجرب مكاناً جديداً للصيد يعرفه أحدهم".

فغمزني ند قائلاً: "إن كنت تنوي أن ترافق بون هوجانبك إلى ماك كاسلن، ثم تعود معه، إنما عليك أن تجد قصة تخبرها للآنسة لويزا كي تدعك ترجع. وهكذا فأنت بحاجة إليَّ كي أستر الأمر".

فقلت: "كلا. لا أريد منك شيئاً. أخبرك فقط لتعرف أين أكون فلا يلومونك. بل إنني لن أزعجك. سأبقى عند ابن العم آيك".

قبل أن يولد الباقون (أعني إخوتي) كانت أمي تتركني عند ند ودلفين حين تتغيب هي وأبي، وحين يتغيب جدي وجدتي. وأحياناً كنت أنام في بيتهما الليل كله، لمجرد التسلية. كنت أقدر أن أفعل

ذلك الآن، لو أن المسألة تنطلي عليهم. لكن ابن العم آيك كان يعيش في غرفة واحدة فوق حانوته. لو أن ند (أو أي شخص آخر ممن يهمهم الأمر) سأله عما إذا كنت عنده ليلة السبت، فما كان ليسأله قبل الاثنين. وكنت قد قرّرت بألا أفكر في الاثنين، أرأيت؟ لو أن الناس لا يمتنعون عن التفكير في الاثنين التالي، لما كانت الفضيلة تعاني هذا الجفاء والجمود.

وقال ند: "فهمت. لا تريد مني شيئاً. تقول هذا لكبر قلبك، ولتوفّر عليّ الانزعاج والقلق عليك وعلى كل من يريد أن يعرف السبب في عدم بقائك في ماك كاسلن، حيث أوصاك أبوك بالبقاء. ثم غمزني مقهقهاً، فقلت: "حسنا أخبر أبي أنني ذهبت إلى الصيد يوم الأحد، أثناء غيابه. أتحسبني أهتم؟".

فقال: "لا أريد أن أخبر أحداً بأي شيء عنك. لست أنا المسؤول عنك، بل العمة كالي، حتى تعود أمك. هذا إذا لم يصبح السيد آيك مسؤولاً عنك الليلة، كما قلت". وغمزني قائلاً: "متى يأتي بون هوجانبك لأخذك؟".

"قريباً. ثم الأفضل لك ألا تدع أبي أو الريّس يسمعانك تدعوه بون هوجانبك".

"دعوتُه سيداً مرّات عديدة، كافية ليصبح هذا اللقب حقيقة. وذلك بغَضّ النظر عما إذا كان يستحقه أم لا". ثم قهقه ضاحكاً كعادته.

أرأيت؟ كنت أبذل أقصى ما يمكنني. المشكلة الوحيدة كانت في وسائلي. البراءة والجهل: لم تكن تنقصني القوة والمعرفة وحسب، بل الوقت. عندما تمنحك الأقدار أو الآلهة - حسناً، اللافضيلة - الفرص، فإن أقل ما تستطيعه لك هو أن تمنحك المجال. لكن على

الأقل كنت تستطيع أن تعثر على ابن العم آيك بسهولة أيام السبت. فقد قال لي: "من كل بدّ. تعال وابقَ عندي الليلة. قد تذهب للصيد غداً ـ فقط لا تخبر أباك".

وقلت له: "كلا يا سيدي. لن أبقى عندك الليلة. سأبقى عند ند ودلفين كما كنت أفعل دائماً. فقط أردت أن أخبرك أين أكون، ما دامت أمي غائبة، ولا أستطيع إخبارها، أعني استئذانها". أرأيت أنني فعلت أقصى جهدي في حدود ما كنت أعرفه؟

ليس لأنني كنت عديم الثقة بنجاحي التام. كان يبدو لي أن اللافضيلة تضيع في اختباري الوقت الذي كان ضرورياً لغايات أعظم. عدت إلى البيت دون أن أركض: يجب ألا تراني جفرسون أركض. لكن بأسرع ما يمكنني دونما ركض. لم أجرؤ على ترك بون وحيداً دون ظهير أمام العمة كالي.

وصلت في الوقت المناسب. الحقيقة أن بون والسيارة هما اللذان تأخرا. وكانت العمة كالي قد ألبست موري وألكسندر من جديد. وكانت قيلولتهما تلك أقصر قيلولة في سجلّ بيتنا. ند أيضاً كان هناك، حيث لم يكن له عمل. لا، هذا غير صحيح. أعني، وجوده هناك كان خطأً كلياً. إذ إنه يكون عادة حيث يؤدي لجدي أو جدتي أعمالاً نافعة خارج المدينة. كان يحمل الأمتعة: سلة القصب التي تحوي حوائج آلكسندر وحوائج أخرى: الصرَّر التي تضم ثيابي وثياب ليسيب وموري لأربعة أيام، وصرة العمة كالي. وقد رمى هذه الأمتعة عند البوابة، دون عناية، قائلاً للعمة كالي "الأفضل لك أن تجلسي وتريحي قدميك. بون هوجانبك كسر تلك الآلة وهو في مكان ما يحاول أن يصلحها. إذا كنت تريدين حقاً أن تصلي إلى ماك كاسلن قبل وقت العشاء، تلفني للسيد بالوت في الإسطبل كي يرسل صن توماس بالعربة، وسأوصلك على أحسن حال".

وبعد فترة، بدا كأن ند على حق. إذ بلغت الساعة الواحدة والنصف (وهو الوقت الذي كان يجب أن يمضيه آلكسندر وموري في النوم) ولم يبد لبون أثر. كان يمكن لموري وآلكسندر أن يناما نصف ساعة أخرى. وظل ند يقول" قلت لك هذا". ويكرره مرات عديدة حتى أن العمة كالي كفّت عن توجيه الصراخ إلى بون، وبدأت تصرخ في وجه ند نفسه، فذهب وجلس تحت العريشة. كانت على وشك أن ترسلني للبحث عن بون وعن السيارة حين وصل. وعندما رأيته اعتراني ذعر هائل. كان قد بدّل ثيابه. أعني حلق ذقنه ولبس قميصاً ليس أبيض تماماً بل نظيف، مع ياقة وربطة عنق. ولم أشك أنه كان يحمل معطفاً عندما نزل من السيارة ليركبنا فيها، وكانت بقجته الموضوعة على أرض السيارة أول ما رأته العمة كالي حين وصلت. وكان الشيء الذي أثار فيَّ الرعب والغضب، أيضاً (ليس على بون، كما اكتشفت ذلك فوراً) على نفسي، أنا الذي كنت أقدر أن أعرف هذا وأتوقعه لأنني كنت أدرك طوال حياتي أن من يتعامل مع بون، فإنما يتعامل مع صبيّ، وأنه لم يكن عليه أن يقف في وجهه وحسب، بل أن يتوقع أهواءه الجامحة غير المنتظَرة. ولم يكن السبب افتقار بون إلى الحس السليم، بل فشلي المخجل في أن أتحسّب أو افترض أنه يفتقر إلى ذلك، فأقول أو أصرخ في وجه أيّ شخص يمكن أن تتّهمه في مثل هذه الحالة: "ألا ترى أن عمري ليس سوى إحدى عشرة سنة؟ كيف تتوقع مني أن أفعل هذا كله، وأنا لا أتجاوز الحادية عشرة؟ ألا ترى أنك تحمّلني أكثر مما أستطيع أن أحمل؟" ولكن في اللحظة التالية تحوّل غضبي إلى بون أيضاً: ليس لأن غباوته قد قضت على رحلتنا إلى ممفيس (صحيح، ممفيس، كوجهة سير لنا لم تُذكر قط، لم أذكرها لك، ولم أذكرها بيني وبين بون. ولماذا نذكرها؟ إذ أين يمكن الذهاب إن لم يكن إلى ممفيس؟ وقد تفكر أو تخشى بعض

المخلوقات المسنّة، على فراش الموت، من رحلة بهذا البعد، لكن ليس أنا وبون. والحقيقة أنني كنت أتمنى في هذه اللحظة، لو أنني لم أسمع بممفيس أو بون أو السيارات - كنت الآن في جانب الكولونيل سارتوريس، أتمنى لو أمحو السيد بوفالو وحلمه عن وجه الأرض).

لقد غضبت على بون لأنه هدم بضربة صبيانية واحدة أكاذيبي المتهافتة، المخلوطة، المذعورة، ووعودي الزائفة، فاضحاً ادّعاءاتي التي بادلتُ بها روحي - كلا، لعَنتُها بها -. هذا، أو ربما تعريض أسمال الروح التي لا قيمة لها والتي كنت سخيفاً حين اعتقدت أن الشيطان سيدفع أي شيء كي يحصل عليها، كمن تفقد عذريتها بسبب صدفة عاثرة وقعَت دون انتباه، وليس سعياً وراء اللذة، أو الخطيئة. لكن حتى الغضب كان قد ذهب. لم يبق شيء، لا شيء. ولم أكن أريد أن أذهب إلى أي مكان، أو أوجد في أي مكان. لو كنت مضطراً أن أكون أي شيء لتمنيت أن أكون فعلاً مضى. قلت، وكنت أعتقد ذلك (أعرف أنني كنت أعتقد ذلك لأنني قلتُه ألف مرة منذ ذلك الحين وما زلت اعتقد ذلك وآمل أن أقولَه آلاف المرات الأخرى في حياتي وأتحدى أي شخص كي يقول إنني لن أعتقد ذلك) "لن أكذب ثانية. الكذب يسبب متاعب كبيرة. تصبح أشبه بمن يشكّ ريشة من جهة الرأس في صحن رمل. لن تكون لذلك نهاية. لن تحظى بالراحة أبداً. ولا تنتهي من ذلك. ولا تستهلك الرمل أبداً لكي تكف عن المحاولة".

لكن لم يحصل شيء. نزل بون دون معطف. كان ند يحمل بقَجَنا وسلالَنا وصُررنا في السيارة. وقهقه قائلاً: "هيا أدرها كي تتمكن من تعطيلها، وتجد الوقت لإصلاحها وتعود إلى المدينة قبل الظلام". ثم وجّه الكلام إلى بون قائلاً: "هل ستعود إلى المدينة قبل أن تذهب؟".

حينئذ قال بون: "أذهب إلى أين؟".

"تذهب للعشاء ـ أين يذهب أي عاقل عند غروب الشمس؟".

"فكِّر بعشائك أنت. إنه العشاء الوحيد الذي يجب أن تهتم بأمره".

دخلنا، وتحركنا، أنا على المقعد الأمامي مع بون، والآخرون في المقعد الخلفي. واجتزنا الساحة المزدحمة كعادتها بعد ظهر السبت، ثم أصبحنا خارج المدينة. كنّا نستطيع أن ننتهي إلى المفرق المؤدي إلى بيت ابن العم زاك، وكان يحتمل أن نذهب في الاتجاه الخاطئ. وحتى لو كنا في الاتجاه الصحيح، فلم نكن بعد على شيء من الحرية، ما دامت العمة كالي وليسيب وموري وآلكساندر ما زالوا معنا في المقعد الخلفي. كنا متحررين من ند، الذي كان حيث لا يتوقع أحد أن يكون، ويسأل. "هل ستعود إلى المدينة أولاً؟". ولم ينظر بون إليَّ قط، ولم أنظر أنا إليه. ولم يكلمني كذلك، قد يكون شَعَرَ أنه أفزعني بقميصه النظيف وياقته وربطة عنقه وحلاقته في منتصف النهار وكل مظاهر السفر، الرحيل، الابتعاد، الانفصال. وشعر أنني لم أكن مذعوراً فقط، بل غاضباً لكوني عرضة للذعر. ورحنا نسير في طريق متوهجة تمتد سبعة عشر ميلاً، كان يجب أن نقرر خلالها شيئاً؛ رحنا نسير في الطريق التي تضيئها شمس أيار، وغبارنا يتطاير خلفنا ويهوم إلا إذا خفّفنا من سرعتنا عند جسر أو أرض مرملة. كانت الأميال السبعة عشر تتناقص بسرعة متزايدة، بينما كان يجب أن نفعل شيئاً، أن نقرر شيئاً بسرعة، بسرعة. ولم أكن بعد أعرف ما هو نوع القرار، ربما كان شيئاً يقال، صوتاً، ضجة، صوتاً بشريا، ما دام أن الثمن الذي ستنتزعه منك اللافضيلة لن يكون من نوع الصمت والوحشة والوحدة. ولكن بون حاول على الأقل. ربما

كان أيّ خرق للصمت مُفَضَّلاً لديه مهما كان سخيفاً أو ساقطاً سلفاً. لا ، كانت القضية أكثر من هذا. كان أمامنا أقل من نصف المسافة ويجب أن نفعل شيئاً، أن نبدأ بعمل شيء:

"الطرقات أصبحت ممتازة الآن، وفي كل مكان، حتى أبعد من مقاطعة يوكنا باتاوفا. لا يمكن للإنسان أن ينتظر طرقاً أفضل في هذه الرحلات البعيدة. كم تظنون أن هذه السيارة تقطع من الآن حتى الغروب؟". أرأيت؟ لم يكن يوجه الكلام إلى أحد، شأن الذي يمدّ يده فوق سطح المياه بحركة يائسة وهو يغرق آملاً أن يجد قشة يتمسك بها. ولم يجد شيئاً:

"لا أعرف" قالت العمة كالي من المقعد الخلفي وهي تحمل الكسندر الذي نام منذ أن غادرنا المدينة ولم يبق مستيقظاً مسافة ميل، فكيف بسبعة عشر ميلاً. "ولن تعرفي ذلك ما لم تمعِني النظر فيه وأنت جالسة على ذلك المقعد الخلفي في سيارة مزروبة في حوش بوص.

وعندما قاربنا الوصول، قال بون: "إذن تريد" من زاوية فمه رافعاً صوته بقدر ما يمكنني سماعه فقط، مُسدِّداً الكلام على أذني كأنه مسدس أو سهم أو حفنة رمل ترشق على نافذة مغلقة.

ـ "أسكت،" قلت متكلماً على طريقته. كان الحل البسيط، الجبان، أن أطلب منه التوقف فجأة، وعندما يتوقف أقفز من السيارة تاركاً للعمة كالي الخيار بين أن تترك آلكسندر مع بون وتركض محاولة اللحاق بي في الأحراج، وبين أن تبقى مع آلكسندر وتلاحقني بصراخها فقط. أعني أن تدع بون يقودهم ويوصلهم إلى البيت ويتركهم هناك، فأثب أنا ثانية من جانب الطريق إلى السيارة عندما يمر بون راجعاً إلى المدينة أو في أي اتجاه آخر يبعدنا عن كل من يفتقدني وله سلطة عليّ. إنها طريق الجبن فلِمَ لم أتبعها، وأنا الذي صرت

ضالاً كاذباً، أنا الذي لُعِنتُ بسبب خداعي، لمَ لم أذهب إلى نهاية الشوط وأصبح جباناً أيضاً وأغدو غير قابل للإصلاح أو الشفاء كفاوست، فيجبر مجدُ الانحطاط سيدي الجديد على احترام كمالي وإن استخف بصغر جسمي. لكنني لم أفعل. فما كان ذلك ليثمر. يجب أن يكون واحداً منا، على الأقل، عملياً. لنفرض أننا، أنا وبون، تمكنّا من الذهاب قبل أن يتاح لابنة العم لويزا أن ترسل الخبر إلى الحقل حيث يكون ابن العم زاك هناك في الساعة الثالثة بعد الظهر، وقت الزرع. ولنفرض أن ابن العم زاك عجز عن اللحاق بنا على جواده المُسرَج: ما كان سيفعل هذا، بل كان سيمتطي جواده ويتجه توّاً إلى المدينة، وبعد أن يجتمع بند وابن العم آيك، كل على حدة، مدة دقيقة واحدة، يعرف جيداً ما يفعل، وسيفعله مستعيناً بالهاتف والشرطة.

وصلنا. وخرجت وفتحت البوابة (لم يتغير المكان منذ أيام لوشيوس كوينتوس كاروزرس. وقد وضع ابن عمك الحالي كاروزرس حرساً على أبقاره، فصار بمقدور السيارات أن تمر، إنما ليس ذوات الحوافر). وعبرنا الطريق إلى البيت (كان ما يزال هناك، ذلك البيت المبني من الأخشاب المطلية بالطين، والذي نصفه مسكن والنصف الثاني حصن بناه لوشيوس عندما عبر الجبال من ولاية كارولينا عام 1813 مع عبيده وكلاب صيد الثعالب. كان ما يزال قائماً هناك مغموراً بألواح الخشب وبزخارف خشبية توضع عادة على المراكب، كانت قد أضافتها النساء اللواتي تزوجهن رجال آل أدموندس).

وسمعت ابنة العم لويزا وكل من كان هناك هدير سيارتنا يقترب (باستثناء ابن العم زاك الذي ربما كان قد شاهدنا عن ظهر جواده) فتجمهروا جميعاً على شرفة البيت الأمامية وعلى الدرج وفي الساحة حين وصلنا وتوقّفنا.

وقال بون "حسنا" من زاوية فمه، وأضاف قائلاً: "تفضّل!" وهكذا كان. لم يعد هناك مُتَّسع من الوقت، ناهيك بعدم وجود إمكان لكي يعرف فكرة ولو غامضة عما كان يحرص أشد الحرص على معرفته. ذلك أننا كنا ـ هو وأنا ـ حديثَي عهد في هذا الشأن. كنا أقلّ خبرة من الهواة: بريئين كل البراءة في شؤون سرقة السيارات، حتى أن أحداً منّا لم يصف العملية بالسرقة، لأننا كنا ننوي إعادتها سالمة، حتى لو تركَنا الناس والعالم (الذي كان جفرسون) حتى لو تركونا وشأننا ولم يفتقدونا.

كان وضعي أسوأ من وضعه. كان كلٌ منا مستميتاً، لكنني كنت أكثر منه استعجالاً، إذ كان عليَّ أن أفعل شيئاً، بسرعة، وفي مدى دقائق، بينما كان كل ما عليه أن يفعله هو أن يجلس في سيارته شابكاً أصابع يديه. ولم أعرف ماذا أفعل. كنت قد لفّقت من الأكاذيب أكثر مما تصوّرت أن خيالي يستطيع. وقد نجحت بإقناع الآخرين بصدقها، أو على الأقل باحتمال وقوعها، وهو ما ملأني بالدهشة إن لم أقل بالرعب: كنت في موقف الزنجي الذي قال: "أنا هنا يا إلهي. فإذا كنتَ تريد خلاصي فهذه هي أفضل فرصة تراني فيها واقفاً هنا محدّقاً فيك". لقد أطلقتُ آخرَ سهامي، وكذلك بون. إذا كانت اللافضيلة ما تزال راغبة في أيّ منا، فقد كانت هذه فرصتها.

وقد فعلَت. كانت تتلبس ابن العم زاكاري إدموندس. فقد خرج من الباب الأمامي في تلك اللحظة، وفي اللحظة ذاتها رأيت في الساحة صبياً زنجياً يمسك بلجام جواده. هل فهمت ما أعني؟ ابن العم زاكاري إدموندس الذي لا تراه جفرسون في أيام الأسبوع، منذ أن يبدأ العمل في الأرض في أوائل آذار حتى يتوقف في تموز ـ ابن العم زاكاري نفسه ذهب إلى المدينة هذا الصباح (لسبب ضروري

يتعلق بالطاحون) وتوقف في مخزن ابن العم آيك بعد خروجي منه بدقائق. فقد طابقت اللافضيلة بين الوقت الذي حملت فيه بون على أن يحلق ويبدل قميصه، وبين الوقت الذي يحتاج إليه ابن العم زاك كي يعود إلى البيت على جواده وينزل عن ظهره عند العتبة، لحظة سمعوا هناك هدير سيارتنا. وقال لي: "ماذا تفعل هنا؟ آيك اخبرني أنك ستبقى في المدينة الليلة، وسيأخذك لصيد السمك غداً".

وطبعاً بدأت العمة كالي تصرخ، لذلك لم أكن بحاجة إلى أن أقول شيئاً، حتى لو كنت أعرف ما يجب أن يقال. "صيد السمك يوم الأحد؟ لو سمع أبوه هذا، لقفز من القطار هذه اللحظة، حتى دون أن يرسل برقية! وأمه أيضاً. الآنسة أليسون لم تقل له أن يبقى في البلدة مع السيد آيك، أو أي شخص آخر! وإنما قالت له أن يأتي معي إلى هنا هو وهؤلاء الأولاد، وإذا لم يكن سلوكه كما يجب، سيعلمّه السيد زاك كيف يكون السلوك".

وقال ابن العم زاك: "حسناً حسناً. كفّي عن الصراخ لحظة. لا أستطيع سماعه. ربما غيّر رأيه. هل غيّرتَ رأيك؟".

"فقلت: سيدي؟ نعم سيدي. أعني، كلا سيدي!".

"حسنا، اختر لنفسك. هل تبقى هنا أم تعود مع بون؟".

"نعم، سيدي، أعود. قال لي ابن العم آيك أن أسألك إذا كنت أستطيع العودة". وأخذت العمة كالي تصرخ ثانية (الحقيقة أنها لم تكف عن الصراخ إلا لتأخذ نفساً طويلاً، إذعاناً لأمر ابن العم زاك). وانتهى الأمر عند حد الصراخ، فيما كان ابن العم زاك يأمرها قائلاً: "اسكتي، اسكتي. لا أقدر أن أسمع صوتي. إذا لم يحضره آيك غداً، أرسلت في طلبه يوم الاثنين". وعدت إلى السيارة، وكان بون قد أدار المحرك.

قال بون: "ويحي" دون أن يرفع صوته، وباحترام كلّي يخالطه بعض الخوف.

وقلت: "هيا. لنخرج من هنا". ومضينا مسرعَين باتجاه البوابة. فقال بون:

"لعلنا نضيع وقتنا بإنفاقه على رحلة في سيارة. ربما يجب أن استخدمك في شيء يكون فيه نفع مادي".

وقلت له: "ما عليك إلا أن تتابع سيرك". إذ كيف كنت أستطيع أن أقول له:

"لقد أسقمني الكذب، والاضطرار إلى الكذب؟". لأنني عرفت، أدركت أن ما لفّقناه من أكاذيب ليس سوى بداية، وأنه لن يكون آخر الأكاذيب.

وعدنا إلى المدينة، منطلقَين هذه المرة بسرعة، دون أن يسمح لنا بمشاهدة مناظر الطريق. كانت الساعة حوالى الخامسة. وتكلم بون بحدة وإلحاح قائلاً: "يجب أن نوقفها لفترة. رأوني أنقلكم إلى ماك كاسلن، وسيرونني أعود وإياك وحيدين. لذلك يتوقّعون أن يروني أعيد السيارة إلى حظيرة الريّس. ثم يجب أن يرونا، أنا وأنت، مفترقَين، نتمشى كأنما لم يحدث شيء". ولكن كيف كان لي أن أقول له: "لا. لنذهب الآن. إذا كان عليَّ أن أكذب بعد، فليكن ذلك على الغرباء!" وكان بون ما يزال يتكلم: "ـ سيارة. ماذا قال عما إذا كنا سنرجع إلى المدينة قبل ذهابنا؟".

"ماذا؟ من قال؟".

"ند. هناك قبل أن نغادر المدينة".

"لا أذكر. ماذا عن السيارة؟".

"أين نتركها؟ بينما أقوم بجولة حول الساحة، تذهب أنت إلى البيت وتأتي بقميص نظيف أو أي شيء آخر تحتاج إليه. عليَّ أن أنزل كل الحوائج في ماك كاسلن. حوائجك أيضاً. وذلك خشية أن يتدخل شخص فضولي يكون واقفاً بالصدفة، كما يحصل غالباً". وكان كلانا يعرف من يعني بهذا الشخص.

"لم لا تستطيع أن تضعها في الكراج؟".

"المفتاح ليس معي. ليس سوى القفل. الريّس أخذ المفتاح مني هذا الصباح وفتح القفل وأعطى المفتاح للسيد بالموت ليحتفظ به إلى حين عودته. والمفروض أن أُدخِل السيارة حالما أعود من ماك كاسلن وأغلق القفل عليها. وسيبرق الريّس إلى السيد بالموت عن القطار الذي سيأتي فيه كي يفتح الباب وأستطيع أن استقبله".

"إذن يجب أن نخاطر!".

"نعم، سنضطر للمخاطرة. ربما بغياب الريّس والسيدة سارة. حتى دلفين فإنها لن تراه ثانية قبل الاثنين". وهكذا جازفنا. فأوصل بون السيارة إلى الكراج وأخذ صرّته ومعطفه من علّية البيت، حيث كان قد خبأهما. ثم مد يده ثانية وأخرج مشمعاً ملفوفاً ووضع صرّته ومعطفه في داخله، وألقى بهذه كلها على مقعد السيارة الخلفي. وكانت تنكة البنزين جاهزة: كانت تنكة جديدة تتسع لخمسة جالونات أوصى عليها جدي عند السنكري الذي كان يصنع له عدّةَ العمل، وقد صنعها بحيث يحول دون تسرب الرائحة منها، لأن جدتي لم تكن تحب رائحة البنزين. ولكننا لم نستعمل التنكة قبل الآن لأن السيارة لم تبتعد هذه المسافة من قبل. أما القمع ومصفاة البنزين فقد كانا في صندوق العدّة مع أدوات الإطارات والعفريت والمفاتيح الإنكليزية، وهي عدّة تأتي مع السيارة من المعمل، ثم الفانوس

والفأس والمجرفة والأسلاك الشائكة والبكرة وأدواتها، وهي التي أضافها جدي مع دلو الصفيح لملء خزان التبريد بالماء عندما تمرّ قرب ساقية أو بئر. وقد وضع التنكة في مؤخر السيارة وهي مملوءة (ربما كان هذا هو السبب الذي جعله يتأخر في المجيء إلينا) وفتح المشمع دون أن يفلشه، ثم لملمه ووضعه في المؤخرة، فبانت كل محتوياته وكأنها جزء من المشمع نفسه. ثم قال: "سندخل حوائجك بالطريقة نفسها. حينئذ ستبدو جزءاً من المشمع الذي يظهر وكأن صاحبه تكاسل عن طيه. أفضل ما تفعله هو أن تذهب إلى البيت وتحضر قميصاً نظيفاً وتعود إلى هنا للحال وتنتظر. لن أتأخر. سأتجول حول الساحة فيراني آيك، إذ ربما أراد أن يعود إلى طرح الأسئلة من جديد. بعد ذلك نذهب".

أغلقنا الباب. وبدأ بون يعلق القفل المفتوح في الرزّة. فصرخت: "لا". ولم أستطع أن أذكر السبب. كنت قد نضجت بسرعة هائلة في الشر: "ضعه في جيبك".

لكنه عرف السبب فقال: "أصبت. لقد فعلنا المستحيل لكي لا نسمح لأحد أن يمر بالصدفة ويقفله متصوراً أنني نسيت إقفاله".

وذهبت إلى البيت. كان في الجهة المقابلة من الشارع. وكان خالياً، وغير مقفل طبعاً، إذ لم يكن أحد في جفرسون يقفل بيته في تلك الأيام الآمنة. كانت الساعة بعد الخامسة بقليل، لكن النهار كان قد انتهى، أما البيت الخالي الصامت فلم يكن خامداً مطلقاً بل كان مسكوناً بحضور كائنات حبست أنفاسها. وفجأة تمنيت حضور أمي؛ لم أعد أريد حريّتي، أردت أن أرجع أن أقلع عن هذا، أن أكون آمناً، وأنجو من هذا النوع من التصميم واتّخاذ القرارات؛ إنما كان الوقت قد فات الآن، إذ كنت قد اخترت، قد انتخبت، وإذا كنت قد بعْتُ

روحي للشيطان بأكلة عدس فالأحرى بي أن أحصّل هذا العدس وآكله. ألم يذكّرني بون نفسه بذلك، منذ هنيهة، وكأنه قد تنبأ بلحظة الضعف والتردد هذه التي ستنتابني في البيت الخالي، محذِّراً: "لقد تورّطنا كثيراً كي لا نتيح لأي شيء أن يوقفنا عما نوينا عمله".

كانت ثيابي المكونة من القمصان الجديدة، والبنطلونات، والجوارب، وفرشاة الأسنان، قد أصبحت في ماك كاسلن. طبعاً، كان في دولاب ملابسي المزيد منها، باستثناء فرشاة الأسنان التي لم يكن أحد يهتم بأمرها في غياب أمي، لا العمة كالي ولا ابنة العم لويزا. لكنني لم آخذ أية ملابس، ليس لأنني نسيت، بل لأنني لم أنو أن أفعل ذلك قط. ودخلت البيت ووقفت داخل الباب مدة تكفي كي أثبت لنفسي أني، بيني وبين بون، لم أكن أنا الذي عجزت عن القيام بالواجب. ثم عدت أقطع الشارع وأعبر ساحة بيت جدي إلى الحوش. لم يكن بون هو الذي قصّر بواجبه، إذ سمعت المحرك يهدر بهدوء قبل أن أبلغ الكراج. وكان بون خلف المقود، فقال: "أين قميصك النظيف؟ لا بأس. سأشتري لك واحداً في ممفيس. هيا، يمكننا أن نتحرك الآن". وأخرج السيارة. كان القفل المفتوح معلقاً في الرزة. وناداني: "تعال: لا تتوقف لإقفاله فتؤخرنا".

فقلت: "لا". دون أن أستطيع، هذه المرة أيضاً، أن أوضح السبب: إذ بإغلاق الباب وإطباق القفل قد يبدو كأن السيارة سالمة في الداخل. وهكذا كانت المسألة كلها تبدو لي كأنها مجرد حلم سأصحو منه غداً، أو ربما الآن، أو في اللحظة التالية، وأعود آمناً وأنجو. فأغلقت الباب وأطبقت القفل وفتحت البوابة لبون كي يخرج، ثم صعدت إلى السيارة وهي تسير ـ إذ إنها لم تتوقف تماماً. ثم قلت لبون: "إذا ذهبنا من الطريق الخلفية، نتجنّب المرور في الساحة". فأجاب:

"فات الوقت الآن. كل ما يمكنهم فعله هو الصراخ". لكن أحداً لم يصرخ. حتى وإن كنا قد قطعنا الساحة، فلم يكن الوقت قد فات بعد. الخطوة التي لا تقبل التراجع كانت ما تزال أمامنا على بعد ميل حيث تتفرع الطريق إلى ماك كاسلن من طريق ممفيس. هناك كنت أستطيع أن أقول: "توقف. أنزلني". وكان سيمتثل لي. أو أقول: "أرجعني إلى ماك كاسلن". وأعرف أنه كان سيفعل ذلك أيضاً. ثم أدركت فجأة أنني لو قلت له: "ارجع. سآخذ المفتاح من السيد بالموت، وسنرجع السيارة إلى حظيرتها حيث يعتقد الريّس أنها موجودة الآن". كان سيفعل ذلك. بل أكثر من هذا: كان يريدني أن أفعل ذلك. كان يتوسل إليّ بصمت أن أفعل. كان كلانا مذهولاً ليس من جرأته منفرداً، بل من طيشنا المشترك المتبادل. وكان بون يعرف أنه لا يملك القوة لتحمّل هذا، لذلك طرح نفسه عليّ معتمداً على قوتي واستقامتي. أرأيت ما أخبرتك به عن اللافضيلة؟ لو أن الأمور انعكست وكنت أنا الذي يرجو بون بصمت كي يعود، كنت سأعتمد على عنصرَيْ الفضيلة والشفقة عنده، وهو ما كان معدوماً لديه. لذلك لم أقل شيئاً. حتى مفرق الطريق، اليد الضعيفة العاجزة التي حسبت أنها ستمتد وتخلصني، مرّت بنا سريعاً ثم اختفت إلى غير رجعة. فقلت بيني وبين نفسي: حسناً، ها قد جئت. ولعل بون سمع ذلك، على أية حال فقد تركنا جفرسون وراما. كان الشيطان سيدافع عن نفسه في اليومين التاليين على الأقل. إذ همس في آذاننا قائلاً: "ليس أمامنا ما نقلق له سوى وادي الجحيم الذي سنعبره غداً. أما وادي الأعاصير فليس مهماً".

"من قال إنه مهم؟" كان وادي الأعاصير يبعد أربعة أميال عن البلدة. وكنا، طول حياتنا، نعبره بسرعة دون أن نعرف اسمه. لكن الذين كانوا يعبرونه آنذاك كانوا يعرفونه. كان هناك جسر خشبيّ يقوم

فوق الساقية، لكن الأماكن المجاورة له كانت، حتى في أوج الصيف، بمثابة حفر عميقة مملوءة بالوحول. وقال بون:

"هذا ما أقوله لك. لم يكن شيئاً مهماً. عبرناه أنا والسيد ووردوين في العام الماضي، حتى دون أن نستعمل البكرة وأدواتها، بل بالفأس والمجرفة اللتين استعارهما السيد ووردوين من بيت على مقربة نصف ميل. وما أظن أنه أرجعهما. ولكن، لحسن الحظ، جاء صاحبهما في اليوم التالي وأخذهما".

كان على حق. فقد عبرنا الحَفرة الأولى ووصلنا إلى الجسر، لكن الحفرة الثانية أوقفتنا. فترنحت السيارة مرة، مرتين، ثم مالت وتوقفت وجمدت في مكانها. فلم يضع بون الوقت، إذ خلع حذاءه (نسيت أن أقول بأنه كان قد لمّعه أيضاً) وطوى بنطلونه ونزل في الوحل، صائحاً بي: "انتقل إلى هنا. أدرْ أقصى السرعة وانطلق حين أقولُ لك. هيا. أنت تعرف كيف تقودها الآن. علمّتك هذا الصباح". وجلست أمام المقود. ولم يستعمل البكرة وأدواتها، بل قال: "لا أحتاج إليها. يستغرق إخراجها وإعادتها وقتاً طويلاً وليس أمامنا وقت". ولم يحتج إليها: كان هناك سياج قرب الطريق، فاقتلع القضيب العلوي، وركّبناه في الوحل والماء، ودفع قضيب السياح تحت محور العجلات وقال: "الآن، اضغط على دوّاسة البنزين!" ورفع السيارة إلى الأعلى ودفعها إلى الأمام حتى أوصلها إلى الأرض الجافة ثانية صارخاً بي: "أقفلها! أقفلها!" ففعلت ذلك، فصعد وأزاحني جانباً وجلس أمام المقود، ولم يتوقف كي يرخي طرفَي بنطلونه الملوّثين بالوحل.

كانت الشمس تشارف المغيب الآن. وكان الظلام سيحلّ قبل أن نصل إلى بالبنوز، حيث يمكننا تمضية الليل. وانطلقنا بأقصى السرعة،

ونحن نمرّ قرب بيت ويوت، وهم أسرة من أصدقائنا، كان أبي قد أخذني لصيد الطيور في جوارهم، في عيد الميلاد الماضي. كانت تبعد ثمانية أميال عن جفرسون، ولكن ما يزال بينها وبين النهر أربعة أميال. ومضينا. كان القمر سيطلع بعد قليل، لأن مصابيح الكاز الأمامية كانت تصلح لتعرّف الناس بقدومك، أكثر مما تصلح لإضاءة الطريق أمامك. وفجأة قال بون: "ما هذه الرائحة؟ أهي منك؟" وقبل أن أتمكن من النكران، كان قد ضغط على الفرامل وتوقف لحظة، ثم استدار إلى الوراء ومدّ يده وقذف كتلة المشمع المتكورة إلى مؤخرة السيارة؛ وهنا نهض ند من أرض السيارة. كان يرتدي بزة سوداء مع قبعة وقميص أبيض دون ياقة أو ربطة عنق، وهو ما كان يلبسه أيام الآحاد. وكان يحمل بيده شنطة صغيرة (تدعونها اليوم حقيبة أو محفظة) كانت للوشيوس ماك كاسلن، قبل أو يولد أبي.

لا أعرف ماذا كان يضع فيها في المناسبات الأخرى. كل ما رأيته فيها هو الكتاب المقدس (منذ أيام جده وجدته) ولم يكن يحسن قراءته. كما كان فيها زجاجة تحوي ملعقتين من الوسكي.

وصاح بون: "ما هذا؟".

فأجاب ند مقهقهاً كعادته: "وأنا أيضاً أريد أن أذهب في رحلة!".

هنا مساء السبت 18

الفصل الرابع

وقال ند: "لي الحق أن أقوم برحلة، مثلك وقبل لوشيوس وأكثر. هذه السيارة تخص الريّس. وما لوشيوس سوى حفيده، أما أنت فلا قرابة لك به قط".

وقال بون: "حسنا، حسناً. ما أعنيه هو أنك استلقيت تحت ذلك الغطاء طول الوقت وتركتني أغوص في الوحل وأرفع السيارة وحدي".

وقال ند: "كان الحر شديداً تحته أيضاً. لا أعرف كيف تحمّلته. هذا فضلاً عن اضطراري لتفادي تحطيم رأسي بهذه التنكة، كلما كنت تخضخضنا، ثم انتظاري حتى يدخل البنزين، أو أيا كان الاسم الذي تدعوه به، حيث يمكن أن يشتعل. ماذا كنت تريدني أن أفعل؟ كنا على بعد أربعة أميال من البلدة. كنت ستجبرني على العودة إلى البيت ماشياً".

فقلت للحال: "هل نسيت؟ مزرعة ويوت تبعد ميلين".

وقال ند بانشراح: "صحيح. لن نسير مسافة طويلة من هنا" ولكن بون لم يُطِل النظر إليه، بل قال له: "اخرج واطوِ ذلك الغطاء كي لا يشغل مكاناً كبيراً، وجدِّدْ هواءه قليلاً إن كنا سنبقيه معنا".

وقال ند: "تتكلم وكأنني قد أسأت التصرف وعرّضت نفسي للانتقاد".

أضاء بون أنوار السيارة الأمامية عندما توقفنا، ومسح قدميه وساقيه بإحدى زوايا الغطاء ثم لبس جواربه وحذاءه وأرخى أطراف سرواله، وكانت قد جفّت. كانت الشمس قد غربت الآن وصرنا نستطيع رؤية ضوء القمر. عندما نصل إلى بالنبوز سيكون الليل قد انتصف.

وقد علمت أنّ بالنبوز أصبحت مكاناً لصيد السمك يديرها بين الحين والآخر مهرّب إيطالي ـ وأعني بقولي بين الحين والآخر مدة الأسبوع أو الأسبوعين اللذين يحتاج إليهما العمدة الجديد الذي يُنتَخَب كل أربع سنوات ليكتشف الإرادة الحقيقية للشعب الذي حسب أنه صوّت له. كانت كل تلك المنطقة من وادي النهر ـ وهي جزء من حلم البارونية البائد عند توماس ستين وموقع مخيم الصيد الخاص بالميجر دي سبين ـ قد أصبحت الآن منطقة لتصريف المياه. كما كانت الأحراج ـ التي كان بون يصيد فيها الدببة والغزلان والفهود، أيام شبابه، أو التي كان يرتادها أثناء قيام أسياده بالصيد ـ هذه قد أصبحت الآن مزروعة بالقطن والذرة، حتى أن عبّارة ويوت لم تعد إلا اسما لغير مسمّى.

وحتى عام 1905، كانت هناك بقايا أحراج، على الرغم من أنّ أكثر الغزلان وجميع الدببة والفهود (وكذلك الميجر دي سبين وصياديه) قد اختفت، ومثلها العبّارة. وأصبحت عبّارة ويوت تدعى الآن بالجسر الحديدي. وقد سُمّي بالجسر الحديدي لأنه كان أول جسر حديدي عرفناه في مقاطعة يوكناباتارفا، كما ظل الجسر الوحيد عدة سنين. لكن في الأيام الغابرة ـ أيام ملوك التشيكاسو، أمثال استّيتيسّها وموكيوبّي ومغتصب العرش الذي كان يسمي نفسه "الهلال" وكذلك عندما أتى ويوت الأول وأراه الهنود العبّارة وبنى مخزنه وزورقه وأطلق

عليه اسمه ـ لم تكن هذه العبّارة هي الوحيدة على مسافة أميال عديدة وحسب، بل كانت مركزاً لحركة الملاحة أيضاً. كانت المراكب (عند ارتفاع المياه في الشتاء، حتى المراكب البخارية الصغيرة) تصل إلى باب بيت ويوت قادمة من فيكسبرج حاملة الوسكي والمحاريث وزيت الكاز وروح النعناع وترجع محمَّلة بالقطن والفراء.

لكن ممفيس كانت أقرب من فيكسبرج حتى بواسطة قوافل البغال، لذلك بُنيت طريق مستقيمة قدر الإمكان تمتد من جفرسون حتى المنعطف الجنوبي لمعبر ويوت، وطريق أخرى مستقيمة، قدر الإمكان أيضاً، تمتد من الطرف الشمالي للمعبر حتى ممفيس. لذلك أصبح القطن والبضائع الأخرى تأتي وتذهب بواسطة تلك الطريق على عربات تجرّها البغال أو الثيران. وفجأة ظهر من الغيب عملاق مجهول النسب يدعو نفسه بالنَّبو. وقد قال البعض إنه اشترى من ويوت الغرفة الصغيرة المعتمة الهادئة التي كانت تضم المسكن والمخزن بما في ذلك كل حقوق ملكية ويوت في عبّارة تشيكاسو القديمة. وقال آخرون إنّ بالنبو أدخل في رأس ويوت بأنه (أي ويوت) قضى هناك مدة كافية، لذلك آن له أن يبتعد أربعة أميال عن النّهر ويصبح مزارعاً.

على أية حال، هذا ما فعله ويوت. ثم أصبح محلُّه المنعزل الصغير الذي قام وسط البرية، مكاناً صاخباً بكل ما في الكلمة من معنى: أصبح نزلاً وموقفاً لتناول الطعام وصالة لعمال تحميل المراكب العابرة، وسائقي عربات البغال الذين كانوا سليطي اللسان وقساة القلوب يجيئون لمقابلة العربات عند ضفتي النهر، بينما يقوم بغلان أو ثلاثة، وأحياناً أربعة، وقد ربط بعضها إلى البعض الآخر، بجر العربات الثقيلة إلى العبّارة عند إحدى الضفتين، ثم العكس: من العبّارة إلى التلال المجاورة. كان مكاناً صاخباً لم يستطع مجابهته غيرُ

الرجال الأشداء، دون غيرهم، إلى أن قام الكولونيل سارتوريس (ولا أعني صاحب المصرف ذا اللقب غير الرسمي الذي ناله بالوراثة والقرابة، والذي كان مسؤولاً عن وجودي ووجود بون حيث نحن الآن، بل أعني أباه، الكولونيل الحقيقي في جيش الولايات المتحدة الأميركية الاتحادية ـ الجندي ورجل الدولة والسياسي والمبارز، الذي يقول عنه أحد الذين تحدّروا من سلالته من أبناء إخوته وعمومته ـ وهو شاب من مقاطعة بوكناباتوفا، له من العمر إحدى وعشرون سنة ـ إنه قاتل قام ببناء سكته الحديدية حوالي عام 1865 ثم قضي عليه.

لكنه لم يهدم سكة بالنبو، فجاءت قطارات الشحن وطردت المراكب من النهر وغيّرت اسم عبّارة ويوت إلى اسم عبّارة بالنبو. ثم انتزعت القطارات بالات القطن من العربات، فأزالت لذلك العبّارة من بالنبو، لكن كان ذلك كل شيء. وقبل تلك الفترة بأربعين سنة، أي أيام التاجر البسيط ويوت، أثبت بالنبو أنه قادر على التنبؤ بالموجة التي ستحدث في المستقبل وبالسيطرة عليها. ثم كان عهد ابنه، وهو عملاق آخر جاء لابساً (كما قيل) معطفاً مبطناً بأوراق مالية أميركية غير مقصوصة، حين عاد عام 1865 من اركنساس، حيث خدم وسُرّح بشرف من فرقة فدائيين وطنيين نسي فيما بعد اسم قائدها. وقد أثبت أنه لم يخسر شيئاً من حِذقه ومهارته ودرايته بكل شيء.

وكان الناس في الماضي يمرّون ببالنبو ويتوقفون هناك لقضاء ليلة. أما الآن فإنهم يذهبون إليه في الليل ويذهبون مسرعين ليعطوا بالنبو أطول وقت ممكن لإخفاء الحصان أو البقرة في المستنقع قبل وصول رجال القانون أو صاحب الحيوان المسروق. ذلك أنه، بالإضافة إلى جماعات المزارعين الحانقين الذين كانوا يتتبعون آثار حوافر خيولهم ومواشيهم التي ذهبت بلا رجوع، كان هناك العمد

الذين يتبعون المجرمين الحقيقيين إلى بالنبو. فقد ترك محصِّل ضرائب فدرالي واحد على الأقل مجموعة من آثار الأقدام التي لم ترجع. لأن بالنبو الابن لم يكن يكتفي ببيع الوسكي مثل أبيه بل كان يصنعها أيضاً. ثم أصبح حامياً لما يسمى تغطيةً وتلطيفاً، صالة الرقص.

وما أن حلّت أواسط العقد الثامن من القرن، حتى أصبح اسم بالنبو مرادفاً للرّعب والسّخط إلى مسافات بعيدة. وقد حاول القسُس والعجائز من السيدات اختيار عُمُد يكون هدفهم إخراج بالنبو وسكيريه وموسيقييه ومقامريه وبناته خارج مقاطعة يوكنا باتوفا، بل خارج ميسيسيبي إن أمكن. لكن بالنبو وحاشيته ـ الإسطبل، بيت الملذات، سَمِّه ما شئت ـ لم يزعجونا قط نحن الآخرين. فهم لم يخرجوا أبداً من معقلهم كما لم يكن هناك قانون يجبر أحداً على الذهاب إليهم. كذلك بدا أن هوايته الجديدة كانت مفيدة حتى انتشر خبر مفاده أن كل شخص لا يتطلع أو يطمح إلى الحصول على أكثر من حصان مريض أو بقرة عجفاء فهو غير مقبول هناك. وهكذا عمد الراشدون إلى ترك بالنبو، بمن فيهم العُمُد الذين لم يكونوا راشدين فحسب بل أرباب عائلات أيضا. وقد اتخذوا عبرة بما حل بمُحصِّل الضرائب الفيدرالي الذي اختفى في تلك الجهة منذ مدة غير بعيدة.

بقيت الحال كذلك حتى عام 1886، عندما جاء إلى بالنبو قسيس معمداني اسمه حيرام هايتور. كان هو أيضاً عملاقاً كبالنبو وفي مثل ضخامته. وكان أيام الآحاد، منذ عام 1861 حتى عام 1865، قساً من جماعة فورست، وفي الأيام الستة الباقية من أقسى جنوده وأجرأهم. وقد جاء هذا القسيس مسلحاً بإنجيله وبيديه الخاويتين وردّ المنطقة بكاملها إلى الدين بواسطة قبضتيه، واحداً واحداً كلما استطاع، واثنين اثنين، أو ثلاثة ثلاثة، كلما اضطر إلى ذلك. وهكذا عندما جئت أنا وبون

وند في غسق يوم من أيام أيار عام 1905، كان بالنبو يتجسد للمرة الثالثة في شخص آنسة يبلغ عمرها خمسين سنة، كانت ابنته الوحيدة وكانت متأنقة نحيلة صارمة شاحبة اللون تقوم بزراعة ربع ميل مربع من الأرض الخصبة الصالحة لزراعة القطن والذرة، وبإدارة مخزن صغير تعلوه غرفة فيها صف من فرش القش، وقد غُطّيَ كل فراش منها بشراشف وأغطية ومساند وبطانيات نظيفة جداً. وكانت تلك العلية مخصصة لنوم صيّادي الثعالب والراكون والسمك، الذين (كما قيل) كانوا يعودون دائماً ليس من أجل صيد الحيوانات والسمك، بل من أجل الموائد التي كانت تعدّها الآنسة بالنبو.

سمعت جلبتنا نحن أيضاً. لم نكن نحن الأُوَل. فقد قالت لنا أن سيارتنا كانت الثالثة عشرة التي مرّت من هناك خلال السنتين الأخيرتين، وأن خمساً منها قد مرت خلال الأربعين يوماً الأخيرة. وقد فقدت من جرّاء ذلك خمس دجاجات، وربما اضطرت لإبقاء كل دواجنها مزروبة، حتى الكلاب. كانت تقف هي والطباخة ورجل أسود في الرواق الأمامي وقد غطوا عيونهم من وهج أضوائنا الأمامية: لم تكن تعرف بون من قديم وحسب، بل تعرّفت إلى سيارته من النظرة الأولى. فهي وإن لم تكن قد رأت غير ثلاث عشرة سيارة، فقد كانت تستطيع التمييز بين السيارات تمييزاً حسناً.

وقالت: "إذن، تمكنت فعلاً من الوصول إلى جفرسون!"

وقال: "ها قد مضت سنة. يا لله، يا آنسة بالنبو. وصلت هذه السيارة إلى أماكن أبعد مئة مرة من جفرسون، منذ ذلك الحين ألف مرة. آن لك أن تستسلمي: عليك أن تعتادي السيارات كأي شخص آخر". كان هذا عندما أخبرَتْنا عن الثلاث عشرة سيارة خلال سنتين وعن الدجاجتين. "على الأقل ركبتا سيارة لمسافة قليلة وهو ما لا يمكنني قوله".

وقال بون: "أتعنين أنك لم تركبي سيارة بعد؟ هيا يا ند أخرج من هناك مع الحقائب. أسرع، دع الآنسة بالنبو تجلس في المقعد الأمامي حيث يمكنها أن ترى جيداً".

وقالت الآنسة بالنبو: "انتظر. يجب أن أكلم أليس بشأن العشاء".

وقال بون: "يمكن للعشاء أن ينتظر. أراهن أن أليس، هي أيضاً، لم تركب سيارة قط. هيا يا أليس. من ذا الذي معك؟ زوجك؟".

وقالت الطباخة: "لا أبحث عن زوج، ولن أفكر في "إفوم" حتى لو كنت أبحث عن زوج".

وقال بون: "احضريه معك على أية حال". وتقدمت الطباخة والرجل وركبا في المقعد الخلفي مع تنكة البنزين والغطاء المطوي. ووقفت أنا وند في ضوء المصباح عند الباب المفتوح وراقبنا السيارة والضوء الخلفي الأحمر، وهي تسير على الطريق. تتوقف، وترجع إلى الخلف، وتدور، وتعود مارَّةً بنا. وضغط بون على الزمور. كانت الآنسة بالنبو تجلس منتصبة على المقعد الأمامي، وهي متوترة الأعصاب قليلاً، بينما جلست أليس وإفوم في المقعد الخلفي. وحين مرّوا قربنا أشار إلينا، وهتف إفوم لند قائلاً:

"يا سلام!"

وقال ند عن بون: "إنه يتباهى. يجب أن يكون مسروراً جداً لأن الريِّس بريست ليس واقفاً هنا أيضاً. وإلا لكان لقّنه درساً". ووقفت السيارة ورجعت إلى الخلف ودارت ثانية وعادت في اتجاهنا ووقفت. وبعد لحظة قالت الآنسة بالنبو: "حسنا. ثم سارت وقالت بسرعة: "هيا يا أليس" وهكذا تعشّينا. وعرفت لماذا كان القناصة وصيادو السمك يعودون. ثم سار ند مع إفوم، ورافقتُ أنا الآنسة بالنبو بينما كان بون يحمل المصباح. وصعدنا جميعاً إلى الغرفة التي تعلو المخزن.

وقال بون: "ألم تُحضر شيئاً، حتى ولا منديل نظيفاً؟".

"لن أحتاج إلى شيء".

"حسناً، لا تقدر أن تنام هكذا. انظر إلى هذه الشراشف النظيفة. اخلع حذاءك وسروالك على الأقل. أمّك تجعلك تنظّف أسنانك أيضاً.

"كلا، ما كانت ستفعل. لا يمكن. ليس معي أي شيء أنظفها به".

"ما كان هذا ليمنعها، وأنت تعرف ذلك. إن لم تستطع إيجاد شيء عملت شيئاً لتنظفها به أو لتعرف سبب ذلك".

وقلت: "حسناً، وكنت قد استلقيت على فراشي، فقال: "تصبح على خير". ووقف رافعاً يديه ليطفئ المصباح وهو يقول:

"هل أنت بخير؟".

"اسكت".

"دعنا نرجع إلى البيت. ليس الآن بل غداً صباحاً".

"أبعد كل هذه المدة تخاف؟".

وقال: "طابت ليلتك، ثم أطفأ المصباح واستلقى على فراشه. وخيّم ظلام الربيع: نقيق الضفادع الكبيرة والصوت الأجش الذي تُحْدِثه الغابات، الغابات الكبيرة، بما فيها من حيوانات برية: الراكون والأرانب والقنادس والبوم والأفاعي الكبيرة - الأفاعي السامة والحيات ذوات الأجراس - وربما كانت الأشجار ذاتها تتنفس، حتى النهر يتنفس. هذا فضلاً عن الأشباح - تشيكاسو القدماء الذين أعطوا الأرض اسمها قبل أن يراها البيض، ثم من بعدهم البيض أنفسهم - ويوت، وستوبن العجوز، وصيادو الميجر دي سبين، والزوارق المسطحة الملأى بالقطن، ثم قطارات الشحن وسائقو العربات وسلسلة اللصوص والقتلة التي جاءت بالآنسة بالنبو. وفجأة عرفت الصوت الذي كان يحدثه بون.

وقلت لبون: "علام تضحك؟".

"أفكر في بطن وادي الجحيم. سنصل إليه حوالي الحادية عشرة قبل ظهر غد".

"ظننتك قلت إننا سنواجه المتاعب هناك".

"الحقيقة أننا سنواجه المصاعب. ستتعب الفأس والمجرفة والسلك الشائك والبكرة وأدواتها وجميع درابزينات السياج، كما ستتعب نحن الثلاثة، أنا وأنت وند. هذا ما يضحكني. فعندما ننتهي من وادي الجحيم غداً، سيتمنى ند لو أنه لم يسيء التصرف باختبائه تحت ذلك الغطاء إلى أن يشعر أننا وصلنا إلى ممفيس".

ثم أيقظني باكراً، كما أيقظ كل شخص على مسافة نصف ميل، مع أن إيقاظ ند الذي كان ينام في بيت إفوم وإحضاره إلى المطبخ ليتناول فطوره استغرق بعض الوقت، كما أن إخراجه من المطبخ، استغرق وقتاً أطول لوجود امرأة فيه. وتناولنا طعام الغداء. ثم إنني لم أشعر بأية رغبة في الذهاب إلى أي مكان حتى لو كنت قناصاً أو صياد سمك. وأخذ بون الآنسة بالنبو في رحلة أخرى في السيارة، ولكن دون اصطحاب أليس وإفوم هذه المرة، على الرغم من أن إفوم كان موجوداً. ثم قمنا أنا وبون بتعبئة خزان السيارة بالبنزين وتعبئة جهاز التبريد لا لأنهما كانا بحاجة إلى تعبئة بل لأن الآنسة بالنبو وإفوم كانا يراقباننا على ما أظن. وأدرنا السيارة. كانت الشمس تشرق عندما عبرنا الجسر الحديدي فوق النهر إلى بلاد غريبة ومقاطعة أخرى. وفي المساء سنكون قد بلغنا ولاية أخرى، ووصلنا إلى ممفيس. وقال بون: "شرط أن نعبر وادي الجحيم". فأجبت: "ليتك تتوقف عن ذكره".

وقال بون: "طبعا بطن وادي الجحيم لا يهمه إن تحدثت عنه".

" لم تتحدث. لن يهتم أبداً. وسترى". ثم قال: "حسناً، إنه هناك".
كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة بقليل، وكنا قد أمضينا وقتاً رائعاً نتبع القمم. وكانت الطرق جافة، كثيرة الغبار بين الحقول اليانعة. وكانت الأرض خالية وهادئة، والناس في ملابس الأحد جالسين دون عمل على الشرفات الأمامية، والأولاد والكلاب يجرون نحو السياجات أو الطريق لمراقبتنا أثناء مرورنا وكان هناك أناس في مختلف أنواع العربات وعلى ظهور الخيل والبغال. وكان هناك اثنان أو ثلاثة يركبون الحصان، لا البغل. وكنا قد مررنا بعد التاسعة بقليل بسيارة أخرى، قال بون عنها إنها من طراز فورد، إذ كان يستطيع التفريق بين السيارات مثل الآنسة بالنبو. وكان هؤلاء في طريقهم إلى الكنائس الصغيرة البيضاء القائمة في الإحراج.

وامتدّ أمامنا واد واسع. وكانت الطريق تنحدر من الهضبة في اتجاه حِزام من أشجار الصفصاف والسرو التي تميز الوادي. ولم يبْدُ المكان سيئاً جداً بالنسبة لي، ولم يكن هناك مكان قريب بمثل اتساع بطن النهر الذي كنا قد اجتزناه، حتى أننا استطعنا رؤية الطريق الضيقة الترابية الصاعدة إلى الهضبة المقابلة الواقعة وراءه. لكن بون كان قد بدأ يشتم ويسوق بسرعة أكبر من سرعته في طريق الهبوط، كأنما كان متحمّساً ومشتاقاً كي يصل إلى ذلك المكان ويشتبك معه في معركة. وقال بون: "أنظر إليه. إنه بريء براءة البيضة الطازجة. يمكنك أن ترى الطريق التي وراءه كأنها تضحك منا، وكأنها تقول: إذا استطعتم الوصول إلى هنا اقتربتم من ممفيس، لكن يجب أن تحاولوا الوصول إلى هنا".

وقال ند: "إذا كان سيئاً بهذا المقدار، فلماذا لا ندور حوله؟ هذا ما كنت أفعله لو كنت جالساً مكانك".

وقال بون بعنف: "ليس هناك مكان للدوران حول بطن وادي الجحيم. إذا أخذت إحدى الطرق ستنتهي في "ألاباما" وإذا أخذت الطريق الأخرى تسقط في نهر الميسيسيبي!".

وقال ند: "رأيت نهر الميسيسيبي في ممفيس مرة. وقد شاهدت ممفيس لكنني لم أشاهد ألاباما قط. أحب أن أقوم برحلة إليها".

فأجابه بون على الفور:

"ولم تزر بطن وادي الجحيم كذلك. عساك تعلمت شيئاً أثناء اختبائك تحت الغطاء. هل تعرف لماذا لم نر بين جفرسون وهذا المكان سوى سيارة الفورد تلك؟ لأنه لا وجود للسيارات في الميسيسيبي، خلف وادي الجحيم". فقلت:

"ولكن الآنسة بالنبو قالت إنها رأت ثلاث عشرة سيارة خلال السنتين الماضيتين". فأجاب بون:

"اثنتان منها كانتا هذه ثم إنها لم تعدّ السيارات الباقية وهي تعبر وادي الجحيم" فضحك ند قائلاً:

"ذلك يتوقف على من يتولّى القيادة، هه، هه، هه".

وأوقف بون السيارة بسرعة والتفت نحو ند قائلاً:

"هيا. أقفز منها. ألا تريد زيارة ألاباما؟ حسناً أخذت خمس عشرة دقيقة حتى تنطق!".

"هل من الضروري أن تزجرني لأنني سأمضي النهار معك؟".

لكن بون لم يكن مصغياً. ولا أحسبه وجّه الكلام إلى ند. كان قد خرج من السيارة وفتح صندوق العدّة الذي ركّبه جدي على رفراف السيارة الخلفي لحفظ البكرة وأدواتها والفأس والرفش والفانوس.

وأخرج هذه الأدوات، ما عدا الفانوس، وقذفها على المقعد الخلفي حيث يجلس ند وقال، دون أن يوجه الكلام إلى أحد: "كي لا نُضيع الوقت". ثم أقفل الصندوق وعاد إلى عجلة القيادة.

لم تكن الطريق تبدو لي سيئة بعد. كانت مثل أي طريق ريفية تعبر وادياً موحلاً. وكنا قد اجتزنا قسمها الجاف، لكنها لم تصبح رطبة تماماً. ولحسن الحظ كان روّاد آخرون قد مروا قبلنا وغطوا الحفر والغياض بالأغصان، كما كانت بعض أجزاء الطريق مرصوفة بألواح وضعت فوق الوحل. (أوه، أدركت فجأة أن الطريق لم تعد رطبة) ربما كان بون مسؤولاً عن إعمار ذلك المكان الموحش المغطى بالسرو والصفصاف، المليء بأزيز البعوض، وبأطياف السيارات المغرّزة والناس المتعبين وشتائمهم المتلاحقة.

وترنحت السيارة ثانية ومالت وغرّزت، كما حصل أمس في وادي الأعاصير. وعاد بون يخلع حذاءه وجوربيه ويطوي طرفي بنطلونه. ثم قال لند: "هيا، أخرج". فأجاب ند دون أن يتحرك: "لا أعرف كيف، ولم أتعلّم شيئاً عن السيارات بعد. سأعرقل عملك إن نزلت، لذلك سأبقى هنا مع لوشيوس لأفسح لك المجال". فقال بون متهكماً بوحشية ولؤم: "أردتَ القيام برحلة، وقد حصلت على ما أردت. الآن، اخرج!" فصاح ند: "لكنني في ملابس الأحد!"

وقال بون: "وأنا كذلك. وما دمتُ لا أخاف على بنطلوني فلا داعي لخوفك على بنطلونك ". فأجاب: "أنت عندك السيد موري، أما أنا فعليّ أن أعمل لأكسب المال. وعندما تبلى ملابسي اضطر إلى شراء ملابس جديدة". فقال: "لم تشتر في حياتك قطعة واحدة. عندك معطف بذيل، لبسه لوشيوس ماك كاسلن العجوز نفسه يوماً فضلاً عن معطف الجنرال كومبسون، ومعطف الميجر دي سبين، ثم معطف

الريّس. يمكنك أن تلف طرفي بنطلونك وتخلع حذاءك. هذا شأنك. ولكنك ستخرج من هذه السيارة!".

"ليخرج لوشيوس، إنه أصغر مني سناً وأقوى نسبياً".

"سيسوق السيارة".

"أنا أسوقها إن كان هذا ما تحتاج إليه. طول حياتي وأنا أسوق الخيول والبغال والثيران. ولا أحسب أن تحريك هذا المقود إلى اليمين واليسار أصعب من توجيه الدواب إلى اليمين واليسار بواسطة الحبل أو المنخس". ثم التفت ند إليّ وقال:

"أخرج يا بنيّ وساعد السيد بون. والأفضل أن تخلع حذاءك وجواربك". فصاح به بون محتداً: هل "تخرج أم التقطك بإحدى يدي وانتزع هذه السيارة من تحتك باليد الأخرى؟".

عند ذلك نهض ند بسرعة مذعنا للأمر الواقع، وراح يتمتم وهو يخلع معطفه وحذاءه ويرفع أطراف بنطلونه. وعندما التفتُّ نحو بون رأيته يجر عمودين وبعض الجذوع من بين الأعشاب والعليق، فقلت له:

"ألن تستعمل البكرة والخطّاف هذه المرة أيضاً؟".

"طبعاً لا. عندما يحين الوقت لن نحتاج إلى استئذان أحد في الأمر".

فقلت في نفسي: "إذن هذا هو الجسر. وقد لا يكون هناك أي جسر وهذا أدهى ما في الأمر". وكأنما قرأ بون أفكاري فقال: "لا تقلق على الجسر. لم نبلغه بعد".

وأنزل ند إحدى قدميه في الماء بحذر، ثم قال: "في هذا الماء تراب. ليس أكره عليَّ من دخول التراب بين أصابع قدمي". فقال بون: "ذلك لأن الدم لم يتحرك في عروقك بعد جيداً. امسك هذا العمود.

قلتَ إنكَ لا تعرفُ شيئاً عن السيارات. والآن هذه هي فرصتك لكي تتعلم". ثم قال لي:

"دعها تسير إلى الأمام الآن، وحالما تتوقف عن الانزلاق تابع السير بها". وهذا ما حصل. وقام بون وند بوضع الأعمدة تحت محور العجلات الخلفية ورفعاها، ثم دفعاها إلى الأمام مسافة قصيرة إلى أن بدأت عجلاتها تدور، في حين غمرهما الوحل المتطاير من تحت العجلات الخلفية، وكأنما رُشّ بإحدى آلات رش الدهان.

ثم رأيت الجسر. وصعدنا فوق أرض جافة نسبياً، وكان على بون وند اللذين لم يعد من الممكن تمييزهما بسبب ما عليهما من الوحل – كان عليهما أن يركضا وهما يحملان العمودين، ولم يستطيعا اللحاق بالسيارة. وظل بون يصرخ لاهثاً: "استمر تابع السير!" وتابعت إلى أن رأيت الجسر على بعد مئة ياردة ثم رأيت ما كان يفصلنا عن الجسر، حينئذ أدركت ما كان يعنيه بون، فأوقفت السيارة.

لم تتغير الطريق التي أمامنا بقدر ما تغيرت عناصرها، فأصبحت أشبه بوعاء كبير مليء بالقهوة الممزوجة بالحليب، وقد برزت فيها هنا وهناك أطراف قضبان وشجيرات وجذوع مهملة لا فائدة منها، وعلت في أنحائها أكوام من التراب بدت كأنما جُرِفت وكُوِّمَت عمداً بالمجراث. ثم رأيت شيئاً آخر، وفهمت ما قاله بون عن بطن وادي الجحيم، منذ أكثر من سنة، وما ظل يكرره بنوع من الذهول المزعج المقلق، منذ أن غادَرْنا جفرسون. ثم رأيت بغلين مربوطين إلى شجرة بجانب الطريق (القناة) مجهَّزَين بعِدّة الحراثة، وقد أُسند إلى شجرة أخرى قريبة محراثٌ مزدوج كبير مجهز بسكة كبيرة. وكان الوحل يغلف هذه الأدوات جميعاً. وكان خلف ذلك المكان مباشرة مسكن جديد، غير مدهون، مؤلف من غرفتين، وعلى شرفته رجل حافي

القدمين تتدلى حمّالات سرواله على وسطه، بينما كان حذاؤه الغليظ (المغطى بالوحل أيضاً) يرتكز إلى الجدار قرب الكرسي. وعرفت أن بون اضطر، هو والسيد ووردوين، في هذا المكان لا في وادي العواصف، وذلك في السنة الماضية، إلى استعارة المجرفة التي نسي السيد ووردوين أن يعيدها.

ورأى ند أيضاً ما رأيته. وكان قد ألقى نظرة إلى حفرة الوحل، والتفت إلى البغلين المجهَّزَين بالعدة، الواقفين هناك يطردان البعوض بذيليهما، وكأنهما بانتظارنا. ثم تمتم قائلاً: "شيء ملائم!.

فقال له بون بحدة: "اخرس. لا تفُه بكلمة. لا تُحدِث صوتاً". كان يتكلم بغضب مكتوم. ثم أسند العمود الموحِل إلى السيارة وأخرج البكرة وأدواتها والسلك الشائك والفأس والرفش وهو يردد: "يا ابن الكلبة، ثم قال لي: "وأنت أيضاً".

"أنا؟" وقال ند:

"انظر إلى البغلين والسلسلة المتصلة بالعمود الرئيسي، فقال بون بلهجة حادة، ولكن بصوت منخفض:

"ألم تسمعني أقول لك اسكت؟".

ـ "عجباً، ترى، لماذا يريد ذلك المحراث المزدوج؟ وهو مغطى بالوحل حتى المقبض أيضاً. كما لو كان... أتعني أنه يأتي إلى هنا مع ذينك البغلين ويحرث هذا المكان كما لو كان مزرعة، لمجرد إبقائه مستنقعاً؟" وكان بون يحمل الرفش والفأس والبكرة وأدواتها بين يديه. ظننت للحظة أنه سيقذف ند بإحداها أو ربما بها كلها. فقلت له بسرعة:

"هل تريدني"؟

"نعم، الموقف يحتاج إلى تعاوننا جميعاً. لقد واجهت، أنا والسيد ووردوين، مشكلة بسيطة معه هنا في السنة الماضية. علينا أن نعبر هذه المرة".

فقال ند: "ما هو المبلغ الذي اضطررتم إلى دفعه له في السنة الماضية كي يجركم من الوحل؟".

"دولاران. فخير لك أن تخلع بنطلونك كله وتخلع قميصك أيضاً".

"دولاران؟ هذا المتسكع اللعين. سأطلب من الريّس أن يهيء لي حفرة مماثلة".

"حسناً، يمكنك أن تتعلم كيف، في هذه الرحلة".

قال ذلك وأعطى ند البكرة وأدواتها وقطعة السلك الشائك قائلاً: "خذها إلى هناك، إلى تلك الصفصافة، الصفصافة الكبيرة، واربطها بها جيداً".

وأرخى ند الحبل من البكرة وحملها إلى الشجرة. وخلعتُ بنطلوني وحذائي ونزلت إلى الوحل فبدا لطيفاً بارداً. ربما بدا كذلك لبون أيضاً. وربما كان لند مجرد انعتاق، مجرد تحرر من إضاعة الوقت في تجنب التلوّث بالوحل. على أية حال، تجاهل الوحل وهو يقرفص فيه ويشتم بهدوء وحزم بينما كان يعقد قطعة السلك الأخرى على مقدم السيارة ليشبك بها الخطاف. ثم قال لي: "خذ، ستقوم بجرّ بعض من تلك الشجيرات الموجودة هناك" وكأنما أدرك ما يدور في فكري فأجاب: "أنا أيضاً لا أدري من أين أتت. ربما كوّمها هناك بنفسه ليجعلها في متناول الناس، فيعرفوا كم هو يستحق الدولارين".

وهكذا قمت بجرّ الشجيرات، ثم وضعتها في الوحل أمام السيارة، بينما وضع بون وند طرف الحبل في خطّاف البكرة واستعدّا. ثم وقفت، أنا وند، عند طرف الحبل المربوط بخطاف البكرة، ووقف بون عند مؤخّرة السيارة حاملاً العمود وقال لنا: "العمل الهيِّن لكما. كل ما عليكما أن تفعلاه هو أن تُمسكا بهذا العمود جيداً عندما ادفع السيارة. حسناً، هيا بنا".

كان هناك شيء يشبه الحلم. لم يكن مثل الكابوس، بل مثل الحلم - إنه ذلك التركيب الساكن، الهادئ، الناتئ، الأدغالي، الفطري تقريباً، للطين والوحل والنباتات البرية والحرارة. وكان البغلان اللذان يضربان الهَوام والحشرات المتناهية في الصغر التي لا تُعَدّ ولا تُحصى، يلائمان ذلك الجو الحقيقي الذي كنا نتحرك فيه ونتنفس، وذلك بشكل عجيب إذ كانا في حدّ ذاتهما نهاية بيولوجية عقيمة، وبالتالي زائلة قبل أن تولد. ثم هناك السيارة، هذه اللعبة الميكانيكية التي تعادل في قوتها عشرات الخيول والتي وقفَت عاجزة عديمة الحيلة في قبضة بضع بوصات من مزيج مؤقت لعنصرين لطيفين مُسالمَيْن - التراب والماء - فضلاً عن أننا وقفنا ثلاثتنا، ثلاثة مخلوقات متشابهة ومتباعدة، هنا وهناك، يغطّيها الوحل حتى لا يمكن تمييزها، تصارع هذين العنصرين صراع المستميت. وكنا نتقدم بوصة بوصة - هذا إذا تقدّمنا. وكان الرجل في أثناء ذلك يجلس على كرسيه المقشش يراقبنا من شرفته، بينما كنّا، أنا وند، نجهد لسحب كل بوصة نتمكن من سحبها على الحبل الذي صيّره الوحل زلقاً حتى صار من الصعب القبض عليه بالأيدي. وكان بون خلف السيارة يجاهد كمارد جبار، يُثبت العمودَ تحت السيارة، ويرفعها ويدفعها إلى الأمام. وسقط مرة فرمى العمود وأمسك السيارة بيديه ودفعها إلى الأمام مسافة قدم أو قدمين كأنها عربة يد. ولم يكن باستطاعة أي

رجل أن يتحمّل ذلك. وهو يجب ألا يتحمل ذلك. هذا ما قلته في النهاية. ثم توقّفت عن السحب وقلت وأنا ألهث: "كلا. لا نستطيع القيام بهذا، لا نستطيع". فقال بون بصوت يتلاشى، ضعفاً ورقة، مثل همسة الحب:

"إذن ابتعدا عن الطريق وإلا جعلتها تسير فوقكما".

"كلا".

وتعثرت وزلّت قدمي وغُصتُ في الوحل، ثم تطلّعت إليه وقلت مكرراً: "كلا، ستقتل نفسك".

"لستُ تعباً. الآن بدأت جهودي تثمر. لكن يمكنكما، أنت وند، أن تستريحا. وفي هذه الأثناء أرى أن تقوما بجر كمّية أخرى من تلك الشجيرات".

"كلا، كلا. ها قد أتى! أتريده أن يراها؟ ذلك لأننا كنا نستطيع أن نراه، نسمع وقع حوافر البغلين وهما يسيران على حافة حفرة الوحل، ونسمع خشخشة السلاسل المعقودة، وكان الرجل يعتلي أحد البغلين ويقود الآخر وقد ربط حذاءه إلى أحد الخطّافات، يتقدمه عمود المحراث كأنه أحد صيادي الجاموس البري القدماء الذين تمثّلهم الصور وهم يحملون مسدساتهم. كان رجلاً ضئيل الجسم، لكنه، مع ذلك، كان أكبر منّا ـ أو منّي أنا على الأقل. وحين وصل حيّانا قائلاً:

"صباح الخير يا شباب. يبدو أنكم أوشكتم أن تحتاجوا إليّ". ثم قال لبون "مرحبا يا جفرسون. يظهر أنك تمكّنت من العبور في الصيف الماضي".

"يبدو كذلك".

قالها بون وقد تغيّر الحال تغيّراً كلياً، كلاعب "بوكر" رأى ورقة الاثنين الثانية تُعطى للاعب في الجهة المقابلة. ثم أردف: "كنا ستتمكّن من العبور هذه المرة أيضاً، لو لم تضعوا كمية كبيرة من الوحل هنا".

"لا تُلْقِ تبعة ذلك علينا. الوحل من أفضل محاصيلنا في هذه الجهات".

فقال ند: "يجب أن يكون المحصول الأفضل، ما دمتم تحصلون على دولارين مقابل عبور كل حفرة". فرمقه الرجل لحظة ثم قال:

"ربما كنتَ على حق. خذ هذا العمود، يظهر أنك تعرف كيف تربطه إلى البغل". فقال بون: "أنزل وأفعل ذلك بنفسك، وإلا لماذا ندفع لك دولارين؟ لن نستأجرَك كخبير. فعلت ذلك في السنة الماضية".

"ذلك كان في السنة الماضية. أُصبت حينئذ بالروماتيزم بسبب نزولي في الماء لشبك السلاسل، فانهارت قوتي".

لذلك لم يحرّك ساكناً، ولم يفعل سوى إحضار البغلين وإيقافهما جنباً إلى جنب، بينما قام بون وند بربط السلاسل إلى عمود المحراث، ثم قرفص بون في الوحل ليثبت السلسلة إلى السيارة. ثم سأل الرجل:

- "أين تريدني أن أشبكها؟".

- "هذا لا يعنيني. أشبكها بأي جزء من السيارة تريد إخراجه من حفرة الوحل هذه. لكن إذا أردت أن تخرجها كلها معاً، اشبكها بمحور العجل. ولو أنني مكانك، لأعدت جميع الرفوش والحبال إلى السيارة لأننا لن نحتاج إليها".

فجمعناها أنا وند، بينما قام بون بشبك السيارة. وقفنا نحن الثلاثة جانباً وراقبنا الرجل وهو يعمل. كان خبيراً بعمله، لكن البغلين أيضاً أصبحا خبيرين. كانا يشدان العمود الرئيسي بتوازن أشبه بتوازن بهلوان يسير على الحبال. لقد قاما بتخليص السيارة وجرّها دون أن يحتاجا إلى أكثر من كلمة بين الحين والآخر، ولمسة طفيفة بالسوط، وأخيراً أوصلاها إلى أرض كان التراب فيها أكثر من الماء. فقال بون:

"حسناً يا ند، فكّها". فقال الرجل:

"انتظر قليلاً. هناك حفرة أخرى في هذا الجانب من الجسر. سأدعكم تعبرونها مجاناً. لقد مضى على معرفتك بهذا المكان سنة كاملة". ثم قال لند: "هذا ما نسميه هنا بالرقعة الاحتياطية". فأردف ند قائلاً: تعني عمود عيد الميلاد؟".

- "ربما كنت أعني ذلك. لكن ما هو؟".

- هكذا كنا نفعل في ماكاسلن، قبل الاستسلام في المعركة، عندما كان لوشيوس كونيتوس حياً، وما زال ابن ادموندس يفعل ذلك. في كل ربيع يوضع العمود في أجود نقطة في الحقل، وكل نبتة قطن تقع بين ذلك العمود وطرف الحقل يذهب ثمنها إلى صندوق عيد الميلاد، ولا يأخذ صاحب المزرعة أية حصة منه، بل يوزعها على زنوج ماكاسلن في عيد الميلاد. هذا هو عمود عيد الميلاد. وأرجح أنكم أنتم، مزارعي الوحل هنا، لم تسمعوا به". فنظر الرجل إلى ند لحظة. عندئذ قال ند: "هه، هه، هه". فقال الرجل: "هذا أفضل. ظننت لحظة أننا أوشكنا أن نسيء فهم بعضنا بعضاً". ثم قال لبون: "الأفضل أن يقوم أحدكم بقيادتها". فقلت: "لا بأس". فقال "هيا". وهكذا جلست خلف المقود بما عليَّ من وحل وغيره.

وقبل أن نتحرك قال الرجل: "نسيت أن أذكر لك أمراً. تضاعفت أسعارنا عمّا كانت عليه في السنة الماضية". فقال بون: "لماذا؟ السيارة هي ذاتها، وحفرة الوحل هي ذاتها. ولا أشك أبداً في أن الوحل ما يزال هو ذاته".

فأجابه الرجل:

"كان هذا في السنة الماضية. لكن العمل ازداد الآن. ازداد إلى درجة أرغمتني على رفع الأسعار".

"حسنا. لعنك الله. هيا بنا".

وهكذا تحركنا، ومشينا بسرعة البغلين، إلى أن دخلنا حفرة الوحل التالية، وخرجنا منها دون أن نتوقف. كان الجسر أمامنا. وخلفه كنا نستطيع رؤية الطريق وبداية الأمان. فقال الرجل: "أصبحتم في أمان الآن، إلى أن تعودوا". فقال بون: "لن نعود من هذه الطريق". فقال الرجل: "لو أنني مكانكم، لما عدت أيضاً".

وفك بون السلسلة واتّجه إلى أقرب بركة ماء وغسل الوحل عن يديه ثم عاد وأخرج أربعة دولارات من محفظته. لكن الرجل لم يتحرك. بل قال:

"ستة دولارات".

"دفعنا دولارين في السنة الماضية. قلت إن السعر تضاعف الآن. ضعف الاثنين أربعة. هذه أربعة دولارات".

"كنت آخذ دولاراً عن كل راكب. كنتما اثنين في السنة الماضية، فأخذت دولارين. تضاعف السعر الآن، وأنتم ثلاثة. فتكون الأجرة ستة دولارات. ربما كنت تفضل العودة إلى جفرسون ماشياً على أن تدفع دولارين. لكن ربما لا يرغب بذلك هذا الصبي وذلك الزنجي!".

"لنفترض أنني لن أدفع لك ستة دولارات، بل لنفترض أنني لن أدفع لك شيئاً البتة؟" فأجاب الرجل:

"يمكنك أن تفعل ذلك. صحيح أن البغلين قد تعبا، لكن ما زالت لديهما القدرة على سحب ذلك الشيء وإعادته إلى حفرة الوحل الأولى".

لكن بون كان قد أذعن للأمر الواقع. مع ذلك قال:

"ما هذا الصبي سوى طفل؟ ليس أكثر من طفل صغير".

ـ "قد تكون العودة إلى جفرسون سيراً على الأقدام أخف عليه، لكنها لن تكون أقصر".

"ولكن انظر إلى الشخص الآخر! عندما يغسل الوحل عنه لن يصير أبيض؟".

"يا بني، هذان البغلان، مصابان بعمى الألوان!"

الفصل الخامس

كان بون قد أخبرنا، أنا وند، أننا حالما نقهر بطن وادي الجحيم ندخل العالم المتمدن. وصوّر لنا أن الطرق تمتلئ بالسيارات ابتداء من ذلك المكان. ربما كان ضرورياً أن نبتعد أولاً عن وادي الجحيم بُعدَنا عن المطهر، أو حتى يغيب عن أنظارنا على الأقل. مع ذلك كان علينا أن نتخلص من وحل وادي الجحيم قبل أن نصبح جديرين بالمدنية. على أية حال، لم يكن قد حدث شيء بعد. أخذ الرجل دولاراته الستة، وذهب مع بغليه. ولاحظت أنه لم يعُد إلى ذلك البيت، بل مضى عبر المستنقع واختفى كأنما قد انتهى النهار. ولاحظ ند ذلك أيضاً وقال: "ليس طمّاعاً، ولا هو بحاجة إلى أن يكون. لقد كسب ستة دولارات ولم يحن بعد موعد الغداء". فقال بون: "لقد حان بالنسبة لي. أحضر الغداء".

هكذا أخذنا صندوق الطعام الذي كانت الآنسة بالنبو قد أعدّته لنا، كما أخذنا البكرة والفأس والمجرفة وأحذيتنا وجواربنا وبنطلوني وعدنا إلى الوادي وغسلنا الأدوات. (لم نكن نستطيع أن نعمل شيئاً للسيارة قبل أن نصل إلى ممفيس، حيث لا وجود لحفر الوحل — أو هكذا تصورنا) ولم يكن هناك ما نستطيع عمله بشأن ثياب بون وند، مع أن بون غطس في الماء دون أن يخلع ملابسه، ثم حاول أن يقنع ند بالاقتداء به. فقد كان بون يحمل ملابس إضافية لكنّه اكتفى بخلع قميصه وارتداء معطفه. أظنني أخبرتك عن حقيبته التي لم يكن يحملها

بقدر ما كان يلبسها، كما يلبس الدبلوماسيون حقائبهم، والتي يضع فيها إنجيله ومقدار ملعقتين من أجود أنواع الوسكي عند جدي.

وتناولنا طعام الغداء. كان يتألف من لحم الخنزير والدّجاج المحمّر والبسكوت ومربى الأجاص، وإبريق من اللبن المخيض ثم أعدنا أدوات مكافحة الوحل (التي اتضح في النهاية أنها لم تكن للمكافحة بل للتباهي). ثم قسنا كمية البنزين في الخزان، وتابعنا سفرنا. كان الأمر قد قضي فعلاً. لم نندم ولم نقل يا ليت أو لعلّ. وعندما تغلّبنا على وادي الجحيم أغلقنا البوابة وأحرقنا الجسور خلفنا. وقد بدا أننا كمن كسب مهلة قبل تنفيذ العقاب مكافأة على تصميمنا الذي لا يقهر، وعلى رفضنا الاعتراف بالهزيمة. أو ربما كانت الفضيلة نفسها هي التي استسلمت وتخلّت عنا إلى اللافضيلة ترعانا وتدلّلنا كما نستحق بعد أن قايضنا أرواحنا مقايضة لا رجوع عنها الآن.

بدا أن الأرض نفسها قد تغيرت. المزارع صارت أكبر وأكثر ازدهاراً، وسياجاتها أكثر إحكاماً. وكانت تتخللها بيوت مدهونة وزرائب. وكان الهواء نفسه هواء مدن. وأخيراً وصلنا إلى طريق رئيسية عريضة تمتد بشكل مستقيم إلى مسافة بعيدة، وعليها آثار عجلات كثيرة. فقال بون بنوع من الاعتزاز، وكأننا كنا نشكّ في كلامه، أو كأنما هو الذي فتح الطريق ومهّدها بيديه (بل كأنه هو الذي أضاف آثار العجلات إليها): "ماذا قلتُ لكما؟ هذه هي الطريق إلى ممفيس".

كانت أمامنا سحابة غبار تسرع متوعّدة. لم يكن هناك شكّ بأنها الطريق. ولم يدهشنا وجود السيارات عليها. كنا نمرّ ببعضنا بعضاً، جامعين غبارنا في سحابة واحدة هائلة تشبه العمود، أو كأنها لوحة إعلانات رُفعت لتغطي الأرض بنموذج عن المستقبل: الحركة الدائبة جيئةً وذهاباً، ذلك المصير الآلي الدائم الحركة الذي لا مفرّ لأميركا منه.

كان لوننا قد أصبح رمادياً من رأسنا إلى أخمص قدمينا بسبب الغبار (خاصة ملابس بون التي كانت ما تزال مبتلة). وخرج بون من السيارة، دون أن يطفئ المحرك، ودار حولها برشاقة واقترب مني قائلاً: "انتقل إلى الجانب الآخر. أنت تعرف كيف تسوق قاطرة سكة حديد تسير بسرعة أربعين ميلاً في الساعة".

وهكذا قدت السيارة في عصر يوم مشمس من أيام أيار. ولم أكن أستطيع التطلع حولي، فقد كنت مأخوذاً بكليتي، أركّز انتباهي على شيء واحد (حسناً، كنت منفعلاً جداً، ومزهواً) كان عصرَ يوم أحَد؛ القطن والذرة ينموان دون إزعاج العمال، والبغال نفسها كانت بلا عمل تستريح في المراعي، والناس لا يزالون في ملابس الأحد على الشرفات وفي الساحات الظليلة. وأمامهم أقداح الليمونادة أو صحون البوظة التي تُركت هناك منذ الغداء. وزدت السرعة من جديد. كنا نقترب من المدن فقال بون: "إننا نقترب من بعض المدن. الأفضل أن أتولى القيادة".

وتابعنا طريقنا. أصبحت مظاهر المدنية موجودة باستمرار: كانت هناك مخازن ريفية منفردة أو قرى صغيرة على مفارق الطرق، ما تكاد تغيب الواحدة منها حتى تطل الأخرى. وكانت التجارة منتشرة حولنا، والهواء هواء مدن فعلاً. وكان للغبار نفسه الذي أثرناه وجلبناه معنا طعم المدن ورائحتها، حتى الكلاب والأطفال لم يركضوا نحو السياجات والأبواب ليراقبونا ويراقبوا السيارات الثلاث التي مررنا بها في الثلاثة عشر ميلاً الأخيرة.

ثم انتهى الريف. لم تعد هناك مسافات بين البيوت والدكاكين والمخازن. وفجأة وجدنا أنفسنا في بولفار عريض غُرِست على جانبيه الأشجار بشكل مرتب، في وسطه طريق للسيارات. ثم كانت هناك

الحافلة الكهربائية، وكان سائقها ومساعده يقومان بتغيير وجهتها للعودة بها إلى الشارع الرئيسي. وفجأة قال بون: "قبل ثلاث وعشرين ساعة ونصف كنا في جفرسون ميسيسيبي على بعد ثمانين ميلاً. هذا رقم قياسي".

وكنت قد جئت إلى ممفيس من قبل (وكذلك ند. هذا ما قاله لنا هذا الصباح. وسيثبت ذلك بعد ثلاثين دقيقة). ولكننا كنا نذهب إليها بالقطار، ولم أرها هكذا قط: تنمو وتكبر وتبدو لي كملعقة بوظة تتلاشى في الفم. كنت أحسب أننا سنذهب إلى فندق جايرسو كما كنا نفعل دائماً (أنا على الأقل). ولا أعرف أفكارَ مَن قرأ بون هذه المرة، فقال: "سنذهب إلى نُزل أعرفه وسيعجبك. وصلتني رسالة في الأسبوع الماضي من إحدى.. السيدات المقيمات هناك تقول فيها إن ابن أخيها يقوم بزيارتها الآن. وهكذا تجد من يشاركك اللعب. وسيجد الطباخ لند مكاناً ينام فيه".

فقال ند: هه، هه، هه.

وكانت هناك إلى جانب الحافلات الكهربائية عربات من جميع الأنواع. وكانت الخيول تنظر إلينا شزراً، لكنها ظلت محتفظة برصانتها، وهو ما دلّنا على أن خيول ممفيس كانت معتادة على السيارات. وهكذا لم يستطع بون أن يدير رأسه لينظر إلى ند ويستفهمه، لكنه تمكن من النظر إليه بعين واحدة وقال له:

"ماذا تعني بهذا؟".

"لا شيء. انتبه إلى طريقك ولا تهتم بي. لا تهتم بي مطلقاً. أنا أيضاً لي أصدقاء هنا. أخبرني فقط أين ستكون هذه السيارة صباح الغد وسأحضر إلى هناك أيضاً". فأجابه بون: "خير لك أن تكون هناك. هذا إذا كنت تنوي العودة فيها إلى جفرسون. لم يدْعُكَ أحدنا إلى هذه

الرحلة، لذلك لسنا مسؤولين عنـك. ولا يهمّـني إطلاقـاً، أعُـدْتَ إلى جفرسون أم لم تعد".

"عندما نعيد هذه السيارة إلى جفرسون وتلتقي أعيننا بعيني الريّس بريست والسيد مورين لن يكون لدى أيّ منا الوقت كي يهتم بمن عـاد وبمن لم يعد".

على أنّ وقت الخوض في هذا الموضوع كان قد فات. لذلك قال بون: "حسناً، حسناً. كل ما قلته هـو أنـك إذا كنـت تريـد العـودة إلى جفرسون، فخير لك أن تكون حيث أراك عندما أتأهب للعودة".

وكنّا نقترب من الشارع الرئيسي حيث المباني المرتفعة والمخازن والفنـادق: جاسـتون (زال الآن) وبيبـوي (نقـل منـذ ذلـك الحـين) ثم جايوسو، وهو فندق كنا نحن، آل ماك كاسلن وادموندس وبريـسبت، نقدّره كثيراً ونعتبره مزاراً عائلياً. لأن ابن عمّنا البعيد، تيوفيلـوس مـاك كاسلن، كان أحد أفراد فرقـة الخيالـة الـتي تقـول الأسـطورة إنّ أخـا الجنرال فورست قادها على ظهر الخيول إلى ردهة هـذا الفنـدق وكـاد يعتقل جنرالاً شمالياً. لكننا لم نصل إلى هنـاك. فقـد انعطـف بـون إلى شارع جانبي أقرب مـا يكـون إلى زقـاق خلفـي. كانـت تحتـل زاويتـه حانتان، وعلى جوانبه بيوت ليست بالقديمـة ولا بالجديـدة. كـان كـلّ شيء هادئاً هدوء جفرسون عصر يوم أحد. الحقيقـة أن بـون أشـار إلى ذلك حين قال:

"كان يجب أن تراهـا ليلـة أمـس. يجـب أن تراهـا في مـساء يـوم سبت، أو في إحدى ليالي الأسبوع، عندما يكـون في المدينـة مـؤتمر لرجال الإطفاء أو الشرطة، أو لأعضـاء جمعية إلك أو غيرها، فقلت:

"لعل الجميع ذهبوا لحضور صلاة المساء".

"كلا. لا أظن ذلك. الأرجح أنه يستريحون".

"يستريحون من أي شيء؟" فقال ند وهو في المقعد الخلفي:

"هه، هه، هه".

وكان واضحاً أننا عرفنا أن ند جاء إلى ممفيس من قبل، لكن جدّي نفسه لم يكن يعرف عدد زياراته. وكما تعلم، لم يكن لي من العمر أكثر من إحدى عشرة سنة. كان الشارع أمامنا خالياً فأدار بون رأسه نحو ند وقال: "إذا تلفظت بكلمة أخرى..". فقاطعه ند قائلاً: "أية كلمة أخرى؟ كل ما طلبته هو أن تدلّني على المكان الذي ستكون السيارة فيه صباح الغد، حتى أكون جالساً فيها عندما ترحل".

وهذا ما فعله بون. كنا قد وصلنا إلى المكان. كان بيتاً يقوم وسط ساحة صغيرة خالية من العشب. أوقف بون السيارة عند المنعطف، وصار بإمكانه أن يدور وينظر إلى ند ليقول له: "حسناً سآخذ بقولك، وخير لك أن تأخذ بقولي. دعنا نلتقي عندما تدقّ الساعة الثامنة صباح الغد. أعني عند الدقة الأولى لا الأخيرة، لأنني لن أكون هنا لأسمعها".

وخرج ند من السيارة يحمل حقيبته وقميصه المغطى بالوحل وهو يقول: "ألا تكفيك متاعبك حتى تهتم بمتاعبي؟ ما دمت تستطيع إنهاء أعمالك في الثامنة من صباح الغد، فلماذا تظنني لا أستطيع ذلك؟" ومضى في طريقه دون أن يلتفت إلى الوراء قائلاً: "هه، هه، هه".

ومدّ بون يده إلى خلفيّة السيارة وتناول حقيبته. ثم تذكر شيئاً آخر. فسحب مفتاح السيارة ووضعه في جيبه وحمل الحقيبة. ثم عاد وأخرج المفتاح من جيبه وقال لي: "خذ، احتفظ به أنت. قد أضعه في مكان ما وأضيّعه. خبئه جيداً كي لا يسقط، اربطه بطرف منديلك".

وأخذت المفتاح، بينما انحنى هو لحمل حقيبته، ثم توقف ثانية والتفت بسرعة نحو البنسيون، ثم أخرج محفظته من جيبه الخلفي وفتحها وأخرج ورقة من فئة الدولار ثم أغلق المحفظة وناولني إياها قائلاً: "احتفظ بهذه أيضاً. قد أنساها في مكان ما. عندما نحتاج إلى نقود سأطلبها منك".

ولم أكن قد دخلت بنسيوناً من قبل، ولا تنس أنني كنت في الحادية عشرة فقط. هكذا وضعت المحفظة في جيبي وعبرنا البوابة وسرنا في الممر حتى بلغنا الباب الأمامي. ولم يكد بون يلمس الجرس حتى سمعنا وقع أقدام في الداخل فقال لي بسرعة "ماذا قلت لك؟ ربما كانوا جميعاً يسترقون النظر إلى السيارة من خلف ستائر النوافذ".

فتحت الباب صبية زنجية. لكن قبل أن تتلفظ بكلمة دفعتها امرأة بيضاء جانباً. هذه أيضاً كانت صبية ذات وجه صارم جميل، وشعر شديد الاحمرار، تضع في أذنيها ماستين يضرب لونهما إلى الصفرة. ولم أر في حياتي أكبر منهما. فقالت لبون على الفور: "عليك اللعنة. حالما تسلّمَت كوري برقيتك، قلت لها أن تبرق لك فوراً وتطلب منك عدم إحضار الصبي. عندي واحد في البيت، مضى على مجيئه أسبوع. شيطان واحد يكفي أي بيت أو شارع، بل يكفي ممفيس كلها، هذا إذا كان من نوع الصبي الذي عندنا. ولا تكذب فتدّعي أنك لم تتسلم البرقية"، فقال بون: "لم أتسلمها. لابد أننا غادرنا جفرسون قبل أن تصل. ماذا تريدينني أن أفعل به؟".

فقالت: "تفضلا بالدخول". وابتعدت عن الباب لتفسح لنا طريقاً. وحالما دخلنا أقفلت الخادمة الباب. ولم أفهم السبب آنذاك، ربما كانت تلك من عادة أهل ممفيس حتى أثناء وجودهم في البيت. كانت القاعة مثل أية قاعة أخرى فيها درج يؤدي إلى الطابق الثاني. إلا أنني

حالما دخلت شممت شيئاً. كانت الرائحة تعمّ البيت كله. ولم أكن قد شممتها من قبل. ولم أنفر منها، بل دهشت ـ أعني أنني حالما شمَمْتها بدت كرائحة كنت طوال حياتي انتظر أن أشمها. أظن أن الأمر يختلط عليك عندما تقع، دون سابق إنذار، في تجربة قد تقضي حياتك دون أن تصادفها ثانية. لكن بالنسبة إلى تجربة لا مفر منها، لا يليق بالظروف، أو القدر، ألا تُعِدّك لها أولاً، لا سيما أن الإعداد بسيط بساطة ابن الخامسة عشرة. كان هذا نوع تلك الرائحة. وكانت المرأة ما تزال تتكلم، فقالت: "تعلم أن السيد بنفورد لا يوافق على استعمال البيوت كأماكن لقضاء إجازات الأولاد. سمعته في الصيف الماضي عندما أحضرَت كوري، ذلك الصغير الملعون. فالسيد بنفورد يقول إنهم سيأتون إلى هنا عمّا قريب، فلا تستعجلوهم قبل أن يصبح لديهم مال، ويصبحوا قادرين على صرفه".

وكنا قد وصلنا إلى غرفة الطعام، والمرأة ما تزال تتكلم وتقول: "ما اسمه؟".

"لوشيوس. قدّم احترامك إلى الآنسة ريبا".

ففعلت كما أفعل دائماً. ربما بالطريقة التي تعلّمَها جدي من أمه، وعلّمتها جدتي لوالدي، وعلّمتني إياها أمي. وهي ما يدعوها نـد الانحناء وثني الركبة.

وعندما انتصبت واقفاً كانت الآنسة ريبا تراقبني وفي عينيها نظرة غريبة. وقالت: "يا للعجب! ميني، هل رأيت هذا؟ هل الآنسة كوري..". فأجابت الخادمة: "إنها تلبس ثيابها ". حينذاك رأيتها، أعني سنّ ميني. كانت لها أسنان كحجارة المرمر، صغيرة متناسقة تتناسب مع لون وجهها البني كالشوكولاته. ولكن كان عندها شيء آخر. كانت سنها الأمامية العلوية التي إلى جهة اليمين من ذهب. كانت تتربع كملكة بين الأسنان

البيضاء الأخرى، وكانت تشع وتتلألأ كأن فيها ناراً داخلية، أو إشعاعاً غير إشعاع الذهب، حتى أن تلك السن الذهبية بدت وحدها أكبر من ماستي الآنسة ريبا مجتمعتين ـ (علمت فيما بعد أنها انتزعت هذه السن الذهبية ووضعت مكانها سناً بيضاء عادية كبقية الناس، فحزنت لذلك. وقد فكرت آنذاك، لو أنني كنت من جنسها ومن عمرها، لرغبت في أن أكون زوجها لمجرد رؤية تلك السن يومياً. وقد بدا لي أن طعم الأكل الذي تمضغه لابد أن يكون مختلفاً، إذ يصبح أطيب).

والتفتت الآنسة ريبا إلى بون ثانية وقالت له: "ماذا كنت تفعل؟ تصارع الخنازير؟" فقال: سقطنا في حفرة وحل أثناء الطريق ثم خرجنا منها. السيارة أمام البيت الآن".

"رأيتُها. كلُّنا رأيناها. ولكن لا تزعم أنها ملكك. وإذا كان رجال الشرطة يتبعونها، أبعدها عن بابي. السيد دنفورد لا يرغب في مجيء الشرطة إلى هنا. وأنا كذلك".

"لا تخافي، لا بأس على السيارة".

"الأفضل أن تكون كذلك. ليتك أتيت إلى هنا من قبل. السيد بنفورد يحب الأطفال. ويظل يحبهم حتى بعد أن يبدأ بالشك. في الأسبوع الماضي، كان ما يزال مستعداً أن يثق "بأوتيس" ويأخذه إلى حديقة الحيوانات بعد الغداء". ثم قالت "لميني": "اصعدي إلى فوق وقولي للجميع ألا يشغلوا الحمام خلال نصف الساعة القادمة". وقالت لبون: "هل تحمل معك ملابس للتبديل؟".

"نعم".

"إذن اغتسل والبسها، هذا مكان محترم. ليس حانة قذرة. دعيهما يستعملان غرفة فيرا يا ميني. فيرا ذهبت لزيارة أهلها".

ثم قالت لبون: "ميني أعدّت لأوتيس سريراً في العليّة يمكن للوشيوس أن ينام الليلة إلى جانبه".

وسمعنا وقع أقدام تهبط الدرج، وتجتاز القاعة ثم تدخل من الباب. وأطلت فتاة ضخمة، لم تكن بدينة بل ضخمة، كما كان بون ضخماً. لكنها كانت فتاة صغيرة السن. شعرها أسود وعيناها زرقاوان. وحسبت في البداية أن وجهها عادي لكنها دخلت الغرفة وهي تنظر إليّ وعرفت أن شكل وجهها لم يعد يهم. فقال لها بون: "مرحباً يا صغيرتي". لكنها لم تلتفت إليه. كانت تنظر إلي. فقالت لها الآنسة ريبا: "انتبهي الآن. هذه هي الآنسة كوري، يالوشيوس". فانحنيت وقدمت احترامي ثانية. حينئذ قالت الآنسة ريبا: "أترين ما أعني؟ أحضرت ابن أخيك إلى هنا ليتعلم التهذيب. ها هو التهذيب بانتظاره. لكنه لن يفهم لماذا يتصرف هكذا. ولكن لوشيوس قد يستطيع أن يعلمه التقليد على الأقل". ثم قالت لبون: "اذهبا واغتسلا". فقال بون وهو يمسك بيد كوري: "هل يمكن أن تأتي كوري لمساعدتنا؟" ثم قال لها ثانية: "مرحباً يا صغيرتي". فقالت الآنسة ريبا: "لا أريدك أن تبدو كجرذ من جرذان البيوت الحقيرة. سأبقي هذا المكان محترما يوم الأحد".

وقادتنا ميني إلى الغرفة والحمام في الطابق العلوي وأعطت كلاً منا صابوناً ومنشفة وخرجت. ووضع بون حقيبته على السرير، وفتحها وأخرج قميصاً نظيفاً وبنطلوناً. وقال لي:

"أرأيت؟ قلت لك هذا. بذلت جهدي كي أجعلك تحضر قميصاً نظيفاً على الأقل".

"قميصي ليس ملطخاً بالوحل".

"لكن يجب أن تبدل قميصك بعد الاستحمام".

"لن استحم. استحممت البارحة".

"وأنا كذلك. لكنك سمعت ما قالته الآنسة ريبا. ألم تسمعها؟".

"سمعتها. لم أر سيدة لا تحاول أن ترغم الناس على الاستحمام".

"عندما تعرف الآنسة ريبا أكثر، ستكتشف أنك عرفت المزيد عن السيدات. أي أنها، عندما تقترح عليك عمل شيء، ستجد أن من الأفضل تنفيذه، رغبتَ بذلك أم لا". كان يتكلم بصوت مرتفع وبلهجة الشخص الذي يكون أول من صعد الدرج صبيحة عيد الميلاد وجاء يخبرك بما ينتظرك على الشجرة من الهدايا، وتكون هذه الهدايا غير ما طلبتَه من بابا نويل.

"لا أحد يفكر في مقدار ما يمكن أن يتعلمه في مدة وجيزة عن شيء لم يكن يعرفه، بل لم يخطر له أنه سيرغب في معرفته، أو سيجده، مفيداً ـ شرط أن يحافظ عليه ولا يدعه يفلت منه. خذ نفسك، مثلاً. فكِّر قليلاً. فكر في مقدار ما تعلّمتَه ولم يمض يومان بعد: تعلمت كيف تقود سيارة، وكيف تذهب إلى ممفيس براً دون الاعتماد على سكة الحديد، وكيف تخرج سيارة من حفرة وحل، حتى إذا كبرت وصارت لك سيارتك الخاصة لن تجيد قيادتها وحسب بل ستعرف الطريق إلى ممفيس أيضاً، كما ستعرف كيف تخرجها من حفرة الوحل".

يقول الريّس إنني عندما أصبح في سنّ تؤهّلني لامتلاك سيارة، لن تكون هناك حفر وحل تسقط فيها السيارات. وأن جميع الطرق ستكون ملساء وصلبة، حتى أن السيارة. قد تُحجَز ويستعيدها المصرف، أو تفنى دون أن تصادف حفرة وحل".

"طبعاً، طبعاً. حسناً. مع أنه لن تكون هناك حاجة إلى معرفة كيفية الخروج من حفرة الوحل، ستكون خبيراً بذلك، لماذا؟ لأنك لن تتخلى عما عرفته لأحد".

"لمن يمكنني أن أتخلى عنه؟ من يهمه أن يعرف ذلك إن لم تعُد هناك حفر وحل".

"حسناً، حسناً. هلاّ أصغيت قليلاً؟ أنا لا أعني حفر الوحل. أتكلم عن الأشياء التي يمكن للصبي أن يتعلّمها، تلك الأشياء التي لم يفكر فيها من قبل والتي تصبح بعد ذلك في متناول يده عندما يحتاج إليها. لأنه ليس هناك ما تتعلمه ولا يأتي اليوم الذي ستحتاج إليه فيه. شرط أن تكون قد احتفظت به ولم تدعه يفلت منك صدفة، أو لم تفرّط به عن إهمال أو سوء تصرف. هل فهمت الآن ما أعني؟ هل هذا واضح؟".

"لا أدري. يجب أن يكون كذلك، وإلا لما استطعت أن تواصل الحديث عنه".

"حسناً، هذه هي النقطة الأولى. الآن ننتقل إلى النقطة الثانية. أصبحنا أنا وأنت صديقين حميمين منذ التقينا للمرة الأولى، وقمنا معاً برحلة ممتعة، وتعلمتَ بضعة أشياء لم ترها أو تسمع بها. وأنا فخور بكوني الشخص الذي رافقك وساعدك على تعلُّمها. وأنت مقبل الليلة على تعلم أشياء أخرى، أرجّح أنك فكرت فيها من قبل. وسيدّعي الكثيرون في جفرسون وغيرها أنك لست في سن تسمح لك بمعرفتها. لكنني أعتقد أن الصبي الذي يتعلّم في يوم واحد كيف يدير سيارة ويقودها إلى ممفيس، ويخرجها من حفرة الوحل اللعينة تلك، مؤهَّل لأن يعرف كيف يعالج أيَّ أمر يواجهه.". وهنا سعل، وتنحنح وذهب إلى النافذة وفتحها وبصق، ثم أقفلها، وعاد يتابع كلامه:

"أصل الآن إلى النقطة الثالثة، وهي التي أحاول أن ألحّ عليها. كل ما يراه الرج... الشا... الصبي، ويتعلمه، سينتفع به يوماً، وإن لم يفهمه في حينه، شرط أن يحتفظ به، ولا يتخلّى عنه لأحد. آنذاك سيشكر حسن طالعه لوجود الصديق المخلص الذي أخذ بيده على ظهر أول حصان ركبه، وحذّره في الوقت المناسب من التفريط به أو فقده بطريق الصدقة، أو الثرثرة بما ليس من شأن أحد غير أصحابه.".

"تعني أنني يجب ألا أخبر جدي أو أبي أو أمي أو جدتي عما رأيته في هذه الرحلة. هل هذا قصدك؟".

"ألا توافق على ذلك؟ أليس هذا معقولاً وليس من شأن أحد غيري وغيرك؟ ألا توافق؟".

"إذن، لماذا لم تقل ذلك مباشرة وبصراحة؟".

وكان ما زال يتذكر أمر إقناعي بالاستحمام. وكانت رائحة الحمام قد غدت أكثر طغياناً، ليس بمعنى القوة، بل بمعنى الكثرة. لم أكن أعرف شيئاً عن البنسيونات، ففكرت أن بعضها قد يُخصّص للنساء فقط. فسألت بون عن ذلك ونحن نهبط الدرج. كنت جائعاً والظلام قد بدأ بالانتشار.

"أصبت. إنهن سيدات. وإذا ضبطتك وأنت تتصرف بوقاحة مع إحداهن..".

"أعني، ألا يقيم هنا رجال؟ أو يعيشون هنا؟".

"كلاً، لا يقيم هنا باستمرار غير السيد بنفورد. هذا ليس مكاناً للإقامة بالمعنى الصحيح. لكن يأتيهم زوار كثيرون، يدخلون ويخرجون بعد العشاء، وسترى فيما بعد. طبعاً هذه ليلة الأحد، والسيد بنفورد دقيق جداً فيما يتعلق بيوم الأحد: لا رقص، ولا لهو.

يزور الرجال صديقاتهم المعيّنات بهدوء وتهذيب. ويتأكد السيد بنفورد من تطبيق هذا النظام أثناء وجودهم هنا. الواقع أنه يتمسك بهذا النظام حتى في أيام الأسبوع. وبالمناسبة، كل ما عليك أن تفعله هو أن تكون هادئاً ومهذباً، وتمتّع نفسك، وتصغي جيداً إذا وُجّه الكلام إليك. الزائرلا يتكلّم بصوت مرتفع في المرة الأولى، ويجب ألاّ يضطره أحد إلى إعادة كلامه. تعال من هنا. لعلهم في غرفة الآنسة ريبا".

وكانوا هناك: الآنسة ريبا، والآنسة كوري، والسيد بنفورد، وأوتيس. وكانت الآنسة ريبا ترتدي ثوباً أسود وثلاث ماسات أخرى، ضاربة إلى الصفرة أيضاً. وكان السيد بنفورد صغير الجسم، أصغر شخص في الغرفة، بما في ذلك أنا وأوتيس. وكان يرتدي بذلة سوداء وقميصاً بأزرار ذهبية تتدلى من جيبه ساعة ذهبية كبيرة، له شاربان كثيفان، ويحمل عصا لها رأس ذهبية، ويلبس قبعة عالية. وكان أمامه على المائدة كأس من الوسكي. لكنّ عينيه كانتا أول ما تلاحظه فيه، لأنهما أول ما يلفت نظرك. كأنه يحدّق فيك. وكان أوتيس يلبس ثياب الأحد أيضاً. ولم يكن حجمه في مثل حجمي، لكن كان فيه شيء غريب. وقال السيد بنفورد:

"مساء الخير، يا بون".

"مساء الخير، يا سيد بنفورد. هذا صديقي: لوشيوس برلست".

ولكنني عندما انحنيت أقدم له احترامي، لم يقل شيئاً واكتفى بالنظر إلي. ثم وجه الكلام إلى ريبا:

"قدّمي خمراً إلى بون وكوري، يا ريبا. وقولي لميني أن تعد الليمونادة للصبيين". فأجابت الآنسة ريبا: "ميني تعد مائدة العشاء، وقريب كوري لا يرغب في الليمونادة أكثر مما يرغب فيها بون. إنه يريد أن يشرب البيرة ". فقال السيد بنفورد:

"أعرف ذلك. هل الصبي الذي معك مولع أيضاً بالبيرة يا بـون؟".
فقلت:

"كلا يا سيدي، لا أشرب البيرة".

"لماذا؟ ألا تحبها؟ أم أنك لا تستطيع الحصول عليها؟".

"كلا، يا سيدي. لست بعد في عمر يسمح لي بشربها".

"وسكي إذن؟".

"كلا، يا سيدي. لا أشرب شيئاً. وعَدْت أمي بـألا أشـرب إلا إذا دعاني أبي أو الريّس للشراب، فقال السيد بنفورد لبون:

"من هو رئيسه؟"، فأجاب بون:

"إنه يعني جده".

"أوه، صاحب السيارة. يبدو أنكما لم تعداه بشيء".

ثم التفت إليّ وقال: "لكن أمك غائبـة الآن. وأنـت في رحلـة مـع بون، تبعد عنها ثمانين ميلاً، أليس كذلك؟".

"كلا سيدي. وعدتها".

"فهمت. وعدتَها بـألا تـشرب مـع بـون. لكنـك لم تعـدها بعـدم الذهاب معه إلى بيوت الدعارة".

فوثبت الآنـسة ريبـا والآنـسة كـوري معـاً وصـرخت الأولى "يـا ملعون"! فقال السيد بنفورد: "كفى"، لكن الآنسة ريبـا تابعـت كلامهـا بحدة: "يمكنني أن أقذف بك إلى الخارج. ما هذا الكلام؟" فقالت لهـا الآنسة كوري: "وأنت أيضاً. كلامك ليس أفضل. تتكلمـان أمامهمـا..". فقال السيد بنفورد:

"قلت يكفي، لعلمها حضرا إلى هنا من أجل التهذيب فقط، حسناً، ها قد تعلّما أن الدعارة والملعنة كلمتان يجب أن يفكّرا كثيراً قبل أن يتلفظّا بهما. والآن يا آنسة ريبا نريد هدوءاً. لنشرب نخب الهدوء". وعندما رفع كأسه بدأ شخص ما يقرع جرساً يدوياً في مكان ما من البيت، ولعلها ميني. فقال السيد بنفورد:

"هذا أفضل وقت للأكل. التهذيب والتمدن يعلماننا أن للفم وظيفة أفضل من التشدق بالآراء الخاصة".

وذهبنا إلى غرفة الطعام يتقدمنا السيد بنفورد. وقبل أن نبلغها سمعنا وقع أقدام تسير بسرعة، ثم رأينا سيدتين، بل فتاتين ـ أعني أن إحداهما كانت ما تزال فتاة حديثة السن ـ كانتا تنزلان الدرج بسرعة وهما تبكلان أزرار ثوبيهما. وكانت إحداهما ترتدي ثوباً أحمر، بينما ترتدي الثانية ثوباً وردياً وقالت للسيد بنفورد؛ وهي تلهث قليلاً:

"لم نتأخر". فأجاب: "يسرني ذلك، لا أحب التأخير، هذه الليلة خاصة".

ودخلنا الغرفة. كانت الأماكن على المائدة تزيد عن عدد الحضور. وكانت ميني ما تزال تُحضر الأطباق. وكانت وجبة الجميع تتألف من دجاج محمر بارد وبسكوت وخضروات متبقية من الغداء، ما عدا طعام السيد بنفورد. كان عشاؤه ساخناً: كان طبقاً كبيراً من شرائح اللحم المغطاة بالبصل. (أترى كم كان السيد بنفورد يسبق عصره؟ كان جمهورياً. لا أعني جمهورياً من طراز 1905 ـ الحقيقة لا أعرف ماذا كانت ميوله السياسية في تنيسي، أو إذا كانت له أية ميول ـ بل أعني أنه كان جمهورياً من طراز عام 1961. وكان أكثر من ذلك. كان محافظاً. هكذا. فالجمهوري هو الرجل الذي يكسب ماله، والحر هو الذي ورث ماله، والديمقراطي هو الذي يركض حافي القدمين في سباق الضواحي، والمحافظ هو الجمهوري الذي تعلم القراءة والكتابة).

وجلسنا جميعاً. وبدأنا نأكل. لعلّ السبب في أن رائحة شريحة السيد بنفورد كانت ممتازة، هو أن رائحة بقية الطعام كانت قد طارت عند الفجر. وقالت إحدى السيدتين الجديدتين (التي لم تعد فتية): "هل كنّا يا سيد بنفورد!" ماذا كنتما؟ فصرخت الفتاة:

"تعرف ماذا، أنت تعرفين آنسة ريبا أننا نبذل جهدنا ـ لا تجرؤ على إحداث ضجة ـ لا موسيقى يوم الأحد، بينما تسمح كل البيوت الأخرى بالموسيقى. إننا نُسكِت زبائننا كلّما أرادوا الحصول على مزيد من التسلية. ولكن لو لم نصل إلى غرفة الطعام، قبل أن يتدخل في ما لا يعنيه، لكان غرّمنا بوضع خمسة وعشرين سنتاً في ذلك الصندوق الملعون". فقال السيد بنفورد: "هذه أنظمة البيت. البيت بدون أنظمة لا يكون بيتاً. المشكلة معكنّ أيتها العاهرات، أن عليكنّ أن تتصرفن في بعض الأحيان، كالمُحصِنات. لكن لا تعرفن كيف. وعليّ أن أعلّمكنّ". فقالت الكبرى: "لا يمكنك أن تكلّمنا بهذه الطريقة". فقال: "حسناً، سنعكس العبارة. مشكلتكن أيتها المُحصنات أنكن لا تعرفن كيف تتصرّفن كالعاهرات".

كانت الكبرى واقفة الآن. كان في سيمائها شيء غريب أيضاً. ليس لكونها كبيرة، في عمر جدتي، لأنها لم تكن كذلك. بل لأنها كانت وحيدة وما كان يجب أن تكون هنا وحيدة، وتعاني هذا الوضع. ذلك فظيع. الحقيقة، يجب ألا يكون أي إنسان وحيداً إلى هذا الحد. وقالت: "آسفة يا آنسة ريبا. سأغادر هذا المكان الليلة". فقال السيد بنفورد.

"إلى أين؟ إلى الجهة المقابلة من الشارع؟ إلى بيت بيردي واتس؟ لعلها تسمح لك هذه المرة بإحضار حقيبتك معك، إلا إذا كانت قد باعتها!".

وعادت المرأة تنادي الآنسة ريبا بهدوء. فقالت هذه بسرعة: "حسناً، اجلسي وتناولي عشاءك. لن تذهبي إلى أي مكان. نعم، أنا أيضاً أحبّ الهدوء. لذلك سأقول شيئاً واحداً ثم نقفل هذا الموضوع نهائياً". ثم وجّهَت الكلام إلى السيد بنفورد قائلة: "ماذا دهاك؟ ماذا جرى بعد ظهر اليوم وجعلك بهذا المزاج؟".

"لا شيء. لا أذكر أن شيئاً قد حصل".

فقال أوتيس فجأة: "صحيح. لم يحدث شيء. حتى أنه لم يركض".

وفجأة تغيّر الجو، كأنما مسّت الجميع صدمة كهربائية. وظل فم الآنسة ريبا مفتوحاً، ونصف الشوكة داخل فمها. ولم أكن بعد قد فهمت، لكن الآخرين فهموا جميعاً. حتى بون فهم. وفي اللحظة التالية فهمت أنا أيضاً. وقالت الآنسة ريبا: "من الذي لم يركض؟" فأجاب أوتيس: "الحصان والعربة اللذان راهنّا عليهما في السباق. أليس كذلك يا سيد بنفورد؟" وفي هذه اللحظة لم يعد السكون مكهرباً بل مشحوناً بالكهرباء. وكانت الآنسة ريبا ما تزال تقاتل. لأن النساء رائعات، ولأنهن حكيمات إلى درجة تجعلهن يتحملن أي شيء، ويتركن الأحزان والمتاعب تدخل نفوسهن ثم تخرج من الجانب الآخر. وهن يستطعن تحقيق هذا، ليس لأنهن يرفضن تبجيل الألم الجسماني بصورة جدية وحسب، بل لأنهن لا يخجلن من فكرة الهزيمة. قالت:

"سباق خيل، في حديقة الحيوانات؟ في حديقة أوفرتون؟ فقال أوتيس:

"كلا. في ميدان السباق. التقينا في الحافلة برجل كان يعرف أي حصان وعربة سيكسبان، وغيّرنا رأينا ولم نذهب إلى حديقة أوفرتون. إلا أنهما لم يكسبا. أليس كذلك يا سيدي بنفورد؟ لكننا لم نخسر قدر

ما خسر الرجل، لم نخسر حتى أربعين دولاراً، لأن السيد بنفورد أعطاني خمسة وعشرين سنتاً كي لا أتكلم. لذلك نكون قد خسرنا تسعة وثلاثين دولاراً وخمسة وسبعين سنتاً. لكنني فوق ذلك كله فقدت الخمسة وعشرين سنتاً ثمناً لكأس البيرة. اليس كذلك يا سيد بنفورد؟".

وعاد السكون ثانية. وظل كل شيء هادئاً، حتى قالت الآنسة ريبا: "يا ملعون" ثم أضافت "أكمل عشاءك أولاً".

إلا أن السيد بنفورد لم يكن من النوع الذي يتراجع. كان أيضاً أبياً، من النوع الذي لا يعطي شيئاً أو يقبل شيئاً، شأن طيور الصيد. وبكل هدوء وضع السكين والشوكة متقاطعتين فوق الشريحة التي لم يكن قد قطعها، ثم طوى الفوطة ووضعها في الحلقة ونهض قائلاً. "استأذنكم جميعاً" وخرج دون أن ينظر إلى أحد، حتى إلى أوتيس. فقالت صغرى المرأتين الأخيرتين: "يا للغرابة، من كان يخطر هذا بباله؟" ولاحظت أن ميني في هذه الأثناء كانت تقف بباب المطبخ الذي كان نصف مفتوح.

وقالت الآنسة ريبا للفتاة: "اخرجي من هنا. اخرجا كلاكما". فوقفتا في الحال، وقالت الفتاة: "تعنين... نترك المكان؟" فقالت الآنسة كوري: "كلا. اخرجن من هنا فقط. وإذا كنتما لا تنتظران زواراً خلال الدقائق القليلة القادمة، لماذا لا تقومان بنزهة حول البيت؟" فنهضتا للحال. ثم نهضت الآنسة كوري وقالت لآوتيس: "اصعد إلى غرفتك وابق فيها". فقال بون. سيمر بباب غرفة الآنسة ريبا في طريقه. هل نسيت ربع الدولار؟" فقال أوتيس: "كان أكثر من ربع دولار. كان معي خمسة وثمانون سنتاً كسبتها لأنفقها ليلة السبت. وعندما عرف بأمر البيرة أخذها مني أيضاً". ونظرت إليه الآنسة ريبا قائلة: "إذن تخليتَ عنه مقابل خمسة وثمانين سنتا؟" فقالت الآنسة كوري: "إذهب

إلى المطبخ. ليعد إلى هناك يا ميني". فأجابت هذه: "حسناً. سأحاول أن أبقيه بعيداً عن الثلاجة. لكنه أسرع مني. "فقالت الآنسة ريبا: دعيه يبقى هنا. فات الأوان. كان يجب أن يُرسَل إلى مكان آخر، قبل أن ينزل من قطار أركنساس في الأسبوع الماضي".

وانتقلت الآنسة كوري إلى كرسي قرب الآنسة وقالت لها بلطف: لماذا لا تذهبين لمساعدته على حزم أمتعته؟ فأجابتها: من تتهمين! إنني أأتمنه على كل ما عندي، إلا على تلك الخيول! ووقفت فجأة بجسمها المتناسق الممتلئ، ووجهها الجميل المتجهّم، وشعرها الشديد الاحمرار. وقالت: "لماذا لا أستطيع الاستغناء عنه؟ لماذا لا أستطيع؟" فقالت لها الآنسة كوري: "مهلاً، مهلاً. تحتاجين إلى كأس. أعطي ميني المفاتيح ـ أوه، كلا، لا يمكنها الذهاب إلى غرفتك الآن". فقالت ميني: "ذهب. سمعت الباب الأمامي يغلق. لا يتطلب ذهابه وقتاً طويلاً. هكذا دائماً". فقالت الآنسة ريبا: "هذا صحيح. كنا أنا وميني هنا من قبل. أليس كذلك يا ميني؟ ثم أعطت ميني المفاتيح، فخرجت وعادت تحمل زجاجة جن. وشرب الجميع كأساً من الجن، حتى ميني (مع أنها أبت أن تشرب مع هذا العدد الكبير من البيض دفعة واحدة. فكانت في كل مرة تذهب إلى المطبخ وفي يدها كأس مملوءة، ثم تعود بعد قليل وقد أفرغتها). ولم نشرب، أنا وأوتيس. وهكذا عرفت دور السيد بنفورد.

كان قَيِّم البيت. وهذا لقبه واسمه الرسميان، مع أنهما غير مكتوبين. وكان لجميع البيوت المشابهة قيّم كالسيد بنفورد. كان هذا ضرورياً. ولكنه، في العالم الخارجي الغريب، حيث يعيش المحظوظون الذين لا يضطرون إلى العيش بهذه الطريقة القاسية المرهقة، كان له اسم آخر، أقسى وأكثر تحقيراً. فهو الذكر الوحيد، ليس في بيت عادي للنساء بل في بيت خيمت عليه هستيرياهن.

كان الوسيط غير المشكور، والقوة الواهية الوحيدة التي تلبس لباساً من الاحترام يكفي لفرض قدرٍ كافٍ من النظام على تلك الهستيريا، بحيث يجعل البيت قادراً على دفع الديون، أو على الأقل الحصول على الطعام. كان الوكيل الذي يجري الحسابات ويتسلم إيصالات الضرائب، والذي يتعامل مع موظفي تجار المشروبات والبقالين وتجار الفحم والعمال المكلفين بتنظيف المجاري أو المداخن والمزاريب، وانتزاع الأعشاب من الحديقة. كانت يده هي التي تدفع الرشوات إلى رجال القانون. وكان صوته هو الذي يخوض المعارك الخاسرة ضد مفوضي التخمين، ويشتم بائع الصحف يوم لا يُحضِر الصحيفة. ومن بين هؤلاء (أعني القيّمين) كان السيد بنفورد الأمير والمثال: كان رجلاً ذا أسلوب، وخلق ومثل أعلى. وخلال السنوات الخمس التي ظل فيها عشيق الآنسة ريبا، كان أكثر إخلاصاً من عدد كبير من الأزواج. وكان عيبه الوحيد المراهنة على خيول السباق. وقد عرف هذا الضعف وحاربه. ولكنه ما أن يسمع صوتاً يهتف: "انطلقت!" حتى ينهار بين يدي أي غريب معه دولار يراهن به.

وقالت ميني: "هو نفسه يعرف ذلك. ويشعر بالخجل لعجزه عن مقاومته. وهو يعني ما يقول حين يعدنا بالإقلاع عن هذه العادة، كما حصل قبل سنتين عندما اضطررنا لطرده". ثم قالت للآنسة ريبا: "تذكرين أي مجهود بذلنا بعد ذلك لاسترجاعه".

"أذكر. صبّي لنا مرة ثانية".

"لا أدري كيف سيتدبر أمره. فهو عندما يذهب لا يأخذ معه غير ما عليه من الثياب. وقبل انقضاء يومين يقرع الباب رسول يحمل لنا كل سنة منه الأربعين دولاراً". فاستدرك بون قائلاً: "تقصدين تسعة وثلاثين وخمسة وسبعين سنتاً". فأجابت:

"كلا. بل كل سنت من الأربعين دولاراً، حتى ربع الدولار ذاك لأنه يخص الآنسة ريبا. ثم ترسل الآنسة ريبا في طلبه، ولكنه لا يعود. وعندما وجدناه في السنة الماضية كان يعمل مع فرقة لمد خطوط المجارير. وقد اضطرت الآنسة ريبا أن تتوسل إليه راكعة على ركبتها..". فقاطعتها الآنسة ريبا قائلة: "هيا. كفى ثرثرة. صبي لنا الخمر لنشرب".

وبدأت ميني تصب. ثم توقفت فجأة وقالت: "ما هذا الصراخ؟"

وسمعنا صوتاً ضعيفاً آتياً من وراء البيت. فقالت لها الآنسة ريبا:

"هاتي الزجاجة، واذهبي للاستطلاع".

وأعطتها ميني الزجاجة وذهبت ثم عادت لتقول: "هناك رجل يقف في الساحة الخلفية وينادي السيد بون هوجانبك، ومعه شيء كبير".

وركضنا خلف بون عبر المطبخ إلى الرواق الخلفي، فرأينا في الظلام ظلين معتمين: ظل صغير وظل كبير، كانا يقفان وسط الساحة. وكان الظل الصغير ينادي: "بون هوجانبك! يا سيد بون هوجانبك! هالو. هالو". وظل ينادي حتى قاطعه بون صائحاً:

"اخرس! اخرس! اخرس!". كان ذلك ند وإلى جانبه حصان.

الفصل السادس

كنا جميعاً في المطبخ. وقال بون: "يا إلهي! استبدَلْتَ سيارة الريّس بحصان؟" واضطر لتكرار عبارته مرتين لأن ند كان ما يزال يحدق في سن ميني، أعني أنه كان ينتظر ظهورها ثانية. فلعل الآنسة ريبا قالت شيئاً، أو أنها هي نفسها قد تكلّمت ـ لا أدري. كل ما أذكره هو ومضة الذهب عندما انفرجت شفتاها في الضوء، وكأنما اكتسب السن من نور المصباح الضعيف، وسط الظلام، ألقاً جديداً وسحراً. كما اكتسبت ذلك عينا الحصان. وكان لهذا تأثيره في ند.

وكم صعقته تلك السن، كما صعقتني عندما رأيتها للمرة الأولى. لذلك عرفت أية تجربة كان يجتاز. لكن تجربته كانت أوسع. وقد أدركت هذا بشكل غامض، حتى في سن الحادية عشرة. كانت تجربتي مجرد شعور بالروعة، مجرد أُخذة وسرور. ولم أكن أستطيع أن أتجاوب مع تلك السن شأن ند. كان يخوض معركة الجنس الأزلية، وأمامه عدوّ جدير بما يمتلك من القوة. وكأنما استيقظ فيه التضامن القديم الغامض بين بني العرق الواحد، وتمثّلت له كاهنة كبرى تستحق أن يموت من أجلها. لذلك اضطر بون إلى تكرار ما قاله قبل أن ينتبه ند أو يسمع. ثم قال ند:

"أنت تعرف كما أنا أعرف، أن الريس لا يريد السيارة. لقد اشتراها لأنه اضطر إلى ذلك، كي يضع الكولونيل سارتوريس عند حدوده. إن الريس لا يحب غير الجياد ـ لا أعني أمثال تلك الخيول

الخائرة القوى، ذات الأسماء الشهيرة التي يملكها السيد موري ويبقيها عندك في ذلك الإسطبل، بل أعني الجياد الأصلية. وقد حصلت له على ما يريد. وحالما يرى هذا الحصان سيشكرني ويشكر المصادفات التي جعلتني أحصل له عليه قبل أن يأخذه غيرنا".

كنت في ما يشبه الحلم أو الكابوس. وحين نكون في حلم، نعرف ذلك. فإذا استطعت أن تلمس بالصدفة شيئاً صلباً، شيئاً حقيقياً، صحوت. وخطرت لي ولبون الفكرة نفسها. فتحركنا بسرعة، فاستوقفنا ند، إذ قرأ أفكارنا، فقال: "لا داعي لتفقدها. جاء وأخذها".

وجمد بون في منتصف خطوته وحدّق فيّ. كان كلانا يعاني شكاً رهيباً، بينما كنت أعبث في جيبي بمفتاح السيارة. وقال ند ثانية: "مهلاً. لم يحتج إلى مفتاح. إنه خبير. وقد أدّعى أنه يعرف كيف يمد يده خلف القفل ويديره من الخلف. ولم أصدّق حتى رأيته يفعل ذلك. لم يلاق أية صعوبة. حتى أنه رمى الرسن مع الحصان..".

وذهبنا مسرعَين باتجاه الباب الأمامي، تتبعنا الآنسة ريبا والآنسة كوري. كانت السيارة قد ذهبت. عندها فقط شعرت بوجود السيدتين. كانتا تراقبان بصمت، دون أن يبدو عليهما أي رد فعل، كأنما هما من عالم آخر، منفصل عني وعن بون وند وسيارة جدي والحصان.

ورجعنا إلى المطبخ حيث تركنا ند وميني. واستطعنا أن نسمع ند يقول: "المال الذي تتحدثين عنه أيتها الجميلة، إمّا أن يكون معي، أو أنني استطيع الحصول عليه. دعيني أجد لهذا الحصان مأوى وطعاماً، ثم نخرج معاً وندع هذه السن تتألق قبالة شيء ما، كصحن سمك أو لحم خنزير - إذا كانت تفضل لحم الخنزير.". فقاطعه بون قائلاً: "حسناً، اذهب واحضر الحصان. أين يعيش ذلك الرجل؟".

"أي رجل؟ ماذا تريد منه؟".

"أريد أن استعيد سيارة الرئيس. وسأقرر بعد ذلك إذا كنت سأرسلك إلى السجن هنا، أو أعيدك معي إلى جفرسون، وأترك للرئيس هذه المهمة".

"لماذا لا تكف لحظة عن الكلام وتصغي إلي؟ طبعاً أين يسكن الرجل. ألم أبادله وآخذ الحصان منه؟ لكن دعه وشأنه. لا نريده الآن. فنحن لن نحتاج إليه إلا بعد السباق، لأننا لم نحصل على حصان عادي، بل على حصان سباق. هناك في "بوسم" حصان آخر ينتظر كي يسابق هذا، حالما نصل إلى هناك. و "بوسم" تقع حيث يتقاطع خط سكة الحديد الآتي من جفرسون مع سكة حديد ممفيس.

فقال بون: "حسنا، هناك رجل في بوسم..". فقالت الآنسة ريبا: "أوه، تعني بارشم". فقال ند: "أصبت. هناك، حيث يجربون كلاب صيد الطيور. هذا الرجل يملك حصاناً كان قد تحدى به هذا الحصان في سباق من ثلاث جولات، وجائزة كل جولة خمسون دولاراً. ولكن مئة وخمسون دولاراً ليست شيئاً مهماً. سنسترد السيارة". فقال بون: "كيف؟ كيف ستستخدم الحصان لاسترداد السيارة من الرجل الذي أعطاك الحصان بدلاً منها؟" فأجابه قائلاً: "لأن الرجل لا يصدّق أن الحصان يستطيع أن يركض. لماذا تظنه بادله بشيء رخيص كالسيارة؟ لماذا لم يحتفظ بالحصان ويكسب لنفسه سيارة إن كان يرغب فيها، وهكذا يحصل على الاثنين: الحصان والسيارة؟".

"عجباً! لماذا؟".

"قلت لك إن هذا الحصان غُلب مرتين حتى الآن. ولم يعرف أحد كيف يجعله يجري. وطبيعي، بعد هذا، أن يعتقد الرجل أن

الحصان لن يركض هذه المرة، ما دام أنه لم يركض في المرتين السابقتين. لذلك سنراهنه على الحصان مقابل سيارة الرئيس. وما دامت السيارة عنده فسيسره أن يشترك في الرهان كي يربح الحصان أيضاً، لا سيما أنه لن يخاطر بأكثر من الوقوف عند نهاية الشوط حتى يصل الحصان فيمسك به ويربطه خلف السيارة ويعود به إلى ممفيس..".

وتكلمت الآنسة ريبا للمرة الأولى فقالت:

"عجيب!" فاستأنف ند كلامه قائلاً: "لأنه لا يعتقد أن باستطاعتي أن أجعل الحصان يجري". ثم وجّه كلامه إلى بون، فقال: "إن كنتَ عاجزاً عن جمع مبلغ إضافي من هؤلاء السيدات لإقناعه بالتخلي عن السيارة مقابل الحصان، فخير لك ألا تدع الرئيس بريست يراك بعد اليوم. وقد يتمكن هذا الحصان من حل المشكلة. لأنني حالما رأيته تذكرت... هه، هه، هه..".

فقال بون وسط ذلك الجو المخلوط بالهزل المرّ: "كيف تبادل سيارة الرئيس بحصان لا تستطيع أن تركضه، وتتدبر الآن أمر إعادة الحصان شرط أن أجمع مبلغاً كافياً..".

"دعني أكمل. هل ستدعني أكمل؟".

"هيا، أكمل. وأجعل كلامك..".

"تذكرت بغلاً كنت أملكه..".

وسكت الاثنان بغتة وتبادلا النظرات.. وتابع ند، بعد لحظة، بصوت لطيف حالم فقال: "هؤلاء السيدات لا يعرفن ذلك البغل. لسوء الحظ أن الريّس والسيد موري ليسا هنا لإخبارهنّ عنه".

كان باستطاعتي أنا أن أخبرهن، لأن ذلك البغل كان أسطورة من أساطير عائلتي، يعود إلى يوم كان أبي وند شابين، أي قبل أن ينتقل جدي من ماك كاسلن ليصبح صاحب بنك في جفرسون. وفي أحد الأيام، أثناء غياب ابن العم ماك كاسلن، قام ند بتعشير فرسه من حمار المزرعة. وبعد أن انتهت الضجة التي حدثت نتيجة لذلك وُلدَ البغل، أجبره ابن العم ماك كاسلن على شرائه منه مقابل عشرة سنتات تُحسم من أجره الأسبوعي مدة ثلاث سنوات. وفي تلك الفترة ظل البغل يغلب كل بغل ينازله في المنطقة على بعد أربعين ميلاً.

ولدتَ أنت متأخراً، لذلك لا تعرف شيئاً عن البغال. ولذلك سُقتُ لك هذا الإيضاح. إنّ البغل الذي يركض مسافة نصف ميل في الاتجاه الذي يختاره له راكبه، ولو مرة واحدة، يصبح أسطورة الجوار؛ أما البغل الذي يفعل ذلك باستمرار فيعتبر ظاهرة لا تُصدَّق. لأن البغل أذكى من أن يرهِق قلبه بالركض مسافة ميل طلباً للمجد كما يفعل الحصان. لذلك أصنِّف البغال في مرتبة تلي مرتبة الجرذان في الذكاء. بعد البغال تأتي القطط، ثم الكلاب، وأخيراً الخيول. هذا إذا كنت تقبل تعريفي للذكاء. وهو كما أراه، المقدرة على مجابهة البيئة، أي الاستسلام للبيئة وقبولها كما هي، مع المحافظة على شيء من الحرية الذاتية.

أصنِّف الجرذ في المرتبة الأولى. فهو يعيش في بيتك دون أن يساعدك على شرائه أو بنائه أو إصلاحه. وهو يأكل ما تأكل دون أن يساعدك على زرع طعامك أو حمله إلى البيت أو شرائه، ولا يمكنك أن تتخلص منه.

تأتي القطط في المرتبة الثالثة وتشترك مع الجرذ في بعض الصفات، لكنها مخلوقات أضعف من الجرذ وأتفه منه. القطة تتطفل عليك، تعيش معك، وتعتمد عليك اعتماداً كلياً في المأكل والمأوى،

لكنها لا تدافع عنك، ولا تحبك. وأصنف الكلب في المرتبة الرابعة، فهو شجاع. ووفي وثابت في ولائه. وهو أيضاً طفيلي عليك، يتضح عجزه بخدمتك ـ أعني تلقائياً وبسرور. إنه يقوم بأية لعبة مهما كانت سخيفة مقابل التربيت على رأسه. ويتضح عجزه أيضاً من كونه متملقاً. فهو يحط من كرامته وينتهكها من أجل تسليتك، ويحرك ذيله تذللاً، جواباً على رفسة. وفي المعركة يضحي بحياته من أجلك، ويموت جوعاً وهو يرقد فوق قبرك حزناً عليك. أما الحصان فيأتي في المرتبة الأخيرة. إنه كائن لا يستطيع التفكير في أمرين في وقت واحد. أبرز صفاته الجبن والخوف. يستطيع طفل أن يخدعه ويتملقه، فيجعله يحطم أضلاعه أو قلبه في الركض مسافة بعيدة وبسرعة كبيرة، أو في القفز فوق أشياء عريضة أو عالية. إن لم يُرْعَ كالطفل، يأكل حتى يموت. ولو كان عنده درهم واحد من ذكاء الجرذ لكان هو الخيّال.

لكن البغل يحتل المرتبة الثانية. أضعه في هذه المرتبة لسبب واحد، هو أنه باستطاعتك أن تشغله، لكن ضمن الأنظمة الصارمة التي حددها لنفسه. فهو لا يسمح لنفسه بالإفراط في الطعام. يجر عربة أو محراثاً لكنه لا يجري في سباق. لا يقفز فوق أي شيء إن لم يتأكد مسبقاً أنه يستطيع القفز فوقه. لا يدخل مكاناً إلا إذا عرف ضمنياً ماذا يوجد في الطرف الآخر. يعمل لك بصبر مدة عشر سنوات على أمل أن تتاح له فرصة رفسك ولو مرة واحدة. وبكلمة صريحة، إنه مرتاح من التزامات النسب ومسؤوليات النسل. لم يقهر الحياة وحسب بل الموت أيضاً، فهو لذلك خالد. إذا باد عن وجه الأرض اليوم، فإن التركيب البيولوجي الذي أنتجه بالأمس سينتجه بعد ألف سنة، دون تبديل أو تغيير، ودون أن يسري عليه قانون التطور. وهو يبقى مع ذلك حراً وقادراً على مواجهة وضعه. وهذا ما جعل بغل ند فريداً من نوعه، أو قلُ ظاهرة خاصة. ضع اثني عشر بغلاً في حلبة سباق،

وعندما تصدر كلمة "انطلق" فإن البغال تتجه في اثني عشر اتجاهاً مختلفاً، كما تنتشر حشرات خائفة على سطح مستنقع. والبغل الذي يصادف أن يكون اتجاهه باتجاه المرمح يكون الرابح حتماً.

لكن ذلك لم يكن ينطبق على بغل ند. وقد روى أبي أنه كان يجري كالحصان، إنما دون هوس الحصان واضطرابه واندفاعاته السريعة المخيفة التي تضني القلب. كان يركض وكأنه يؤدي عملاً: كان ينطلق بالسرعة الصحيحة الضرورية التي يكون قد قدّرها، وذلك وفقاً للمسة ند (أو صوته، أو أياً كانت الإشارة)، ولا تتبدل تلك السرعة حتى يكون قد تجاوز نهاية الشوط وأوقفه ند. ولم يعرف أحد حتى أبي الذي شاهد ند ـ بسرّ البغل وماذا كان ند يفعل له. وطبيعي أن الأسطورة قد نمت وتضخمت، أعني ذلك السحر الذي اكتشفه ند أو ابتدعه لجعل البغل يجري بصورة تختلف عن أي بغل آخر. لكننا لم نعرف ذلك السرّ قط، ولم يعتلِ البغل أيُّ خيّال آخر، حتى بعد أن بدأ ند يكبر ويزداد وزنه، حتى مات البغل عن اثنتين وعشرين سنة دون أن يُغلب. وما يزال قبره قائماً في ماك كاسلن حتى الآن.

هذا ما عناه ند وعرفه بون. وحدّق واحدهما في الآخر، ثم قال بون: "هذا غير ذلك البغل. هذا حصان". وقال ند: "لدى هذا الحصان نفس الحساسية التي كانت لدى ذلك البغل. ليس إلى حد كبير لكنه من النوع ذاته". وحدّق واحدهما في الآخر. ثم قال بون: "لنذهب ونلق عليه نظرة".

وأضاءت ميني مصباحاً، فحمله بون وذهبنا إلى الساحة الخلفية ترافقنا ميني والآنسة كوري والآنسة ريبا. كان القمر قد بدأ يرتفع وصار بإمكاننا أن نرى. وكان الحصان مربوطاً تحت شجرة خروب في الزاوية، فتوقدت عيناه لدى اقترابنا ونفخ بأنفه، وسمعناه يحرك رجله بعصبية.

توقفنا، ورفع بون المصباح عالياً. وتوقدت عينا الحصان ثانية بفتور وعصبية عندما سار نـد باتجاهه وظـل يكلمـه إلى أن استطاع أن يلمس كتفيه ويربت عليهما، وظل يكلمه حتى استطاع أن يمسك بالرسن. ثم قال لبون: "لا تقرب المصباح منه. ابتعد وارفعه حتى يمكن السيدات أن يرين حصاناً. وعندما أقول حصاناً، فإنني أعني حصاناً حقيقياً. ليس تلك الكدائش التي تسمّونها في جفرسون خيولاً. فقال بون:

"كفّ عن الكلام واحضره لنراه".

"أنك تراه الآن. ارفع المصباح".

لكنه احضر الحصان وحركه قليلاً. نعم، ما زلت أذكره: كان عمره ثلاث سنوات. وكان كستنائي اللون، صغيراً، لم يبلغ أقل من ستة عشر شبراً، ذا عنق طويل للتوازن، وكتفين منحدرين يساعدان على السرعة، ومآبض كبيرة من أجل الاندفاع.

ومع أنني كنت آنذاك في الحادية عشرة، فقد تبيّن لي أنني كنت أفكر في ما كان بون يفكر فيه. إذ أدار نظره بين الحصان وند. ثم تكلم بصوت هامس: "هذا الحصان..". لكن الآنسة كوري قاطعته قائلة: "انتظر". صحيح، نسينا أوتيس. هذا شيء آخر عنه، دائما نتنبه إلى وجوده قبل فوات الأوان بلحظة واحدة فقط. وقالت الآنسة ريبا موجهة الكلام إليه: "نعم، اخرج من هنا". إن النساء رائعات حقاً. ثم قالت الآنسة كوري: "أدخل إلى البيت يا أوتيس فقال:

"حاضر. تعال يا لوشيوس".

"كلاً. أنت فقط. اذهب الآن. يمكنك أن تصعد إلى غرفتك".

"ما زال الوقت مبكراً. ولم أنعس بعد". فقالت الآنسة ريبا:

"لن أقول لك ذلك مرتين".

"وانتظر بون إلى أن دخل أوتيس إلى البيت. ثم استأنف حديثه مع ند بذلك الصوت الفاتر الرتيب، ثم قال هامساً: "هذا الحصان مسروق!" فأجاب ند: "وماذا عن تلك السيارة؟".

قلت لك إن النساء رائعات. فقد قالت الآنسة ريبا بصوت منخفض لكن بسرعة: "يجب أن تخرجاه من المدينة". فقال ند: "هذا ما فكرت فيه عندما أحضرته إلى هنا. حالما أتناول عشائي سأبدأ الرحيل به إلى بوسم".

فقال بون:

"أتعرف كم تبعد "بوسم"، وفي أي اتجاه؟ فأجاب ند: هل هذا مهم؟ عندما غادر الرئيس البلدة دون أن يأخذ السيارة معه، هل اهتممت بالمسافة إلى ممفيس؟" فقالت الآنسة ريبا: "ادخلا إلى البيت. هل يمكن أن يراه أحد هنا؟" فأجاب ند: "أبداً. لقد اهتممت بهذا الأمر". ثم ربط الحصان إلى الشجرة وصعدنا الدرج الخلفي تتقدمنا الآنسة ريبا، وهي تقول: "إلى المطبخ. هذا وقت مجيء الزبائن". وهناك قالت لميني: اجلسي في غرفتي كي تفتحي الباب حين يقرع. إذا سأل أحد عن الآنسة كوري، قولي إن صديقاً لها من شيكاغو موجود في المدينة". فأردف بون قائلاً:

"إذا لم يصدقوكِ، قولي لهم أن يجتازوا الممر ويقرعوا الباب الخلفي".

"بحق المسيح، أليس عندك متاعب تكفيك؟ إذا كنت لا تريد أن تستقبل كوري زبائن، فلماذا لا تشتريها مرة واحدة بدلاً من استئجارها مرة كل ستة أشهر؟" فقال بون:

"حسناً، حسناً". ثم تابعت الآنسة ريبا قائلة لميني: "تفقدي كل

شخص في البنسيون". فقالت كوري. سأهتم به بنفسي. فقالت الآنسة ريبا. "دعيه يبقَ في غرفته. لقد سبّب لي اليوم متاعب تكفيني". وخرجت الآنسة كوري، وأقفلت الآنسة ريبا الباب ووقفت تنظر إلى ند. ثم قالت:

"هل تعني أنك ستقود الحصان إلى بارشم ماشياً على قدميك؟".

"أجل؟".

"هكذا تعرف كم تبعد بارشم"؟.

"وهل لذلك أهمية؟ لا تهمني معرفة المسافة إلى بوسم. لا أريد سوى بوسم. لهذا السبب غيرت رأيي بشأن قيادته، فقد تكون بعيدة. وقلت بما أنك تعملين في الاتصالات.".

"ما تعني؟ أنا أدير بنسيوناً. كل شخص مهذب يدعوه كذلك".

"أعني قد يكون لدى أحد معارف السيدات عندك حصان ركوب، أو حصان حراثة أو على الأقل بغل يمكنني أن أمتطيه، بينما يمتطي لوشيوس المهر. بهذه الطريقة نذهب إلى بوسم. لأن الحصان لن يجري ميلاً واحداً فقط بعد غد، بل لابد أن يجتاز المسافة ثلاث مرات، ويجب أن يسبق الحصان الآخر مرتين على الأقل".

"أي شخص معه حصان يستطيع أن يجد حصان سباق أينما كان. يكفي أن يكونا قادرين على الصمود تلك المسافة".

"هل يمكنك أن تجعل هذا الحصان يصمد تلك المسافة؟".

"نعم".

"هل تستطيع أن تجعله يجري؟".

"نعم".

"ما أدراك أنك تستطيع ذلك؟".

"جعلت ذلك البغل يجري!".

"أي بغل؟" وهنا دخلت الآنسة كوري وأقفلت الباب خلفها. فقالت لها الآنسة ريبا: "اقفليه جيداً". ثم استأنفت حديثها مع ند قائلة: "حسناً، اخبرني عن ذلك السباق". وتأملها ند طوال ربع دقيقة، ثم قال لها:

"تبدين أحياناً كمن يريد أن يتكلم كلاماً معقولاً". فقالت: "جرّبني!" فقال: "حسناً. هناك رجل غني أبيض لا أذكر اسمه، لكنني أستطيع أن أجده، لديه حصان أصيل آخر، كان قد سابق هذا الحصان مرتين في الشتاء الماضي، فغلبه مرتين. وقد استطاع ذلك الحصان أن يغلب هذا في الجولة الأولى، بشكل جعل صاحبه يراهن بضعف المبلغ في الجولة الثانية. وعندما يصل هذا الحصان إلى "بوسم" ليشترك في سباق آخر، سيكون ذلك الرجل الغني الأبيض أكثر من راغب في إشراك حصانه في السباق".

"حسناً، تابع".

"هذا كل شيء. استطيع أن أجعل هذا الحصان يجري ولا أحد يعرف هذا حتى الآن. لذلك إذا رغبتن في جمع بعض المال استطعنا، أنا ولوشيوس والسيد هوجانبك أن نحمله معنا أيضاً".

"هل يشمل هذا الشخص الذي أخذ السيارة؟ أعني هل هو ممن لا يعرفون أن باستطاعتك أن تجعله يجري؟".

"نعم".

"إذن لماذا لم يوفر المتاعب على الجميع ويرسلك مع الحصان إلى بارشم إذا كان يعتقد أن كل ما عليه أن يفعله ليكسب الحصان

والسيارة هو دخول السباق فقط؟" وخيّم الصمت. كانا ينظران، واحدهما إلى الآخر. ثم قالت الآنسة ريبا:

"هيا. عليك أن تقول شيئاً. ما اسمك؟".

"ند وليام ماك كاسلن، جفرسون، ميسيسيبي!".

"ماذا؟".

"لعله لا يقوى على ذلك". وهنا قال بون: "عجيب؟ نحن كذلك لا نقوى..". فقالت له الآنسة ريبا: "اخرس"! ثم قالت لند:

"سمعتك تقول إنه غني".

"كنت أقصد الشخص الذي بادلته السيارة بالحصان".

"هل اشترى الحصان من الرجل الغني؟".

"كان الحصان معه".

"هل أعطاك ورقة ما عندما تبادلت معه"؟.

"أخذت الحصان".

"لا تعرف القراءة، أليس كذلك؟".

"أخذت الحصان"!.

فحدقت فيه الآنسة ريبا، ثم قالت: "حصلت على الحصان. لنفرض أنك أخذته إلى بارشم. قلت إن لديك طريقة تجعله يجري. هل ستتمكن تلك الطريقة من أخذ السيارة أيضاً إلى بارشم؟".

"استعملي عقلك. أنتِ بعيدة النظر. إذ أدركت أكثر من جميع الموجودين هنا. إن الأشخاص الذين بادلتهم..". فقاطعته الآنسة ريبا قائلة: أشخاص؟ قلت رجلاً". لكن ند ظل متابعاً: "... واقعون في

ورطتنا ذاتها. عليهم أن يعودوا إلى بيوتهم أيضاً عاجلاً أو آجلاً". فقالت: "إن كان اسمه ند وليام ماك كاسلن، أو بون هوجانبك، أو أياً من الأشخاص الذين بادلتهم بالحصان، لن يكفيه أن يعود بالسيارة وحدها أو الحصان وحده، بل عليه أن يحصل على كليهما. اليس كذلك؟" فقال ند: "ليس تماماً. أليس هذا ما كنت أود أن أقوله لك مدة ساعتين؟" فحدقت فيه الآنسة ريبا، وتنفست بهدوء ثم قالت:

"إذن ستأخذه إلى بارشم سيراً، بينما يكون كل شرطي في غرب تنسي يفتش في كل طريق تتفرع من ممفيس عن حصان" - وهنا نادتها الآنسة كوري، فيما تابعت عبارتها - "منذ فجر صباح غد". ولكن ند كان واثقاً من أن الوقت قد فات على وقوعه في قبضة الشرطة. وقالت ريبا للآنسة كوري: "وماذا عن سائق القطار ذاك؟" وحين سألتها من تعني، أجابت بأنه ليس سائق قطار بل رجل إشارة. فقالت ريبا: "حسناً، رجل إشارة" ثم قالت لبون: "إنه أحد معارف كوري..". ثم التفتت إلى ند وقالت: "يبدو أن كلمتك هذه مناسبة. عم أمه يعمل نائب رئيس أو ما شابه في الخط الحديدي الذي يمر في بارشم..". فقالت الآنسة كوري مصححة: (خاله مفتش.) فقالت الآنسة ريبا "مفتش، أي أنه يقوم بوظيفته حين لا يكون في ميدان السباق هنا أو في أية من المدن التي تمر فيها قطاراته، بينما يشق ابن أخته طريقه صعوداً وفي فمه ملعقة من فضة، ويستمر ذلك ما دام لا يعض عليها بشدة تلفت الانتباه. هل فهمتم ما أعني؟" فقال بون:

"عربة البضاعة". فقالت الآنسة ريبا:

"نعم، هكذا يصلون إلى بارشم ويصبحون بعيدين عن الأنظار قبل طلوع نهار الغد". فقال بون:

"لكن حتى عربة البضاعة تكلف مالاً. وعلينا أن نختبئ هناك حتى موعد السباق، وندفع مئة وخمسين دولاراً مقابل الاشتراك في السباق، ولا أملك غير خمسة عشر أو عشرين دولاراً". ثم نهض وقال لند: "اذهب واحضر الحصان. أين بيت الرجل الذي أعطيته السيارة؟" فقالت الآنسة ريبا: "اجلس. عجيب أمرك. ستقع في ورطة عندما تعود إلى جفرسون. ومع ذلك فأنت تتلهى بعدّ البنسات". ثم التفتت نحو الآنسة كوري وقالت: "هل سام في البلدة الليلة؟".

"نعم".

هل يمكنك العثور عليه؟".

"نعم". فقالت الآنسة ريبا لبون أن يخرج من هناك ويتمشى مدة ساعتين، أو يذهب إل بيت بيردي وات إذا شاء. ثم استحلفته بالله أن لا يسكر. وقالت: "من أين نحسب أن كوري تأكل وتدفع الإيجار عندما تكون حضرتك في مستنقعات ميسيسيبي منشغلاً بسرقة السيارات وخطف الأولاد؟" فقال بون "لن أذهب إلى أي مكان". ثم أمر ند بإحضار الحصان. فقالت الآنسة كوري: "لست مضطرة إلى استقباله، يمكنني أن أكلمه بالتلفون". لم تقل الآنسة كوري هذا القول غروراً أو خجلاً، بل رصانة. كانت أكبر من أن يناسبها الغرور أو الخجل. أما الرصانة فكانت تناسبها تماماً. وسألتها الآنسة ريبا إذا كانت متأكدة، فأجابت نعم. فقالت لها أن تتلفن إذن. وقال بون "تعالي إلى هنا" فتوقفت الآنسة كوري، فقال ثانية:

"قلت تعالى إلى هنا". عندئذ اقتربت دون أن تكون في متناول يد بون. وفجأة لاحظت أنها لم تكن تنظر إليه مطلقاً، بل كانت تنظر إليّ. ولهذا تمكن بون أن يمد يده فجأة ويمسكها من ذراعها قبل أن تتمكن من تجنبه، وجذبها إليه بينما راحت تحاول التملص منه، وهي ما تزال تنظر إليّ. ثم قالت له:

"اتركني. يجب أن أتلفن". فقال بون:

"طبعاً، طبعاً. هناك وقت لذلك". وجذبها إليه، فانحنت عليه وقبلته باستسلام مَن فشل في إظهار قوته وحصانته، ثم نقرته على قمة رأسه وهي تنسحب. لكنه أنزل يده بسرعة وأمسك بمؤخرتها على مرأى من الجميع، بينما راحت تجاهد للتخلص منه. ونظرت إلي ثانية. كان في عينيها شيء كالتوسل ؟ شيء يمتزج فيه الخجل بالحزن، لست أدري - وصعد الدم بطيئاً إلى خديها. واستمر ذلك دقيقة. كانت ما تزال تحاول أن تتصرف كسيدة. حتى أنها كانت تجاهد للتخلّص كسيدة أيضاً. لكنها كانت أكبر وأقوى من أن يتمكن أي شخص أن يمسك بها بيد واحدة، وهكذا أفلتت منه. وقالت له: (ألا تخجل من نفسك؟) ثم قالت الآنسة ريبا: "ألا يمكنك أن تنتظرها حتى تجري مكالمة هاتفية واحدة؟ إذا كنت تريد المحافظة على عفتها لم لا تُسكنها في مكان خاص بها حيث تبقى عفيفة وتحصل على قوتها؟" ثم قالت للآنسة كوري: "اذهبي وتلفني. صارت الساعة التاسعة".

كنا قد تأخرنا فعلاً. فبدأ المكان يصحو - بدأ محموماً كما تقولون هذه الأيام، لكن بشكل محتشم: لم تكن هناك ضوضاء، أو موسيقى، أو حتى ابتهاج. وكان شبح السيد بنفورد ما يزال مسيطراً، إذ لم يكن قد عرف بغيابه سوى سيدتين، ولم يفتقده الزوار بعد. وسمعنا الجرس وصوت ميني الخافت عند الباب الأمامي، ووقع أقدام النساء وهن يهبطن السلم. وتناهت إلينا جلبة الضيوف عندما فتحت الآنسة كوري الباب. وبدا أن الطفل أبٌ للرجل وأمٌّ للمرأة. وكنت في جفرسون قد حسبت أن طراوة عودي، وبراءة الطفولة، هما اللتان جعلتا اللا فضيلة تلاقي فيّ عدواً ضعيفاً لا يستحق حتى لقب عدوّ. لكن مقاومتي دامت ما لايقل عن ثلاث ساعات، بين

اللحظة التي علمت فيها بوفاة جدي ليسيب حتى اللحظة التي تحرك فيها القطار وأدركت فيها أن مفتاح سيارة جدي صار بين يدي بون لمدة أربعة أيام على الأقل. وهاهم في هذا البيت قد اختبروا مكائد اللافضيلة (أو الفضيلة) ومناوراتها بتجاربهم اليومية. وقد اشتدّ عودهم، فلم يصمدوا، مع ذلك، ثلاثين دقيقة. هؤلاء الذين لم يكونوا قد عرفوا بوجود ند أو الحصان قبل ثلاثين دقيقة، هذا فضلاً عن الغريب الذي خرجت الآنسة ريبا وهي واثقة من التغلب عليه بلا سلاح غير التلفون.

وعادت ميني وأخذت المصباح وذهبت إلى السقيفة الخلفية. ولاحظت أن ند أيضاً لم يكن في الغرفة بل كان في المطبخ يتحدث إلى ميني. وفجأة سمعنا صرخة سريعة قوية أطلقتها ميني، ثم سمعنا وقع أقدامها. ودخلت الغرفة وهي تلهث. ثم تبعتها الآنسة كوري وهي تقول برصانة: "حسناً، إنه آت. وسيساعدنا. إنه..". فهب بون مقاطعاً: "لن يساعدني أنا هذا اللعين". فقالت له الآنسة ريبا: "انصرف إذن. أخرج من هنا. ماذا ستفعل؟ هل ستعود إلى ميسيسيبي ماشياً أم على الحصان؟ هيا، اجلس". ثم أشارت إلى الآنسة كوري أن تسرد التفاصيل فقالت: "إنه ليس سائق قطار، بل رجل إشارة. ولو أنه يلبس بزة كالتي يلبسها السائق. وهو سيساعدنا".

أرأيت؟ العالم كله يحب العاشق. هكذا قالت الأوزة التي ترى أعماق قلب الإنسان. لكن المؤسف أنه لا يعرف شيئاً عن الخيول. ويبدو أن العالم كله يحب أيضاً حصان السبق المسروق. هكذا قالت لنا الآنسة كوري. وكان أوتيس موجوداً هذه المرة. كان فيه شيء غريب لم ألاحظه إلا عندما أوشك الأوان أن يفوت. قال: "علينا أن نشتري على الأقل تذكرة واحدة إلى بوسم ليكون لدينا.". فقاطعته الآنسة ريبا: "اسمها بارشم". فتابع كلامه قائلاً: "حسناً. ليخصص لنا

مكان نضع فيه الحصان على أنه أمتعة. سيحضر سام التذكرة وقسيمة الأمتعة معه. وسيتم كل شيء على ما يرام. وستكون هناك مقطورة فارغة واقفة على خط فرعي، يعرف سام مكانها، فنضع الحصان في زاوية منها وندق حوله بعض الألواح الخشبية لئلا ينزلق. وسيُعِدّ سام بعض الألواح والمسامير. إن المجازفة الوحيدة، هي في نقل الحصان من هنا إلى المقطورة". وهنا توقفت عن الكلام ونظرت إلى ند فقال لها:

"ند وليام ماك كاسلن جفرسون ميسيسيبي". وهنا استأنفت كلامها قائلة:

"... من غير المناسب أن يسير ند في الشارع، وإن كان شارعاً خلفياً، في مثل هذا الوقت المتأخر وهو يقود حصاناً. لأن أول شرطي يلتقي به سيوقفه. لذلك سيُحضر سام بطانية ويلبس بزته الرسمية ونقود الحصان، أنا وهو وبون، إلى المحطة ولن يلاحظ أحد شيئاً. أوه، نعم، سيقوم قطار الركاب..". فقاطعتها الآنسة ريبا قائلة: "يا إلهي. مومس وسائق قطار بولمان، وجرذ من مستنقعات ميسيسبي بحجم صهريج الماء، يقودون حصان سباق في ممفيس، وفي منتصف ليلة الأحد، ولا يلاحظ ذلك أحد؟" فأوقفتها الآنسة كوري عن الكلام إلا أنها تابعت قائلة: "أوه. لو أنه أتى من ميسيسبي مع بون في زيارة ودية لكان في وسعنا أن نحميه. أما أن يستخدموا هذا المكان كمركز رئيسي ويسرقوا السيارات والخيول، فشيء آخر، وعليه أن يجازف مثل غيره. ماذا قلت عن القطار؟" فقال ند: صحيح. إن قطار الركاب الذي يغادر واشنطن في الساعة الرابعة صباحاً سيأخذ العربة، فنصل كلنا إلى بوسم قبل طلوع النهار". فصاحت به الآنسة ريبا:

"بارشم، لا بوسم، أيها اللعين! "فقال:

"عفواً، ألست آتية أنت أيضاً؟"

الفصل السَابع

وهذا ما فعلناه، مع أن سام أراد أن يرى الحصان أولاً. فقد دخل من الجهة الخلفية عبر المطبخ حاملاً بطانية الحصان. وكان يلبس بزّته الرسمية وكان تقريباً في ضخامة بون.

هكذا وقعنا جميعنا مرة ثانية في الساحة الخلفية. كان ند يحمل المصباح هذه المرة ولم يكن يوجِّه ضوءه إلى الحصان بل إلى سترة سام ذات الأزرار النحاسية، وقميصه وقبعته المسطحة التي كتب على مقدّمتها بأحرف ذهبية. والواقع أنني انتظرت أن يسبّب مشكلة بشأن سام والحصان، لكنني كنت مخطئاً. وقال ند: "من، أنا؟ لماذا؟ لن تكون الحالة أفضل، إذا قام شرطي بقيادة ذلك الحصان بنفسه إلى بوسم". وعلى العكس، كان بون هو الذي سيسبب المشكلة. ونظر سام إلى الحصان قائلاً:

"هذا حصان ممتاز، كما يبدو لي". فرد بون قائلاً: "طبعاً، ليس له صفارة أو جرس. بل ليس له حتى مصابيح أمامية. استغرب كيف يمكنك أن تراه".

"ماذا تعني بذلك؟"

"لا أعني شيئاً غيرَ ما قلتُه. أنت اختصاصيّ بالخيول الحديدية. قد يكون من الأفضل أن تذهب إلى المحطة دون أن تنتظرنا".

فقالت الآنسة ريبا:

"ألا ترى أنه يحاول أن يساعدك؟ إنه يورط نفسه كي لا يكون العمدة أول حيوان حيّ تقابله عند عودتك إلى بلدك. إنه هو الذي يجب أن يدعوك إلى الانصراف من هنا مع الحصان. أعتذر". فقال بون: "حسناً. لننس ذلك".

وتكلم سام فقال: "أيتها السيدتان، هل تريدان أن يذهب هذا الحصان إلى بارشم الليلة أم لا ؟" فقالت الآنسة كوري، وهي تنظر إليّ وإلى أوتيس: "يجب أن تكونا في الفراش". فوافقتها الآنسة ريبا، قائلة: "طبعاً. ذلك يحدث في اركنساس أو في ميسيسيبي أو حتى في مكان أبعد من ذلك لو ترك الأمر لي. لكن فات الأوان الآن. لا يمكنك أن ترسلي أحدهما لينام دون الآخر، والصبي الآخر هو رفيق بون، وهو يملك جزءاً من الحصان". وفي آخر لحظة لم تستطع الآنسة ريبا أن تذهب هي أيضاً. ولم يكن بالإمكان الاستغناء عنها وعن ميني فقد أصبح البنسيون يعجّ بالزبائن.

هكذا وضع ند وبون البطانية على الحصان. ثم راقبنا من الرصيف ـ أنا وند وأوتيس ـ بون وسام... اللذين لم تكن بينهما صداقة بل هدنة، وبينهما الآنسة كوري، وهما يقودان الحصان وسط الشارع، ليلة الأحد الهادئة. كانت هناك أنوار قليلة ـ أنوار البنسيونات فقط (أصبحت لي خبرة الآن ـ لم أكن خبيراً تماماً، لكنني أصبحت ملمّاً بهذا الأمر. فقد كنت أعرف المكان المشابه لبنسيون الآنسة ريبا حالما أراه). وكانت الحانات كلها معتمة. لم أكن أعرف الحانة بمجرد المرور بها، ولكن ند أخبرنا، أنا وأوتيس، أنها حانات، وأنها مقفلة. كنت أتوقع ألا تكون مقفلة أو مفتوحة. تذكر أنني كنت في ممفيس (أو في شارع كاتالبا) قبل أقل من ست ساعات دون أن يكون أبي أو أمي معي ليوجهاني. كنت أتقدم بسرعة.

وقال ند: "هذا يسمّى القانون الأزرق، فأجاب: "لا أعرف إلا إذا كان يعني أنهم صرفوا كل ما لديهم من مال ليلة السبت ولم يبق مع أي منهم ما يكفيه الآن". وقال أوتيس: "هذا بالنسبة للحانات فقط. بذلك لا يتضرر أحد وإذا لم يبيعوه ليلة الأحد يمكنهم الاحتفاظ به وبيعه إلى شخص ما. أو إلى الأشخاص أنفسهم، ليلة الاثنين. لكن الوصوصة غير ذلك. يمكن استثمارها الليلة ثم تعود لاستثمارها غداً. لا تخسر شيئاً وإذا جربوا تطبيق ذلك القانون الأزرق على الوصوصة فإن الشرطة ستتدخل وتمنعهم".

وسألت: "ما هي الوصوصة؟".

فقال ند: "أنت تعرف أشياء كثيرة، أليس كذلك؟ لا غرابة في أن أركنسو لا تسعك. إذا كان جميع الناس هناك يعرفون مقدار ما تعرف في سنك، فإن تكساس لن تسعهم عندما يصبحون في سن الحادية والعشرين!" وكررّت قائلاً: "ما هي الوصوصة؟" فردّ ند، متابعاً بصوتٍ أعلى: "فكِّر في تقديم بعض الطعام إلى ذلك الحصان، كي تستطيع إبقاءه هادئاً حتى إيصاله إلى بوسم حيث نضعه على ذلك القطار". ثم وجه كلامه إلى أوتيس: "ربما احتجنا إلى دلو ماء وصابون كي تأخذك عمتك وتغسل لك فمك، أو ربما إلى أقرب عصا".

ثم قابلنا شرطياً. أعني أن أوتيس رأى الشرطيَّ قبل أن يرى الشرطيُّ الحصان. كان الشرطي يعرف الآنسة كوري. وبدا أنه يعرف سام أيضاً. وقال الشرطي: "إلى أين تأخذونه؟ هل سرقتموه؟" فردّ سام: "استعرناه" ولم يتوقفوا عن السير. وتابع سام قائلاً: "ركبناه لحضور الصلاة الليلة وها نحن نعيده الآن". وتابعنا سيرنا. وكان أوتيس يشتم. وقال: "لم أر ذلك من قبل. ما رأيت شرطياً يكلِّم شخصاً من قبل إلا كان هذا الشخص يعطيه شيئاً. فميني والآنسة ريبا

تبقيان زجاجة بيرة في انتظاره، قبل أن يدخل، على الرغم من أن الآنسة ربيا تشتمه قبل أن يأتي وتشتمه بعد أن يذهب. ومنذ مجيئي إلى هنا في الصيف الماضي ومعرفتي بهذا الأمر، اذهب كل يوم إلى ساحة المحاكم حيث يعرض ذلك الإيطالي التفاحَ والفستق، فأرى شرطياً يأتي إلى هناك، ودون أن يلاحظه أحد يأخذ تفاحة وقبضة فستق". كان يجري تقريباً ليلحق بنا، فقد كان أصغر مني بكثير. أعني أنه لم يكن يبدو أصغر بكثير إلا عندما تراه يجري للّحاق بنا. كان فيه شيء غريب. فأنت مثلاً تقول لنفسك "سأكون في السنة الآتية أكبر مما أنا الآن"، لمجرد أن ذلك أمر طبيعي لا مفرّ منه، ولا يهمّ ما إذا لم تكن تتصور كيف ستبدو حينئذ. وينطبق الشيء نفسه على بقية الأطفال. لكن بالنسبة لأوتيس، فهو يبدو كأنما وصل قبل سنتين أو ثلاث إلى حيث لن نصل في السنة الآتية، ومنذ ذلك الحين وهو يعود إلى الوراء. كان ما يزال يتكلم. "لذلك فإن الشيء الوحيد الذي فكرت فيه حينئذ هو أن أكون شرطياً. لكن ذلك التفكير لم يدم طويلاً. إنه عمل محصور جداً".

فسأل ند: "محصور بماذا؟" أجاب أوتيس: "بالبيرة والتفاح والفستق. من يضيع وقته على البيرة والتفاح والفستق؟" ثم شتم ثلاث مرات. وقال: "هذه هي البلدة حيث يوجد المال. المال. النقد. إنني أفكر بالوقت الذي أضعته سُدىً في أوكنساس قبل أن يخبرني أحد عن ممفيس. تلك السن. كم تظن أن تلك السن وخذها تساوي؟ لو أنها دخلَت المصرف واقتلعتْها ووضعتها على الطاولة وقالت اصرفها لي؟"

فقال ند: "نعم. أذكر صبياً مثلك في جفرسون كان يفكر في المال دائماً. أتعرف أين هو الآن؟" وردّ أوتيس: "هنا في ممفيس، إن كان عنده أي إدراك". فقال ند: "لم يتمكن من الوصول إلى مكان بعيد كهذا. أبعد

مكان تمكّن من الوصول إليه هو إصلاحية الولاية في بارشمان. وتبدو أنت، من النهج الذي تسلكه، أنك ستنتهي هناك أيضاً".

"لكن ليس غداً. وربما ليس اليوم الذي يليه. ليس هناك من شرطيّ يمر دون أن توضع في يده زجاجة بيرة أو تفاحة أو قبضة من فستق قبل أن يطلبها. أحياناً عندما أفكر في الأمر أشعر بأنني أحب أن أترك".

"تترك ماذا؟ تترك من أجل ماذا؟"

"أترك فقط. عندما أتذكر السنين كلها التي قضيتها في تلك المزرعة في اركنساس، بينما تقع ممفيس هنا عبر النهر دون أن أعرف بوجودها. كيف يكون الأمر لو أنني عرفت عندما كنت في الرابعة أو الخامسة من عمري ما انتظرت حتى السنة الماضية لأعرفه؟ أحياناً لا أريد إلا أن أترك وأذهب. لكنني أظن أنني لن أفعل ذلك. قد أتمكن من تعويضه. كم تعتقدون أنكم ستربحون من ذلك الحصان؟"

فقال ند: "لا تفكر في ذلك الحصان. والتعويض الذي تحتاج إليه هو أن تعود في ذلك الشارع إلى حيث ستنام الليلة، وتذهب إلى الفراش". وتوقّف قليلاً وهو يلتفت نصف التفاتة، ثم تابع قائلاً: هل تعرف طريق العودة؟" فردّ أوتيس: "لا شيء هناك، جربت ذلك من قبل. إنهم يراقبون جيداً. الحال هنا غيرها في أركنساس عندما كانت عمتي كوري عند العمة فيتي وكان عندي ذلك الثقب أوصوص منه. إذا كنتَ استبدلتَ السيارة بهذا الحصان فلا بد أنك تعتقد بكسب مئتين على الأقل..". ودار ند هذه المرة دورة كاملة. فقفز أوتيس هارباً وهو يشتم ند ويدعوه زنجياً – هناك شيء علمني إياه أبي وجدي من قبل وهو أن السيد المحترم لا يشير إلى لون الشخص الآخر أو إلى دينه. وقلت: هيا بنا. إنهم يتركوننا.

كانوا يسبقوننا الآن بجادتين، ويدورون حول منعطف. فركضنا أنا وند لنلحق بهم. وتمكنّا من ذلك بعد جهد. كانت المحطة أمامنا وكان سام يتكلم مع شخص آخر يلبس ثوب عمل متسخاً ويحمل فانوساً ـ كان عامل تحويل، عامل سكة حديد على أي حال. وقال ند: هل ترى ما أعني؟ هل يمكنك أن تتصور شرطياً يرسل شخصاً ومعه فانوس ليرينا الطريق؟ ويمكنك أن ترى ما أعني أيضاً: العالم كله (أعني بالنسبة إلى حصان سباق مسروق). كل من يخدم الفضيلة يعمل منفرداً ودون مساعدة، لكن حين تبيع نفسك إلى اللافضيلة ستجد أن الجوار كله مملوء بالمتطوعين لمساعدتك. يبدو أن سام كان يحاول أن يُقنع الآنسة كوري بالانتظار في المحطة معي ومع أوتيس، بينما يقومون هم بإيجاد عربة سكة الحديد وتحميل الحصان عليها. كما اقترح أن يقوم بون بحمايتنا بسبب ضخامته وعمره مثبتاً أنه مُحب وواثق.

ولكن الآنسة كوري رفضت وكانت تتكلم باسمنا جميعاً. لذلك تبعنا الفانوس وعبرنا بوابةً إلى مكان مليء بأرصفة التحميل والخطوط. كان على ند الآن أن يتقدم ويمسك الرسن ليهدئ الحصان وهو يحدثّه بصوت خافت ويقوده بين عربات الركّاب ثم في ممر ضيق يؤدي إلى مستودع كبير مُعتم أمامه رصيف تحميل. كانت العربة هناك أيضاً، وكان بينها وبين أقرب نقطة من الرصيف حوالي خمس وعشرين قدماً من الفراغ الذي يضيئه القمر (نعم. كنا في ضوء القمر الآن، بعيدين عن أنوار الشوارع وأنوار المستودع. كان باستطاعتنا أن نراه الآن). ولعن سام بهدوء جميع موظفي المستودع من عمال تحويل وعمال حظيرة وبائعي تذاكر.

وقال الرجل الذي يحمل الفانوس: سأذهب لأحضر قاطرة. فقال ند: لا نحتاج إلى قاطرة. ومهما كانت المسافة التي يستطيع أن يقفزها،

فإننا نحتاج إما إلى تحريك ذلك الرصيف أو تحريك العربة. وتساءل سام: يعني قاطرة التحويل؟ ثم قال للرجل الذي يحمل الفانوس: كلا لقد توقعت هذا. أما أن يخطئ عمال التحويل مسافة خمس وعشرين قدماً فأمر سيء جداً.. لهذا السبب طلبت منك أن تحضر مفتاح غرفة القسم. أحضر المخول. قد لا يكون لدى السيد بون مانع في مساعدتك.

فقال بون: لم لا تذهب أنت؟ إنها سكتك الحديدية. إنني غريب هنا. وقالت الآنسة كوري: لم لا تعيد هذين الولدين إلى البيت ليناما، إذا كنت خجولاً إلى هذا الحد أمام الغرباء؟

- لماذا لا ترجعينهما إلى البيت بنفسك؟ قال لك صديقك مرة إنه ليس لك أي عمل هنا.

- سأذهب معه لإحضار المخول. أرجو أن تنتبه للولدين.

- حسناً، حسناً. لنفعل شيئاً، بالله عليكم، سيصل ذلك القطار خلال أربع أو خمس ساعات بينما نضيع الوقت ونتجادل حول من سيقوم بالعمل، أين غرفة الأدوات يا جاك؟

وهكذا ذهب مع الرجل الذي يحمل الفانوس ولم يبق معنا سوى ضوء القمر. ورأيت الحصان يحك أنفه بمعطف ند كأنه حيوان مدلل. وكان سام يفكر في ما كنت أفكر فيه منذ أن رأيت الرصيف. قال: هناك سقالة في المؤخرة. هل مشى على سقالة من قبل؟ لم لا تأخذه الآن وتدعه يراها. عندما تركز العربة في موضعها يمكننا جميعاً أن نساعدك على رفعه إن اقتضى الأمر.

فقال ند: لا تضيّع وقتك بالقلق علينا. ما عليك إلا أن تحضر تلك العربة إلى مكان قريب فلا يضطر إلى القفز، حتى مسافة عشر أقدام. هذا الحصان يريد أن يخرج من ممفيس بقدر ما تريد أنت.

وكنت أخشى أن يقول سام: ألا تريد أن يذهب هذا الصبي معك؟ لأنني كنت أريد أن أرى تلك العربة تتحرك. لم أصدق ذلك. وهكذا انتظرنا. لم يطل الأمر إذ عاد بون مع الرجل الذي يحمل الفانوس، وهما يحملان مِخْلَين يبلغ طول الواحد منهما حوالى ثماني أقدام. ووقفت أراقبهم (كذلك الآنسة كوري وأوتيس) وهم يقومون بالعمل. ووضع الرجل الفانوس أرضاً، وتسلق السلم المؤدي إلى السطح وفكّ عجلة الفرملة، بينما أدخل سام وبون طرفي المخلين بين العجلتين الخلفيّتين وخط سكة الحديد، وكانا يضغطان ويدفعان، ومع ذلك لم أصدق أن بإمكانها تحريك العربة التي كانت تظهر سوداء ومربعة وعالية في ضوء القمر، وكانت ثابتة ومكينة كجدار أسود يحيط به إطار فضّي شكّلَه ضوءُ القمر. وكان يبدو فوقها شبحٌ صغير يدير عجلة الفرملة، وخلفها شبحان صغيران آخران يضغطانها ويدفعانها. كانت ضخمة صعبة التحريك حتى أنها لم تظهر لأول وهلة أنها هي التي تتحرك إلى الأمام، بل بدت وكأن بون وسام يمشيان إلى الوراء. وأخيراً رمى سام وبون المِخْلَين ودفع بون العربة بيديه بلطف إلى جانب الرصيف حتى وصلت إلى الموضع المعيّن، فقال سام:

ـ حسناً، وشدّ الرجل عجلة الفرملة فوقها ثانية. لم يبق علينا الآن سوى إدخال الحصان فيها. وكان ذلك يشبه القول: ها نحن في آلاسكا. ما علينا الآن إلا أن نعثر على منجم الذهب. ثم ذهبنا إلى مؤخّرة المستودع. كانت هناك سقالة مربوطة بالحبال. لكن الرصيف كان مبنياً بحيث يكون ارتفاعه مناسباً للتحميل منه والتفريغ عليه. وكانت السقالة مجرّد ممرّ لعربات اليد، وقوية، لكن عرضها لا يزيد على خمس أقدام، ولم يكن لها درابزين. كان ند واقفاً هناك يحدِّث الحصان قال: لقد رآها. يعرف أنّنا نريده أن يمشي عليها لكنه لم يقرِّر بعد إن كان يريد ذلك. ليت رجل سكة الحديد يذهب ويستعير سوطاً.

وقال بون: لديك واحد. وكان يقصدني - إنها إحدى خدعي. كنت أُحْدِث بلساني صوتاً شديداً وعالياً تماماً كأنه ضربة سوط. وأخيراً منعتني أمي أن أفعل ذلك في أي مكان داخل ساحة بيتنا وفي البيت. ومرة جعلتُ جدتي تقفز وتشتم. كان ذلك قبل سنة، وقد أكون نسيت كيف أفعل ذلك الآن.

فقال ند: هذا صحيح. إذن لدينا واحد. وقال لي: احضرْ غصناً طويلاً. لابد أنك ستجد واحداً في السياج الموجود هناك. لعل هذا كان سياج إحدى الحدائق قبل أن يأتي التقدم والصناعة والتجارة وسكة الحديد. فقطعت غصناً وعدت. وقاد ند الحصان إلى فوق، مواجهاً السقالة، وأشار إلى السيد بون والسيد رجل سكة الحديد أن يصعدا ويقفا كلٌ في جانب كأنهما طرفا بوابة. ففعلا ذلك وأصبح ند الآن في منتصف السقالة يمسك الرسن ويواجه الحصان ويكلّمه قائلاً: هيا بنا. اصعدْ هذا الممر الصغير إلى قِمّة المجد، وبوسم في تنسي، عند شروق الشمس غداً. ثم عاد ونزل وهو يدير الحصان ويسير بسرعة أكبر ووجه كلاماً إليّ قائلاً: لا تدعْه يرى الغصن. قف خلفه مباشرة. لا تلمسه أو تطقطق إلى أن أقول لك. هذا ما فعلته وسرنا نحن الثلاثة - أنا وند والحصان - في اتجاه معاكس للسقالة مسافة عشرين ياردة تقريباً ثم أدار ند الحصان دون أن يوقفه وأنا أتبعه إلى أن جعله يواجه المكان الذي ترتفع منه السقالة بين بون وسام على بعد عشرين ياردة. وعندما رأى السقالة تراجع، وقال لي ند أن أطقطق، فأحدثت الصوت، وكان عالياً، فقفز الحصان قليلاً بينما كان ند يتحرك إلى الوراء في اتجاه السقالة. وتابع يقول: عندما أقول لك أن تطقطق هذه المرة، المَسْهُ بالغصن. لا تضربه، بل المسه على طرف ذيله بعد ثانية من طقطقتك. ومرّ بين بون وسام وأصبح على السقالة. وكان الحصان يحاول الآن أن يقرر ماذا يفعل: هل يرفض أم يفرّ

(وهنا عليه أن يقرر من سيدوس في طريقه: بون أم سام) أو يجمح ويوقعنا كلنا. كان باستطاعتك أن ترى ذلك وشيك الوقوع. وقال ند: طقطق! وهذه المرة لمستُ الحصان أيضاً كما قال لي ند فاضطرب الحصان قليلاً وقفز، وأصبحت قدماه الأماميتان فوق السقالة وقدمه الخلفية القريبة من بون تضرب حافة السقالة وتنزلق عنها إلى أن أمسكها بون قبل أن يتكلم ند ووضعها على السقالة. لم يعد الحصان يتحرك الآن، وكان يرتجف وأرجله الأربع فوق السقالة. وقال ند: الآن ضع الغصن على مأبضيه ليحسب أن خلفه شيئاً يمنعه من السقوط.

فقال سام:

- تعني كي لا يتراجع على السقالة. نحتاج إلى أحد المخلين. اذهب واحضره يا تشارلي.

وقال لي ند: نعم. سنحتاج إلى المخل بعد لحظة، لكن ما نحتاج إليه الآن هو ذلك الغصن. إنك صغير. أعطه إلى السيد بون والسيد رجل سكة الحديد. ضعاه خلف مأبضيه. وفعلا ذلك، إذ أمسك كل واحد منهما بأحد طرفي الغصن. "الآن سَيِّراه إلى فوق. عندما أطلب منك أن تطقطق هذه المرة، طقطق بصوت عالٍ بحيث يعتقد أن الضربة ستكون قوية أيضاً". لكنني لم أحتَج إلى الطقطقة ثانية. وقال ند للحصان: هيا يا بنيّ. لنذهب إلى بوسم. وتحرك الحصان بينما كان بون وسام يتحركان معه وهما يضغطان بالغصن إلى أن أصبحت قدماه الأماميتان فوق الرصيف، ثم قفز وأصبح فوق الرصيف.

فقال سام:

"إننا نحتاج إلى أكثر من ذلك الغصن وطقطقة لسان ذلك الصبي لإدخاله إلى العربة". وقال ند:

ـ إن الذي سيدخله إلى العربة هو ذلك المخل. ألم يـصل بعـد؟"
وكان قد أُحضِرَ الآن فتابع ند كلامه قائلاً: انقلوا ذلك الممشى. وسـأله سام: لماذا؟ فأجابه: "ليسير عليه عندما يدخل العربة. لقد اعتـاد عليـه الآن، ورأى أن ليس في الطرف الأخر ما يؤذيه أو يخيفه".

كانت فكرة ند معقولة. ولم يعد هناك من مجال للتـردد حـتى لـو أمرَنا ند أن نهدم جدارَي المستودع كي لا يتعـرض الحـصان للخطـر. وهكذا قام بون وموظف سكة الحديد بإبعـاد الـسقالة عـن الرصـيف. وقال سام: عجباً! ألا تستطيعان تحريكها بهـدوء؟ فأجـاب نـد قـائلاً: ألست موجوداً معنا هنـا؟ طبعـاً يمكنـك أن تـستفيد مـن تلـك الأزرار النحاسية فائدة أكثر من مجرد التنقل بها. وهنـا اضـطررنا كلُّنـا، حـتى الآنسة كوري، إلى رفع السقالة إلى ما فوق الرصيف وحملها ووضعها بشكل جسر بين الرصيف وباب العربة، ثم قاد ند الحصان وفي الحـال فهمت ما عناه سام. ولم يكن الحصان قد شمّ رائحة عربـة فارغـة مـن قبل غير أنه بخلاف الآدميين تمكّن من رؤية داخلها. ولكن لم يحـصل أي شيء، أعني لا أعرف ماذا حصل كما لم يعرف أيٌّ منّـا. وقـاد نـد الحصان، وكان صوت حوافره يرن فوق الألواح الخـشبية حـتى نهايـة السقالة التي أصبحت الآن كالجسر. وكان ند يقف على الجسر داخـل الباب وهو يكلـم الحـصان ويجـرّه بلطـف مـن الرّسـن إلى أن وضـع إحدى قدميه الأمـاميتين فـوق الجـسر. لم أعـرف في أي شـيء كنـت أفكر. قبل لحظة كنت أعتقد أن ليس في ممفيس كلّها عـددٌ كـافٍ مـن الأشخاص لإدخال الحصان من تلك الفتحة المعتمة. ثم بعـد لحظـة، عندما كنت أتوقع حدوث القفزة التي تدخل الحـصان في العربـة كمـا حدث فوق السقالة، رفع الحصان قائمته وتراجـع إلى الرصـيف بينمـا كان هو وند متواجهين. وسمعت ند يتنفس مرة واحدة، قائلاً:

ـ ارجعوا جميعاً نحو الجدار. وهـذا مـا فعلنـاه. ثم لم أعـرف مـا الـذي فعلـه. لكـنني رأيتـه وهـو يمسـك الرسـن بيـد واحـدة ويربّـت بالأخرى على أنف الحـصان. ثم عـاد إلى العربـة واختفـى ولم يـسمع سوى صوته: هيا يا بني. إنه هنا.

وقال سام: "يا للعجب. كـان قـد تمّ كـل شـيء وصـار الحـصان داخل العربة". وأدخلنا الفانوس، فلمعت عينا الحصان حيث كـان نـد يقـف معـه في الزاويـة. وسـأل نـد سـام قـائلاً: أيـن ألـواح الخـشب والمسامير التي تحدثت عنها؟ أدخل ذلك الممشى فهو يـشكل حائطـاً كاملاً. فقال سام:

"عجباً! مهـلاً الآن! وقـال نـد: عنـدما يجـيء النـاس إلى هنـا غـداً صباحاً ويجدون أن إحدى العربات قد فُقِدَت بكاملها، لن يكـون لـديهم وقت للبحث عن سلم بسيط. وهكذا قمنا جميعنا، باسـتثناء نـد، بحمـل السقالة إلى العربة وأمسكناها في المكان المناسـب بينمـا قـام بـون وسـام وموظف سكة الحديد (وكـان سـام قـد أعـد ألـواح الخـشب والمـسامير أيضاً) ببناء جدار حول الحصان في زاوية العربة. وقبل أن يكون باسـتطاعة ند أن يتكلم كان سام يحضر دلواً من الماء وصندوقاً من الحبـوب وربطـة من العشب، وقال ند: كأنه في "بوسم" الآن... فقـال سـام: خـير لكـم أن تتمنوا أن يقطع الحصان خط الوصول مجلياً بعد غد. ما هو الوقـت الآن؟ ثم قال لنفسه: بعد منتصف الليل بقليل. هناك وقت للنـوم قبـل أن يرحـل القطار في الرابعة. ثم وجّه كلامه إلى بون قائلاً: طبعاً تريـد أن تبقـى أنـت وند مع حصانكما هنا، ولهذا السبب أحضرت كمية إضافية مـن العـشب. ناما هنا وسآخذ كوري والولدين إلى البيت وسنلتقي هنا في ـ

وقال بون عابساً: تقول إنك ستقابلنا هنـا في الـساعة الرابعـة: إذا لم تتأخر في النوم رأيناك هنا. وبدأ يدور وقال: هيا بنا يا كوري.

وقالت الآنسة كوري: لن أعود إلى البيت مع أحد يا بون! هيا يا لوشيوس، أنت وأوتيس. فقال سام: لا بأس. لا ينسَ أن بون يكد خمسة أو ستة أشهر في حقل القطن أو ما شابه لقضاء ليلة واحدة في شارع كتاليا. اذهبوا جميعكم. سأراكم في القطار.

وهكذا ودعنا سام ونِد وتشارلي (كلنا ما عدا بون وأوتيس) وعدنا إلى بنسيون الآنسة ريبا. كانت الشوارع خالية وهادئة. وكانت ممفيس تحاول الحصول على قليل من النوم والراحة لتواجه بهما صباح الاثنين. وسرنا بهدوء، من ضوء إلى ضوء بين الشبابيك المعتمة والجدران. وظهر ضوء خافت خلف ستارات شباك الآنسة ريبا. وفتحت لنا الآنسة ريبا الباب الأمامي، وكانت رائحة الجِنْ تفوح منها. ووجدناها قد غيّرت ثوبها، ولم يكن لهذا الثوب جزء علوي بالمرة تقريباً. وفي تلك الأيام لم تكن النساء يصبغن وجوههنّ بالمعنى الحقيقي، لهذا كانت المرة الأولى التي أرى فيها ذلك أيضاً. وكانت تلبس المزيد من الماس الكبير الضارب إلى الصفرة، كالماستين الأوليين. لا: خمس ماسات. ولم تكن ميني قد ذهبت إلى الفراش بعد، بل كانت تقف بباب غرفة الآنسة ريبا وهي تبدو منهوكة القوى.

وقالت الآنسة ريبا وهي تقفل الباب خلفنا: هل رتبتم كل شيء؟ فردّت الآنسة كوري.

ـ نعم. لماذا لا تذهبين إلى فراشك؟ خذيها يا ميني إلى الفراش. فقالت ميني: كان باستطاعتك أن تطلبي ذلك قبل ساعة. إنني آمل ألا يكون هناك من يطلب ذلك بعد ساعتين. لكنك لم تكوني هنا في المرة الماضية قبل سنتين.

ثم صعدنا إلى فوق. كان أوتيس يعرف الطريق إلى السقيفة حيث لم يكن يوجد غير بعض الحقائب والصناديق وفراش موضوع على

الأرض. ولبس أوتيس قميص نوم (وكانت لا تزال تظهر عليه الثنيات كما اشترته الآنسة كوري من المخزن) وذهب إلى الفراش. كذلك فعلت أنا، إذ خلعت بنطلوني وحذائي وأطفأت النور واستلقيت على السرير. وكان هناك شباك صغير فاستطعنا رؤية القمر، كما استطعت أن أرى داخل الغرفة، بفضل ضوء القمر. كان فيه شيء غير طبيعي. كنت تعباً وأثناء صعودي الدرج ظننت أنني سأنام قبل أن أستلقي تماماً. لكنني كنت أشعر به مستلقياً بجانبي ليس مستيقظاً فحسب، بل كأنه لم يفهم في حياته ولم يعرف النوم بتاتاً. وفجأة شعرت أن هناك شيئاً غير طبيعي يتعلق بي أنا أيضاً. ولم أكن أعرف ما هو بعد، لكنني عرفت ما هو وكرهته. وفجأة لم أرد أن أكون هناك بتاتاً. لم أكن أريد أن أكون في ممفيس أو أن أكون قد سمعت بممفيس، بل أردت أن أكون في البيت.

وقال: "المال موجود هنا. يمكنك أن تشمه. ليس من العدل أن تكسب النساء فقط مالاً بواسطة الوصوصة، بينما كل ما على الرجل أن يفعله هو أن يحاول الحصول على قليل منه في طريقه". لقد ذكر تلك الكلمة التي سألت عن معناها مرتين. لكنني لم أسأل مرة أخرى، وبقيت مستلقياً متوتر الأعصاب بينما ضوء القمر يسقط على رجليّ ورجليْ أوتيس الذي كنت أحاول ألا أسمعه لكنني كنت مضطراً إلى سماعه وقال:

- كم يبلغ عمرك؟

- أحد عشر عاماً.

- إنك تعرف الكثير، أليس كذلك؟ من أي بلد أنت؟

من ميسيسيبي.

ـ لا عجب في أنك لا تعرف شيئاً.

ـ حسناً. بي هي الآنسة كوري.

ـ ها أنذا هنا أفقد المال كأنه لا شيء. لكن ربما تمكنّا معاً من عمل شيء. طبعاً. اسمها أفربي كورتينا، وقد سُمِّيَتْ كذلك باسم جدتي. إنه اسم غريب. إنه سيء حتى هنالك في كيلت، حيث عرفه بعضهم وألِفوه بينما كان الآخرون مستعجلين بحيث لم يهمهم أن تسمّي نفسها بأي اسم. ولكن هنا في ممفيس تحاول كل فتاة، كما قيل لي، أن تدخل بيتاً كهذا، حالما تشغر غرفة. ولم يكن لهذا أي تأثير في كيلت، بعد أن توفيت أمها وأخذتها العمة فيتي لتربيها، وجعلتها تبدأ عملها حالما كبرت. ثم عندما وجدت أن في ممفيس مالاً أكثر، جاءت إلى هنا حيث لا يعرف أحد شيئاً عن أفربي، وهكذا دعت نفسها كوري. لهذا فإنني كلما أتيت لزيارتها، كما حصل في الصيف الماضي وفي هذه المرة، تعطيني يومياً خمسة سنتات كي لا أخبر أحداً، وبدلاً من أن أخبرك، كما زلق لساني وفعلت، كان بإمكاني أن أذهب إليها وأقول لها يمكنني بخمسة سنتات يومياً أن أحاول النسيان، لكن عشرة سنتات يومياً تجعلني أضاعف محاولتي ولكن لا بأس، أستطيع أن أخبرها غداً أنك تعرف أيضاً وقد نستطيع كلانا".

"من هي العمة فيتي؟"

"لا أدري. كان الناس يدعونها العمة فيتي. ربما كانت قريبة أحدنا، لكنني لا أعرف. عاشت وحدها في بيت عند طرف البلدة إلى أن أخذت بي إلى بيتها بعد أن توفيت أم بي. وهذا لم يستغرق وقتاً طويلاً، لأنها كانت كبيرة قبل أن تبلغ العاشرة أو الحادية عشرة أو الثانية عشرة أو أياً كان عمرها، وبدأت.

"بدأت ماذا؟" كان عليَّ أن أسأل هذا السؤال. لقد ذهبتُ بعيداً بحيث لا أستطيع التوقف الآن، كما حصل في جفرسون أمس – وهل كان أمس؟ السنة الماضية: كان وقتاً آخر: حياة أخرى: لوشيوس بريست آخر. "ما هي الوصوصة؟"

وأخبرني بشيءٍ من الازدراء، لكن بنوع من الدهشة، قائلاً: "كان عندي هناك ثقب لاستراق النظر ـ ثقب في الجدار الخلفي، عليه قطعة تنك متحركة لم يكن أحد غيري يعرف كيف يحركها، بينما تكون العمة فيتي في الجزء الأمامي من البيت تجمع المال وتراقب. كان على من هم في سنك أن يقفوا على صندوق بينما آخذ خمسة سنتات من كل منهم إلى أن عرفت العمة فيني أنني كنت أدع الرجال الكبار يتفرّجون مقابلٍ دفع عشرة سنتات بدلاً من أن يدخلوا البيت ويدفعوا خمسين سنتاً، وبدأت تصرخ كقطة برية..".

وسرعان ما رأيتُني واقفاً، أضربه بشكل أثار دهشته (ودهشتي أيضاً) مما اضطرني أن أنحني وأمسك به ثم أرفعه إلى حيث يمكنني أن أطاله. لم أكن أعرف شيئاً عن الملاكمة أو عن المشاجرة. لكنني كنت أعرف تماماً ما أريد: لم أكن أريد أن أؤذيه فقط، بل أن أحطّمه. أذكر أنني انتبهت فجأة إلى أنّ حجمه لم يكن متناسباً مع حجمي. وندمت. لكن ذلك لم يستغرق أكثر من ثانية واحدة، إذ بقيت أضربه وأركله. ولم يكن ذلك موجهاً إلى صبيّ في العاشرة من عمره بل إلى أوتيس والقوّادة معاً: الصبي العفريت الذي انتهك حرمة خلوتها والشريرة التي أفسدت براءتها. ولم يكن موجَّهاً ضد ذينك الاثنين فحسب بل ضد جميع الذين اشتركوا في تحقيرها: ليس ضد القوّادين فحسب بل وأيضاً ضد الأولاد عديمي الإحساس، والرجال المتوحشين الوقحين الذين دفعوا سنتاتهم ليشاهدوا إهانتها التي لم

تجد من يدافع عنها أو يثأر لها. ووقع على يديه وركبتيه فوق الفراش. وكان يعبث ببنطلونه، ولم أعرف السبب حتى حين خرجت يده وارتفعت إلى أعلى. عندها فقط رأيت نصل سكين الجيب في يده، لكنني لم أهتم. لقد جَعلنَا ذلك متساويين في الحجم. ونزعت السكين منه، دون أن أعرف كيف أو أن أشعر بالنصل بتاتاً. وعندما رميت السكين وضربته ثانية ظننت أن الدم الذي رأيته على وجهه كان دمه.

ثم شعرت ببون يرفعني عن الأرض وأنا أعارك وأبكي. كان حافي القدمين ولا يلبس غير سرواله. وكانت الآنسة كوري هناك أيضاً، لابسة كيمونو، محلولة الشعر حتى أنه كان يصل إلى تحت خصرها. وكان أوتيس يقف إلى جانب الجدار ولم يكن يبكي بل كان يشتم كما شتم ند. وسأل بون: ما هذا؟ فردّت الآنسة كوري قائلة: يده. وصمتت قليلاً ثم التفتت إلى أوتيس قائلة: اذهب إلى غرفتي. هيا. فخرج من الغرفة. وأنزلني بون ثم قالت: دعني أراها. عرفت لأول مرة من أين جاء الدم - من جرح عميق في كف يدي بمحاذاة الأصابع الأربع حين قبضت على النصل وهو يحاول أن يجذبه. كان الدم ما زال ينزف. أي أنه نزف ثانية عندما فتحت الآنسة كوري يدي. وسأل بون: علام كنتما تتشاجران؟ فقلت وأنا أسحب يدي: لا شيء. لكن الآنسة كوري قالت: أبقها مطبقة إلى أن أعود. ثم خرجت وعادت تحمل طست ماء ومنشفة وزجاجة فيها شيء ما وقطعة من قميص رجل. وغسلت الدم وفتحت الزجاجة، قائلة: "سيحرقك". وهذا ما حصل. وقصت قطعة من القماش ولفت بها يدي.

قال بون: ما يزال يرفض أن يقول لماذا يتشاجران. على الأقل أرجو أن يكون هو الذي بدأ الشجار. حجمه لا يوازي نصف حجمك على الرغم من أنه أكبر منك بسنة. لا عجب إن سحب سكيناً.

ـ أنا أكبر منه بسنة. إنه في العاشرة.

ـ قال لي إنه في الثانية عشرة. ثم عرفت ما هو غير طبيعي في أوتيس.

وتساءلت الآنسة كوري: "الثانية عشرة؟ سيبلغ الخامسة عشرة يوم الاثنين المقبل". وسألتني وهي تنظر إلي: "هل تريد..". فقلت: "أبقيه بعيداً من هنا. إنني تعب أريد أن أنام". فقالت: "لا تقلق. سيعود أوتيس إلى البيت هذا الصباح. هناك قطار يذهب في الساعة التاسعة. سأرسل ميني إلى المحطة معه وأطلب منها أن تتأكد من ركوبه القطار، وأن تقف في مكان يمكنها أن ترى وجهه من النافذة إلى أن يتحرك القطار". وقال بون: "طبعاً. ويمكنه أن يتزود بضربة مني تعلمه التهذيب والثقافة. لقد جيء به إلى هنا لقضاء أسبوع في ممفيس..". فقالت الآنسة كوري: "أسكت. لكنه تابع قائلاً: "... في هذا البنسيون طلباً للتهذيب والثقافة. لعله وجدهما. كان يمكن أن يقضي سنوات عديدة في أركناس دون أن يجد شخصاً بحجم قريب من حجمه على أن يشهر عليه تلك السكين..".

وقالت الآنسة كوري: كفى! كفى!

ثم أطفأ النور وخرجا، أو هذا ما ظننته. وأشعل بون النور ثانية وقال: لعل من الأفضل أن تخبرني عن السبب. فقلت: لا شيء. فنظر إلي بضخامته وجسمه العاري حتى وسطه ويده على النور لتطفئه ثانية، ثم قال: في الحادية عشرة وتصاب بجرح في عراك في بيت للدعارة! ثم نظر إلي قائلاً: ليتني عرفتك قبل ثلاثين سنة. لو كنت معي لتعلّمني وأنا في الحادية عشرة، لكان لدي بعض الإدراك الآن. طابت ليلتك.

ثم أطفأ النور ونمت. وأتت الآنسة كوري وركعت بجانب الفراش. كنت أستطيع رؤية وجهها ورؤية القمر من خلال شعرها. كانت هي التي تبكي هذه المرة ـ كانت فتاة أكبر من أن تبكي لكنها كانت تبكي بهدوء. ثم قالت: "أقنعته أن يخبرني. تشاجرتما لأجلي. تشاجر أناس سكّيرون لأجلي، لكنك أول شخص يقاتل دفاعاً عني. لست معتادة على هذا، لذلك لا أعرف ماذا أفعل بهذا الشأن، إلا أمراً واحداً يمكنني أن أفعله. أريد أن أعدك بشيء. هناك في أركنساس ارتكبت غلطة. لكني لن أرتكب غلطة بعد الآن". كان عليك أن تتعلم بسرعة، أن تقفز في الظلام وتأمل أن تضع قوةٌ ما قدمَك في المكان الصحيح. لذلك هناك أشياء أخرى بجانب الفقر واللافضيلة تهتم بشؤونها. فقلت:

"لم تكن غلطتك حينئذ".

"بلى كانت غلطتي. يمكنك أن تختار. يمكنك أن تقرر. يمكنك أن تقول لا. يمكنك أن تجد عملاً وتشتغل. لكنني لن أرتكب غلطة بعد الآن، هذا ما أريد أن أعدك به، وعليَّ أن أحافظ عليه كما حافظتَ أنت على ذلك الوعد الذي أخبرتَ السيد بنفورد عنه قبل العشاء، الليلة. عليك أن تصدّق ذلك. هل ستصدّقه؟"

"حسناً".

"لكن عليك أن تقول إنك تصدق وعدي. عليك أن تقول ذلك بصوت عال".

"نعم. أصدق وعدك".

"حاولْ أن تنام الآن. أحضرت كرسياً وسأجلس هنا حيث يمكنني أن أوقظك في الوقت المناسب لنذهب إلى المحطة".

"عودي إلى فراشك أنت أيضاً".

"لست نعسانة. سأجلس هنا. عد إلى النوم. وفي هذه المرة جاء بون ثانية، ووقف منحنياً على الكرسي الذي كانت تجلس عليه افربي (أعني الآنسة كوري) وهو يكلمها همساً ويمسك بذراعها ويقول: هيا بنا الآن، لم تبق لدينا سوى ساعة واحدة. وهمست هي أيضاً: اتركني الوقت متأخر الآن، اتركني يا بون. لكنه قال لها هامساً بصوت أجش. لماذا تظنين أنني قطعت هذه المسافة كلها وانتظرت طوال هذه المدة وعملت ووفرت وانتظرت...

كانت النافذة التي يضيئها القمر تزداد وضوحاً. وسمعت صياح ديك من مكان ما. كانت يدي المجروحة تحتي، وقد آلمتني. ولعل هذا ما أيقظني. لذلك لم أعرف إن كان ما يزال هنا منذ المرة السابقة أم أنه ذهب وعاد ثانية. كل ما عرفته هو أنهما كانا يتكلمان همساً، وأن صياح الديك يعني وقت النهوض. أوه، كانت تبكي من جديد وتقول: لا أريد، لا أريد! دعني وحدي! وكان بون يقول: حسناً، حسنا. لكن الليلة هي الليلة فقط؛ غداً عندما نستقر في بوسم..".

"كلا، ولا غداً. لا أقدر، لا أقدر! دعني وحدي. أرجوك، يا بون، أرجوك!".

الفصل الثامن

وصلنا أنا وأفربي وبون إلى المحطة قبل الموعد بوقت طويل، أو هكذا تصوّرنا. وكان ند بانتظارنا هناك. كان يرتدي قميصاً أبيض نظيفاً. ربما كان قميصاً جديداً، أو أنه تمكن بطريقة ما من غسل قميص عتيق آخر. ولكن لم يمر وقت طويل حتى انجلى السر. كان من قمصان سام. ولم يدع ند لبون مجالاً للكلام إذ بادره قائلاً: "هدئ روعك. السيد سام يهتم بلايتنينغ بينما اهتم أنا بالترتيبات الخارجية. لقد وصلوا العربة بالقطار. فعندما يدير السيد سام كالدويل خط سكة حديد فإنه يديره بانتظام. وقد سميناه فورزكد لايتنينغ ثم وقع نظره على يدي فقال:

"ماذا فعلت بها؟"

"جرحتها، لكنها بخير الآن".

"أهو جرح كبير؟" فأجابت أفربي:

"نعم، كبير. إنه على طول أصابعه الأربعة. يجب ألا يحركها".

ولم يُضِعْ ند وقتاً طويلاً حول هذا الموضوع، إذ سرعان ما تلفت حوله قائلاً: أين الشخص الآخر؟ فسأل بون أي شخص آخر؟ فأجاب ند: الصبي الذي لا يتكلم إلا عن المال، والذي كان معنا البارحة. قد أحتاج إلى من يساعدني على الحصان. من تتصور أنه سيمتطيه في السباق؟ أنا، أم أنت ووزنك ضعف وزني؟ كنت قد

فكرت بلوشيوس لهذا العمل. ولكن ما دمنا قد عثرنا على الصبي الآخر، فلا حاجة بنا إلى المخاطرة مع لوشيوس. إنه أخف وزناً وإن كان أقل فطنة. ثم إنه أعرق في الفساد مما يؤهله لركوب جواد سباق، خاصة إذا وُعِد بالربح. وهو، لكونه جباناً، سيتعلق بالسرج جيداً فلا يقع عنه. وهذا كل ما نبتغي. أين هو؟ فقال بون:

"عاد إلى أركنساس. كم تقدر عمره؟".

"منظره يوحي بأنه في الخامسة عشرة. أليس كذلك؟ ذهب إلى أركنساس؟ يجب أن يذهب من يعود به حالاً".

فقالت أفربي، حسناً. سأذهب وآتي به. لذلك سأبقى هنا وأحضره في القطار الثاني، بعد ظهر اليوم. فقال ند: هذا كلام معقول. ذلك هو قطار السيد سام. وهكذا يمكنك أن توكلي أمر ذلك الشرير إلى السيد سام فيعرف كيف يهتم به. فقال بون: بكل تأكيد. هذا يتيح لك فرصة ساعة كاملة كي تجربي تمنّعك مع سام. قد يكون أفضل مني ولا يصغي إليك. فلم تجبه، واكتفت بالنظر إليه. فقلت: إذا كان الأمر كذلك لم لا تبقى أنت وتجلب أوتيس معك ثم تلاقينا غداً في بارشم. فنظر بون إليّ. لكنني تابعت قائلاً: "لعلّي سأرجع إلى البيت الآن. يبدو أن ند قد وجد شخصاً آخر لركوب الحصان في السباق، وأنت لا تعرف كيف تتصرف مع الأشخاص الذين يحاولون مساعدتنا". فحملق فيّ لحظة ثم قال: لا بأس، يعني لا بأس!" فقالت: حسناً. فأضاف ند قائلاً: سأذهب لملاقاتك في أول قطار يصل بعد ظهر اليوم، فإن لم تكوني فيه سأبقى في المحطة استقبل القطارات. مفهوم؟ فوافقت على كلامه ومشت في طريقها.

ودخلنا المحطة. وابتاع بون التذاكر. ثم توجهنا إلى حيث كان يقف القطار، وكان الركاب قد بدأوا يصعدون إليه. واستطعنا أن نرى

العربة أمامنا. وكان سام واقفاً في الباب المفتوح مع السائق ورجلين آخرين. ولابد أن أحدهما كان المهندس. أرأيت؟ لم يكن يساعدنا رجل الإشارة، خارج وقت دوامه وحسب، بل كانت تساعدنا فرقة قيادة قطار كاملة. وقال السائق: هل سيدخل السباق اليوم؟ فأجاب بون: غدا. فقال السائق: حسناً، يجب أن يصل إلى هناك قبل كل شيء. ثم نظر إلى ساعته وقال: من سيركب معه؟ فأجاب ند: أنا، إذ تمكنت من إيجاد صندوق أو أي شيء أصعد عليه. فقال سام: أعطني قدمك. وطوى ند ركبته فقذفه سام إلى داخل عربة القطار وقال له: سأراك في بارشم غداً. فقال بون: حسبتك ذهبت إلى واشنطن. فاستفهم سام قائلاً: "من، أنا؟ ذهب القطار فقط. سأرجع إلى تشاتانوغا الليلة في قطار رقم 209 وأصل إلى بارشم في الساعة السابعة من صباح الغد. كنت أذهب معكم الآن وأعود من بارشم في قطار رقم 208، لكنني يجب أن أنام قليلاً، ثم إنكم لن تحتاجوا إلي. يمكنكم أن تعتمدوا على ند حتى ذلك الحين".

كذلك كنا أنا وبون. أعني كنا بحاجة إلى النوم. وقد استغرقنا في النوم حتى أيقظنا السائق عندما بلغنا محطة بارشم مع تباشير الفجر. وراقبنا القاطرة وهي تنفصل عن العربة ثم تمضي بمقطوراتها العديدة متجهة جنوباً نحو جفرسون. وأخرجنا الحصان من العربة فقاده ند. ثم التقينا بشاب زنجي ذي وجه حلو لطيف، في نحو التاسعة عشرة من عمره. فحيا الشاب ند، فسأله عن الطريق.

وهكذا تركنا بون فترة. كان عليه أن يجد لنا مكاناً ننزل فيه. لا أنا وهو فقط، بل أوتيس وافربي.

ومررنا أنا وند والفتى بالبلدة وبلغنا ظاهرها. ولم يستغرق ذلك وقتاً طويلاً آنذاك، لأنها كانت بمثابة قرية صغيرة مؤلفة من مخزنين أو

ثلاثة، عند تقاطع خطوط السكتين الحديديتين، بالإضافة إلى مزلقة لشحن البقر، ومستودع للبضاعة، ورصيف لشحن بالات القطن.

وقال الفتى الزنجي عنّي: "سينام هذا الصبي الأبيض وهو يمشي". لكنني لم أكن راغباً في النوم. كان عليَّ أن أعرف، فسألت ند: لم أدرِ أنك تعرف أحداً هنا، وفوق ذلك أنك أخبرتهم بمجيئك. فتابع ند سيره وكأنه لم يسمع ما قلت. وبعد لحظة قال من فوق كتفه: تريد أن تعرف أليس كذلك؟ أنا وجدّ هذا الصبي ماسونيان. فسألته: ولماذا تهمس؟ جدي أيضاً ماسونيّ، لكنني لم أسمعه يوماً يهمس عندما يذكر ذلك. فقال ند: لم أنتبه إلى أنني كنت أهمس. لكن لنفرض ذلك، فهل تتصور أن الناس ينتمون إلى الماسونية لو لم تكن سرية؟ وكيف تريدها أن تبقى سرية إن لم تتكلم عنها بتكتم؟"

ثم وصلنا. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء. كان شكل البيت من الخارج أشبه بوجار الكلب. لم يكن مدهوناً أو مزخرفاً، لكنه كان راسخاً ونظيفاً، تحيط به حديقة فيها أشجار الخروب والكرز الصيني. وكان الدجاج منتشراً هنا وهناك بين الغبار، بينما ظهر في الإسطبل بقرة وزوج من البغال. وكان هناك كلبا صيد تعرّفا للحال على الشاب الذي يرافقنا. وكان يجلس على رأس السلم شيخ زنجي شديد السواد يلبس قميصاً أبيض وقبعة فلاح. كان له شاربان أبيضان ولحية صغيرة بيضاء. وبدأ يهبط درجات السلم إلى الساحة ليشاهد الجواد. فقد عرفه وتذكّره. وهكذا خاب أحد تقديرات ند. وسأل الرجل:

"هل اشتريتموه كلّكم؟" فأجاب ند:

"حصلنا عليه".

"وقتاً كافياً لتدخلوه السبق؟"

"مرة واحدة على الأقل" ثم قال لي: "قدّم احترامك للعم بوسم". فقدمت احترامي. ثم قال العم بارشم: "استريحوا. أظنكم مستعدين للفطور". وكنت أشم رائحته - رائحة لحم الخنزير. لكنني قلت: لا أريد سوى النوم. وقال ند لم ينم طول الليل، وأنا أيضاً. لكنه أمضى الليل في بيت يعج بنسوة يصرخن ويطرحن الأسئلة، بينما أمضيت ليلة هادئة مع الحصان في عربة قطار.

وكنت ما أزال مستعداً للمساعدة في الإسطبل وإطعام لايتنينغ، لكنهم لم يسمحوا لي، بل قال لي ند:

"اذهب مع ليكورغوس ونم قليلاً. سأحتاج إليك قريباً قبل أن يشتد الحر. علينا أن نعرف شيئاً عن الحصان. وبقدر ما نسرع يكون ذلك أفضل".

وتبع ليكورغوس إلى غرفة استراحة فيها سرير عليه لحاف ملوّن نظيف. وخيل إليّ أنني كنت نائماً قبل أن أستلقي على الفراش، وأن ند جاء يهزني قبل أن أغفو. كان يحمل جورباً صوفياً نظيفاً وخيطاً، وكنت جائعاً، لكنه قال لي: يمكنك أن تؤجل الفطور. الأفضل أن تمتطي الحصان ومعدتك فارغة.

وكان العم بارشم وليكوغوس ينتظراننا عند الحصان، وكان قد أسرج ووُضع له العنان. ونظر إليه ند قائلاً: يمكننا أن نجعله يركض دون سرج، لكن آمل ألا يجبرونا على ذلك فنستطيع أن نجربه في كلتا الحالتين ونعرف أيهما يفضل.

كانت الحلبة مرعى صغيراً قرب الساقية منبسطاً وناعماً. وقصّر ند الرّكاب ليتناسب مع طول أوتيس، وساعدني على الركوب قائلاً: تعرف ماذا عليك أن تفعل: كما كنتَ تفعل بامتطائك الخيول في ماك

كاسلن. دعْه يتساءل عن فارسه. يبدو أن كل ما تعلمّه من الآخرين هو أن يركض بقدر ما يسمح له العنان، وحيثما وجّهه راكبه. وهذا ما نبتغيه. لستَ الآن بحاجة إلى قضيب هيا".

قدتُه إلى المرعى خبباً. وشعرت أن رأسه لم يكن قوياً، حتى أن باستطاعة نسيج العنكبوت أن يوقفه. وهذا ما قلته لند، لكنه قال:

"أراهن على أنه يقدر أن ينطلق بشكل أفضل بعد بضع ضربات. هيا، انطلق به".

غير أن الحصان لم يتحرك. فلكزته بكعبي بقوة، لكنه لم يركض، بل أخذ ينطنط ببطء في شوط العودة. ثم اكتشفت، فجأة، أنه يسرع عائداً نحو ند، وفي غير الاتجاه الذي أطلقته فيه، وكأنه لم يعرف اللجام قط. وظلّ على هذه الحال حتى وصل إلى ند وأخذ يحك رأسه بقميصه. وأمرني ند وهو يضع إحدى يديه وراء ظهره، أن أرجعه.

ورأيته يمسك بقضيب مقشر ويقول للحصان: يجب أن تتعلم يا بني، فلا ترجع إليّ قبل أن أناديك. ثم قال لي. لن يتوقّف هذه المرة، فقد كنتَ تتساهل معه. اضربه بشدة وثبّتْ نفسك جيداً على ظهره. وعاد إلى الوراء وجرح الحصان في مؤخرته جرحاً بليغاً. وقفز الحصان إلى الأمام وركض بأقصى سرعته. وبدت انطلاقته رهيبة: لا أقصد السرعة أو المسافة بل الحركة. لم تكن فيها أية رشاقة، لأنها كانت ردة فعل لخوفه، والخوف لا يلائم الخيول، فهي لا تستطيع تحمُّله لأنها كتلة وتناسُق، بينما يتطلب الخوف مرونة ولطفاً وغرابة ومقدرة على السحر، شأن الغزال أو الزرافة أو الأفعى. حتى بعد انقضاء الخوف شعرت أن الحركة كانت مجرد طاعة. وهذا ما حصل أيضاً في شوط العودة، عندما فعلت كما أمرني ند. وضربته بكل

قوتي، فقفز مثل تلك القفزة، لكنه ركض هذه المرة بملء إرادته وبطاعة تامة، دون غضب، أو تلهف. عند ذاك أمرني ند أن أحضره ففعلت. كان الحصان يعرق قليلاً. وسألني ند كيف وجدت الحصان، فأجبته أن نصفه الأمامي لا يرغب في الركض، أعني أن رأسه لا يريد الذهاب إلى أي مكان.

وأنزلني ند عن الحصان، ونزع السرج عنه ثم قال لي: أعطني قدمك. فقال له العم بارشم: كيف عرفت أن هذا الحصان كان يُركَب عارياً؟ فقال ند: لم أعرف، لكن علينا أن نكتشف ذلك. فقال العم بارشم: ليس لهذا الصبي غير يد واحدة، يمكن لكيلورغوس... لكن ند كان قد أمسك بقدمي وقال: تعلّمَ هذا الصبي أن يمتطي جياد زاك أدموندس هناك في ميسيسيبي. راقبته وهو يفعل ذلك مرة واحدة على الأقل. ثم قذفني على ظهر الحصان، فلم تبدر من الحصان أية حركة. وثنى ركبتيه الخلفيتين قليلاً، وارتجف لحظة، وكان هذا كل ما فعل. فقال ند: هه. هيا لنتناول طعام الفطور. سيحضر ذلك المسخ ليدربه هذا المساء. ولعل لايتنينغ سيجد في ذلك بعض المتعة!

كانت أم ليكورغوس، وهي ابنة العم بارشم، تطبخ الطعام. وكانت رائحة الخضار تملأ المطبخ. لكنها كانت تحتفظ لي بفطوري ساخناً. كان يتألف من اللحم المقلي والبسكوت المسخن والثريد والزبدة والقهوة بحليب. وحسبت أنني كنت جائعاً فقط، لكنني غفوت فوق الصحن إلى أن جاء لكورغوس وحملني إلى فراشه في غرفة الاستراحة.

كان السيد كالدويل شخصية مهمة، على حد قول ند. فقد نزلت إفربي وأوتيس، قبل ظهر ذلك اليوم، من عربة قطار الشحن الذي كان يذهب إلى آلاباما ولا يتوقف حتى يصل إلى فلورنس. لكنه توقف

في بارشم إكراما للسيد سام كالدويل. ولا أعرف كم يلزم القطار من الفحم الحجري الإضافي لتفريغ الهواء، ثم لإشعال النار ثانية كي تصل سرعته إلى الحد المطلوب، فيعوض عن الوقت الذي صرفه في الوقوف في بارشم، وقد قال أوتيس إنها تعادل ثلاثة وعشرين رفشاً من الفحم.

وعندما أيقظني صوتٌ غريب، وربطت أم كيلورغوس الجورب على يدي المجروحة، وكانت قد نزعته قبل أن أغفو فوق الصحن، خرجتُ من الغرفة فوجدتهم هناك جميعاً.

كانت هناك عربة متوقفة أمام الباب، والعم بارشم يقف عند رأس الدرج الأمامي، وهو ما زال يعتمر قبعته، وند يجلس على الأخيرة، وكيلورغوس يقف في الزاوية بين رأس السلم والشرفة وكأنما كان هؤلاء الثلاثة يحاصرون البيت. وفي ساحة البيت قرب هؤلاء وقفت إفربي وأوتيس وبون والرجل الذي كان يتكلم بصوت مرتفع. كان رجلاً في ضخامة بون، بشعاً مثله، أحمر الوجه، وعلى صدره شارة شرطي، وفي جيبه الخلفي مسدس، وقد وقف بين بون وإفربي، التي كانت تحاول الإفلات من يده التي تمسك بذراعها. وكان الرجل يقول: نعم، أعرف بوسم هود الكبير، وبوسم هود يعرفني أيضاً. اليس كذلك؟ فقال العم بارشم، دون أن تسري إليه عدوى الصياح: كلنا هنا نعرفك يا سيد بطش. فوافق هذا وأمر ليكورغوس بإحضار كرسيين، واحدة منهما للآنسة إفربي التي كانت تحاول الإفلات منه.

وكنت في هذه الأثناء أراقب بون. وقال الغريب لإفربي: هل أنت متأكدة أنني لم أرك في مكان ما؟ عند بردي واط مثلاً؟ أين كنت تختبئين؟ أين تختبئ فتاة جميلة مثلك؟ وهنا نهض ند بهدوء وقال:

صباح الخير يا سيد بون، أتريد أنت والسيد أن يخرج لوشيوس الحصان؟ فتوقف بطش عن دفع إفربي، لكنه ظل ممسكاً بها. وقال: من هذا؟ نحن عادة لا نشجع على مجيء الزنوج الغرباء إلى هنا. مع ذلك لا نعترض، شرط أن يُعرِّفوا بأنفسهم ثم يقفلوا أفواههم. فقال ند: أنا ند وليام ماك كاسلن، من جفرسون ميسيسيبي. فقال الرجل: اسمك طويل جداً، يلزمك اسم بسيط وسريع تقوله هنا، إلى أن يصبح لك شاربان أبيضان ولحية قصيرة شائبة مثل العجوز بوسم. ولا يهمنا من أين أتيت. كل ما نحتاج إليه هو مكان ما نرجعك إليه. لكن يبدو أن سلوكك حسن. فلديك إدراك يكفي لمعرفة القانون. ثم قال لبون: هل تريد الحصان؟ فصرخت إفربي: كلا، وتخلصت من قبضة بطش واندفعت مسرعة بشكل لا يتناسب مع فتاة في حجمها. كانت تستطيع الإفلات قبل الآن بمجرد أن تلفظ اسم بون، وهذا ما كان يتمناه بطش ـ الوكيل أو الشرطي، لا أعرف ـ كلنا أيضاً عرفنا ذلك. لكنها اندفعت ووقفت بجانبي وقد جعلتني بينها وبين بطش، وأمسكت بذراعي. وشعرت بيدها ترتعد قليلاً عندما أمسكت بذراعي. وقالت لي. تعال يا لوشيوس، دلنا على الطريق. ثم قالت بصوت مضطرب، مفعم بالعاطفة: "كيف حال يدك؟ هل تؤلمك؟"

"إنها بخير".

"هل أنت متأكد؟ هل كنت تخبرني لو آلمتْك؟ هل أفاد وضعها في الجورب؟"

"إنها بخير. لو أنها تؤلمني لأخبرتك".

وذهبنا إلى الإسطبل. كانت إفربي تجرني لأبقى بينها وبين بطش. لكن هذا لم يُجدِها نفعاً. فقد أزاحني من طريقه، فاستطعت أن أشم رائحته. كانت خليطاً من رائحة عرق الجسم والوسكي، واستطعت أن

ألمح رأس زجاجة الوسكي يطل من جيبه الخلفي الثاني. وأمسك بطش بمرفق إفربي ثانية. وفجأة تملكني الخوف. فقد أدركت أنني لم أفهم إفربي جيداً، وكنت متأكداً أن بون لم يفهمها. كلاً، لم أكن خائفاً منه، لأننا كنا نستطيع، أنا وبون، أن ننتزع المسدس من جيبه الخلفي ونضربه. وإنما كنت خائفاً على إفربي والعم بارشم وعلى بيته وعائلته، إذا حصل ذلك. لكنني كنت أكثر من خائف ـ كنت أحس بالعار لخوفي على العم بارشم المضطر إلى العيش هنا وكرهت هذا الوضع كله. كرهناه جميعاً لكوننا ضحايا ضعفاء أمام الحياة، لاضطرارنا إلى البقاء أحياء. كرهتُ إفربي لكونها ضحية عاجزة، قابلة لتلقّي الأذى. وكرهت بون لأنه، هو أيضاً، أصبح عاجزاً وعرضة للأذى. وكرهت العم بارشم وكيلورغوس لوجودهما حيث اضطرا أن يقفا عاجزين، يراقبان البيض وهم يتصرفون بتعال وتبجّح، كما اعتادوا أن يتصرفوا حيال الزنوج. كرهتهم جميعاً مثلماً كرهت أوتيس حين أخبرني عن تصرفات إفربي في أركنساس. وكرهت إفربي التي عجزت عن أن تتمرد على كونها وسيلة مسخّرة للانحطاط الإنساني كما حدثّني عنه أوتيس. كرهت نفسي لأنني استمعت إلى ذلك الحديث وعرفت به وفهمته. ولم أكرهه لمجرد كونه قد حصل بالفعل، بل لأنه شيء حتمي ضروري يجب أن يحصل كي تستمر الحياة ويشارك النوع البشري فيها.

وفجأة تملّكني حنين إلى البلد، حنينٌ اعتصرني وعذبني. اشتقت إلى البيت، ليس إلى الذهاب فقط، بل إلى محو الوضع بكامله. فأجعل ند يُرجع الحصان إلى الرجل الذي أخذه منه ويستعيد سيارة جدي، فأرجع بها إلى جفرسون من حيث أتينا، ولو اضطررت إلى قيادتها في ذلك الطريق الترابي الموحش، عبر حفر الوحل، مروراً بصاحب البغلين المصابين بعمى الألوان، والآنسة بالنبو والبس، ولا

يعود لكل ذلك أي وجود بالنسبة لي. عندما ارتفع في أعماقي صوت هادئ واضح يقول: ولم لا تنفّذ هذا؟ كنت قادراً على ذلك. كل ما كان عليَّ فعله هو أن أقول لبون: سنرجع إلى البيت. وكان ند سيرجع الحصان، وكان اعترافي سيجعل الشرطة تعرف مكان السيارة وتعيدها لنا، ويكون ثمن ذلك كله خجلي. لكنني لم أفعل هذا؟ لأنني لم أعد أستطيع. كان أوان ذلك قد فات. ربما كان ذلك ممكناً في اليوم السابق، عندما كنت لا أزال طفلاً، لكن ليس الآن. كنت قد عرفت الكثير ورأيت الكثير، ولم أعد طفلاً. لقد فقدت البراءة والطفولة إلى الأبد.

وتملّصت إفربي ثانية. وفاتني أن أرى كيف حصل ذلك هذه المرة. كانت حرة، تواجهه. وكانت تقول شيئاً سريعاً بصوت غير مسموع، فلم يلمسها هذه المرة، بل كان ينظر وهو يبتسم ساخراً. وقال: "طبعاً، طبعاً. تجولي هنا قليلاً. قد يعجبني ذلك. ولعله يروق أيضاً للحلو". ثم قال لند: "طيب يا ولد، أرِنا الحصان". فقال لي ند: "أنت ابق هنا. سنحضره أنا وليكورغوس".

فوقفت قرب إفربي عند السياج. وقد عادت تمسك بذراعي. كانت يدها ما تزال ترتجف قليلاً. وخرج ند وليكورغوس يقودان الحصان. وتطلع ند ناحيتنا وقال بسرعة: "أين الآخر؟" فقال بطش: "لا تقل إن معك حصانين!"

لكنني فهمت ما عناه، وكذلك إفربي. فالتفتت بسرعة ونادت أوتيس، ولكنه كان قد اختفى. فقال ند لليكورغوس: "اركض" إن لم يكن قد دخل البيت بعد يمكنك أن تعيقه عن ذلك. قل له أن عمته تريد رؤيته. ثم ابق معه". ولم ينتظر كيلورغوس ليقول شيئاً، بل أعطى مقود الجواد لند وركض مسرعاً. ووقفنا نحن قرب السياج. وكانت إفربي تحاول أن تبقى دون حراك. كان هذا كل ما تستطيع أن تفعله

لتمحو آثار ماضيها. أما بون فقد كان هائجاً محتدماً، يجرب أن يتمالك أعصابه، وهو الذي لم يملك أعصابه في حياته أمام أي حدث. لم يكن الخوف هو السبب. ولم يكن خائفاً من المسدس أو الشارة: كان يستطيع أن ينتزعها من بطش ويقذف بالمسدس بعيداً، ثم يدفع بطش نحوه. كان ذلك، من جهة، بسبب ولائه. كان يحرص على أن يجنبني أنا وعائلتي نتائج معركة كهذه أياً كان المنتصر فيها. أما الدافع الآخر فكانت فروسيته: كان يريد أن يحمي امرأة، وإن مومساً، من مخالب السّفَلة الذين يستغلون شاراتهم للتسلط على جنسها العاجز.

وقال بطش: يا للشيطان، لا يمكنه أن يفوز في أي سباق بمجرد وقوفه هكذا مقيداً. اذهب. دعه يركض قليلاً فقال ند: أرسلنا في طلب فارسه. عندما يحضر يمكنك أن تراه وهو يركض. إلا إذا كنت مضطراً للعودة بسرعة. فقال: إلى أين؟ فأجاب: "إلى عملك في خدمة القانون، في بوسم أو حيثما كان". فقال: "بعد أن قطعت كل هذه المسافة لأرى حصان سباق؟ ولكنني لم أر غير لوح نصف مائل!" فأجاب ند: "سرّني أنك أخبرتني بهذا. حسبتك غير مهتم للموضوع". ثم التفت إلى بون وقال: "لذلك ربما كان من الأفضل أن تذهب أنت والآنسة كوري إلى البلدة لانتظار الآخرين في المحطة. يمكنك أن ترسل العربة للسيد بطش ولوشيوس والصبي الآخر، بينما نكون قد روضنا لايتنينغ في هذه الأثناء".

فضحك بطش ساخراً. ثم تحرك إلى حيث يقف بون وراح يراقبه بينما وجّه كلامه إلى ند: "لا أقدر أن أدع هذا الفتى الحلو يذهب وحده. يجب أن ألازمه وإلا أثار المتاعب. لدينا هنا قانون يمنع إخراج الجميلات خارج حدود الولاية لما يدعونه غايات خليعة. والفتى غريب هنا، ولا يعرف أين يقع حدّ الولاية، قد تحيد قدمه عندما يكون ذهنه غارقاً في شيء آخر. أليس صحيحاً يا فتى؟

وضرب بون على ظهره، كما يضرب الرجال المرحون بعضهم بعضاً، لكن هذه كانت أشد قليلاً. ولم يتحرك بون بل ظلت يداه ممسكتين بقضبان البوابة العلوية. كانت الشمس قد أحرقت يديه وصبغتهما الأقذار فلم تبيضا وهما تشدان على القضبان. لكنني رأيت عضلاتهما، كما رأتها إفربي كذلك، فصاحت تنادي بون بصوت خافت. وقال العم بارشم بسرعة: "ها قد أتى الصبي الآخر".

كان أوتيس قادماً عند زاوية البيت، وقد ظهر ليكورغوس خلفه وكأنه أطول منه مرتين. وكان ند يحدّق فيه بحدة. وتقدم أوتيس بلطف، وقال على مهل: "هل أرسل أحدكم في طلبي؟"

فقال ند: "أنا أرسلت في طلبك. لم أرك من قبل في ضوء النهار. وقد أغير رأيي". ثم قال للكيورغوس أن يتقدم الجميع.

وهكذا توجهنا جميعاً إلى المرعى نتبع ليكورغوس وند نحو الحلبة. حتى بطش نفسه أبدى اهتماماً بالموضوع الذي كان يشغلنا. ولعله كان يتيح لإفربي فرصة كي تستريح وتجمع قوتها كي تهجم على تلك النجمة الصغيرة المعلقة فوق قميصه المبلل بالعرق. وعندما وصلنا إلى الحلبة كان ند وأوتيس يقفان متواجهين، ووقف ليكورغوس خلفهما ممسكاً بالحصان.

وكان ند يبدو متعباً. فقد ظل مستيقظاً طوال الليل، إلا إذا كان قد نام مدة ساعة فوق القش في عربة القطار. لكنه لم يكن منهكاً بسبب قلة النوم، بل كان منزعجاً وحسب. وقال وهو ينظر إلى أوتيس: "ولد مطّلع. مطّلع أكثر من أي صبي رأيته. آمل، حين تبلغ ضعفَي عمرك أن تبقى لديك نصف خبرتك". فشكره أوتيس. وسأله ند إذا كان يمكنه أن يمتطي حصاناً، فأجاب: "كنت أعيش في مزرعة في أركنساس منذ سنوات عديدة. والآن كم ستدفعون لي لامتطي الحصان؟" فصاحت به

إفربي، لكن ند قال بلطف: "لم نصل إلى ذلك بعد. يجب أولاً أن تصل في الطليعة بعد الأشواط الثلاثة، أو في اثنين منها على الأقل. ثم نفكر في المبلغ الذي سندفعه لك". وقال أوتيس: "هه، هـه، هـه. أي أنـك لا تقدر أن تدفع قبل أن يفوز الحصان. ولا تقدر أن تربح ما لم يركـب الحصان شخص ما ـ وهو أنا. أليس هذا صحيحاً؟".

فصاحت بي إفربي، لكن ند تابع قائلا: "هذا صحيح، كلنا نعمل شراكة. لذلك سنقتسم جميعنـا المبلـغ فيمـا بعـد. وعلـى حصتك أن تنتظر شأن حصصنا". على أن أوتيس مانع في ذلك، فسأله نـد: "وكـم تريد؟" فأجاب أوتيس:

"لن يروق لك طلبي، لأن الحصان لم يـركض في الـشوط الأول بعد، فضلاً عن الفوز في السباق. لكـنني سـأخبرك بـصورة شخـصية. لنقل عشرة دولارات".

وطلبـت إفـربي مـن أوتـيس أن يخجـل مـن نفـسه، ولكـن نـد استمهلها وأخرج كيساً مـن جيبـه وفتحـه وأخـرج منـه حافظـة نقـوده المهترئة وفتحها قائلاً لليكورغوس أن يمد يده فمدّ لكيورغـوس يـده، فوضع ند في كفـه سـتة دولارات مهترئـة، ثم عـدّ قبضة مـن القطـع المعدنية المنوّعة. وقال أن المبلغ يـنقص خمـسة عـشر سـنتاً، ولكـن السيد هوجانبك سيدفع له هذه القيمة. فقال أوتيس: "أية قيمة؟".

"القيمة التي تتمم المبلغ الذي حددته. أي عشرة دولارات".

"يبدو أنك لا تسمع. قلت عشرين دولاراً".

وهنا تحرّك بون قائلاً: "أيها اللعـين!" فأشـار عليـه نـد أن ينتظـر قليلاً. وأخذت يده تسترجع قطع النقود من يـد ليكورغـوس وتـضعها في المحفظـة، ثم تـضع المحفظـة في الكـيس، وترجـع الكـيس إلى الجيب. ثم قال لأوتيس:

"إذن لن تمتطي الحصان؟".

"لم أر أجرتي بعد".

"السيد بون هوجانبك يستعد أن يدفع لك الآن أي مبلغ تطلبه. لكن لماذا لا تتكلم كالرجال وتقول إنك لا تريد أن تقود الحصان؟ نحن لا يهمنا السبب". ونظر واحدهما إلى الآخر. فقال أوتيس:

"لا. لن أقود هذا الحصان". ثم قال شيئاً آخر، شيئاً بذيئاً وهو من طبيعته، شيئاً خبيثاً وهو من طبيعته، شيئاً غير ضروري مطلقاً وهذا أيضاً من طبيعته. وهذه المرة أمسكت به إفربي وهزته بشدة. فسبّها وقال:

"حاذري. لم أُنْهِ كلامي بعد". فقال بطش: "مُرْني فأضربه حتى أخرج الشياطين منه. أضربه لا حباً بالضرب، بل مبدئياً؛ لا أعرف كيف سمح له هذا الفتى الحلو أن يتمادى إلى هذا الحد، دون أن يضربه ضربة واحدة". فقالت إفربي وهي تقبض على ذراع أوتيس: "كلا. سيذهب إلى البيت في أول قطار يمر من هنا". فأجاب أوتيس: "هذا كلام معقول. لولاك كنت هناك الآن" فأفلتَتْه وقال: "عد إلى العربة". لكن بون تدخل بسرعة قائلاً: "لا يمكن أن تجازفي. ستضطرين للذهاب معه. حسناً، اذهبوا كلكم إلى البلدة. يمكنكم أن ترسلوا في طلبنا أنا ولوشيوس عند المغرب". لقد فهمت ماذا كان يعني، وأية فكرة صارع حتى توصل إلى هذا القرار. لكن بطش خدعنا. وقال: بالتأكيد أرسلوا في طلبنا. فذهب كلٌّ من إفربي وأوتيس، فقال بطش: الآن وقد سُوِّيَت تلك المسألة، فمن سيقود الحصان؟ فأجاب ند: هذا الصبي. فهذا الحصان يحتاج إلى فارس بيد واحدة. فقال بطش وكان يضحك هذه المرة فعلاً: هه، هه، هه. رأيت هذا الحصان يركض في الشتاء الماضي. إذا كانت يد واحدة تقدر أن توقظه، فإنه يحتاج إلى أيد أكثر من أيدي العنكبوت كي يسبق حصان

الكولونيل لنسكومب. فقال ند: "قد تكون مصيباً. هذا ما سنكتشفه الآن". ثم قال لليكورغوس: "يا بني، أعطني معطفي". ولم أكن قد لاحظت المعطف بعد، وكذلك القضيب المقشر. ولبس ند المعطف وقال لبون وبطش: "اذهبوا جميعاً واجلسوا هناك في فيء الأشجار مع العم بوسم كي لا تلفتوا انتباه الحصان ثم قال لي: أعطني قدمك. فعلت، وقذفني على ظهر الحصان، بينما ذهب بون وبطش وليكورغوس إلى فيء الأشجار حيث يجلس العم بارشم.

ومع أننا لم ندُر سوى دورات ثلاث حول الحلبة ذلك الصباح فقد رسمنا معالم طريق يمكن أن يتذكرها لايتنينغ. وقاده ند إلى النقطة التي بدأنا منها في الصباح، وراح يكلمه بهدوء ودونما انقطاع. لم يكن العم ريموس في تلك اللحظة. ولم يكن قط كذلك حين لا يكون إلى جانبه غيري وغير أفراد جنسه. قال لي: "المسافة المحددة للسباق ليست أكثر من نصف ميل، لذلك يجب أن تدور حوله مرتين. وهي مثل هذه الأرض تماماً، لذلك حين يرى الحصان الحلبة الحقيقية غداً، يجدها مألوفة لديه، ويعرف كيف يتصرّف. مفهوم؟".

ـ نعم. أقوده في دورتين حول الحقل.

فأعطاني القضيب وقال: "دعه ينطلق بأقصى سرعته، فاجئه بضربة شديدة، ولا تلمَسْه ثانية حتى أقول لك إلكزه بكعبيك، وكلِّمه، لكن لا تثقل عليه: ما عليك إلا أن تجلس حيث أنت. ركِّز كل انتباهك على أنك ستدور دورتين، وحاول أن تجعله يركِّز انتباهه على ذلك، كما كنت تفعل مع جياد ماك كاسلن. لا يمكنك أن تفعل مثل ذلك الآن، لكن هذه المرة بيدك قضيب. إنما لا تلمسه به حتى أقول لك". وأدار ظهره. كان يفعل شيئاً ما متستراً بمعطفه. كان يخبئ في يده شيئاً دقيقاً، وفجأة شممت رائحة كان يجب أن أعرفها فوراً،

إذ لم يكن لديّ متّسَع من الوقت آنذاك. واستدار ند نحونا، ولامَس خياشيم لايتنينغ كما فعل صباحاً عندما أدخله إلى عربة القطار. وبعد أن لامست يداه خياشيم الحصان تراجع محاولاً أن يتبعه، لكنني شددت اللجام وحولته عنه. وصرخ به ند: "إذهب". ثم قال لي أن أضربه. وعندما ضربته قفز إلى الأمام من الخوف، وقد استغرق نصف خطوة كي يرجع رأسه. واجتاز خطوة أخرى قبل أن يدرك أننا نريده أن يتبع الطريق نفسه، ثم انطلق بأقصى سرعته، ولم أُرْخِ له إلا القليل من العنان لأبقيه في الخط. كنت أدقّ كعبيّ بخاصرتيه، حتى قبل أن يتبدد خوفه. وحصل ما حصل في الصباح: كان يركض جيداً، بانقياد كافٍ، وقوة عظيمة، لكنني شعرت كما شعرت في الصباح بأن رأسه لا يريد التحرك إلى أي مكان، حتى بدأنا شوط العودة ورأى ند في الطرف الآخر للحلبة. آنذاك انتزع اللجام مني، وشرد عبر الحقل في خط مستقيم باتجاه ند، قبل أن استعيد توازني وأنحني لأستعيد اللجام بيدي السليمة وأشده لأرجعه إلى مسار السباق. كان عليَّ أن أبقيه على طرف الحلبة وأوجهه ليمضي في شوط الذهاب من نقطة تمكّنه من رؤية ند ثانية، وللمرة الثانية اتّجه نحو ند، فاضطررت لاستعمال كلتا يدي لَأبقيه في الخط، وبدا لي ذلك دهراً إلى أن تكلم ند قائلاً:

ـ اضربه ثم ارم القضيب.

وهكذا فعلت، ثم رميت القضيب. وقفز ثانية؟ لكني ملكت زمامه هذه المرة لأن العملية اقتصرت على اللجام الخارجي فقط لإبقائه في الخط المعين أثناء شوط الذهاب. وأعددت العدّة لجموحه عندما يقع نظره على ند. واستمر في سرعته إلى أن بلغنا نهاية الشوط، وهناك كان ند يقف على بعد عشرين ياردة خلف خط الوصول، وتكلم بصوت مرتفع كي يسمعه الحصان، وكانت لكلامه نفس النغمة

التي كلمّه فيها في عربة القطار الليلة. ولم أكن بحاجة إلى القضيب لأنه لم يكن هناك مجال لاستعماله. كنت حتى تلك اللحظة أحسب أنني امتطيت على الأقل حصاناً واحدا مهماً: كان حصاناً نصف بري، نصف أليف من أحصنة ابن العم زاك. لكنه لم يكن لديه شيء من هذا الاندفاع والعجيج، وكأننا كنا حتى الآن نشد حبلاً ربطت إلى نهايته حزمة حطب، حتى علا صوت ند وقطع الحبل إذ قال: هيا يا بني، أعددتها لك.

وهكذا توقفنا هناك؛ ودفن لايتنينغ وجهه بين يدي ند. ولم أشم آنذاك غير رائحة الحصان، ولم أر غير باقة من العشب راح يلتهمها وند يقول: هه، هه، هه. وصاح بون وهو مقبل: "ماذا قلت له؟"

- "لا شيء، سوى أنه كان يريد عشاءه فليسرع ليتناوله". وتقدم بطش ورفع شفة الجواد وتفحص نيرة أسنانه، ثم نظر إلى عينيه وقال: "ألا تعلم أن تخدير الحصان المعد للسباق مخالفة قانونية؟ لعلكم أنتم الذين تعيشون في مستنقعات ميسيسيبي لم تسمعوا بذلك، لكنه قانون سارٍ هنا". فأجاب ند:

"نحن أيضاً عندنا أطباء في ميسيسيبي. أرسل في طلب بيطري ليفحصه ويرى إن كان مخدراً". ثم قال لي أن أُرجع الحصان إلى الإسطبل.

"ودعه يبرد. بعد ذلك سنغسله".

وراقب بطش هذه العملية أيضاً. ورجعت إلى الإسطبل وجاء ليكورغوس بدلو ماء وخرقة، ثم غسل الحصان ونشّفه قبل أن يربطه ويقدم له العلف. وهنا طلب بطش من لكيورغوس أن يذهب إلى البيت كي يحضر له ماء وسكراً ويضعهما على الشرفة الأمامية، لأنه

يريد أن يشرب وسكي مع الصبي الحلو. لكن ليكورغوس لم يتحرك حتى أمره العم بارشم بذلك. فذهب يتبعه بون وبطش. ووقف العم بارشم على باب الإسطبل يراقبهما. أعني يراقب بطش. وكان العمّ بارشم شيخاً نحيلاً دراماتيكياً، يتجاوز في هيئته الأسود والأبيض، إذ كان يرتدي بنطلوناً أسود وقميصاً أبيض. كان وجهه أسود وقبضته سوداء فوق شعر أبيض وشاربين ولحية بلون أبيض.

قال: "قانون". قال هذا بهدوء وبرود، وازدراء. فقال ند:

"رجل لا علاقة له بمعنى الشارة التي يحملها" إلا أنها تركب رأسه بسرعة تجعل رأسك أيضاً يدور".

وهنا عاد لكيورغوس وقال لي:

"إنهم ينتظرونك. العربة".

"هل عادت من البلدة الآن؟"

"لم تذهب إلى البلدة قط. لم تبتعد. كانت جالسة مع ذلك الصبي بانتظاركم "وقد أرسلني في طلبك فاستوقفني ند: كان الجورب ما يزال في يدي وحسبت أنه يعنيه، لكنه لم يهتم به وظل يحدق فيّ ثم قال: "ستصطدم بالناس الآن". فسألت: "أي ناس؟"

"لقد انتشر خبر هذا السباق الآن".

"كيف انتشر؟"

"وكيف تنتشر الأخبار؟ لسنا بحاجة إلى رسول. كل ما نحتاج إليه جوادان يبعدان أحدهما عن الآخر، عشرة أميال. كيف تتصور بأن القانون جاء إلى هنا؟ ربما لأنه شمّ رائحة الصبية عن بعد أربعة أميال أو خمسة مثل كلاب الصيد. كل ما رجوته هو أن ندخل السباق بهدوء

ودون ضجة، ولا فرق بعد ذلك ربحنا أم خسرنا. فإما أن نرجع إلى البيت، أنا وأنت وبون أو نذهب حيثما شئنا، شرط ألا تطالنا يد الرئيس بريست. لكن لم يعد الأمر سراً. سنلتقي بهم من الآن فصاعداً، وسيكونون غداً أكثر ازدحاماً".

"تعني أن بإمكاننا دخول السباق؟"

"يجب أن ندخله. ربما صرنا مضطرين إلى ذلك منذ أن اعتقد بون أن الرئيس قد نفض يده من قضية السيارة منذ أربع وعشرين ساعة. الآن لا بد من دخول السباق".

"ماذا تريدني أن أفعل؟".

"لا شيء. أردت أن أخبرك فقط، كي لا تفاجأ. كل ما علينا هو أن نحصل على جوادين يركضان في خط واحد ويتجهان جهة واحدة، فتعتلي أنت ظهر لايتنينغ وتفعل كما أخبرتك. إذهب الآن قبل أن ينادوك".

الفصل التاسع

كان ند على صواب. أعني فيما يتعلق بنشر الأخبار. لم يكن في يدي شيء غير عادي عندما نزعت عنها إفربي جورب الركوب. أعني أنها كانت مثل أية يد أصابها جرح على طول الأصابع في الليلة البارحة. ولا أعتقد أنها نزفت، حتى حين استعملتها لشد لايتنينغ، عندما جمح بعد ظهر اليوم، لكن كان لإفربي رأي آخر. وهكذا توقفنا عند طبيب، يبتعد بيته حوالي ميل. كان بطش يعرفه ويعرف مكانه. ولا أعرف كيف أقنعته إفربي بأخذنا إليه. أو ربما لم تكن إفربي هي التي أقنعته، بل زجاجة الخمر الفارغة. ذلك لأن الكأس الثانية كان يجب أن تشرب في فندق بارشم. ذلك أنني حين اقتربت من البيت، رأيت أم ليكورغوس واقفة على طرف الشرفة وبيدها سكرية وذلو ماء وقرعة يقطين مفرغة. وكان بطش وبون يحتسيان آخر قطرة من الخمر، بينما كان ليكورغوس يلتقط الزجاجة الفارغة التي رماها بطش في عليّقة مزهرة.

وهكذا قادنا بطش إلى بيت الطبيب - كان بيتاً صغيراً أبيض وسط ساحة صغيرة ملأى بالأزهار المغبرة، التي تتفتح في أواخر الصيف وفي الخريف. واستقبلتنا امرأة بدينة رمادية الشعر تضع نظارتين على أرنبة أنفها، وتبدو مثل معلمة متقاعدة، ظلت تكره الأولاد حتى بعد تقاعدها بخمس عشرة سنة. وحالما رأتنا التفتت نحو داخل البيت ونادت: إنهم جماعة حصان السبق. إذن كان ند على صواب. ودخل بطش قبلنا وقال: مرحباً أيها الطبيب! جئتك بمريض.

كان الطبيب رجلاً رمادي الشعر يلطخ لحيته عصير التبغ، يرتدي قميصاً أبيض كقميص ند، لكنه لم يكن في نظافة قميص ند. كما كان يرتدي سترة سوداء عليها بقعة مشرورة من آثار صفار البيض. كانت رائحته تشبه شيئاً، ليس كالكحول، أو بالأصح لم تكن كلها كحولاً. وقال بطش: "أنا والأخ هوجانبك سننتظر هنا في الردهة. لا تزعج نفسك، أعرف أين زجاجة الوسكي". ثم قال لبون:

"لا تقلق بشأن الطبيب. إنه لا يمس الوسكي إلا عند الضرورة. فالقانون يسمح له بحفنة مخدر لكل مريض كجزء من العلاج، سواء كان مرضه جرحاً أو كسراً في العظم. فإذا كانت الحالة مجرد جرح قديم أو إصبع مفزور كهذا، فإن الطبيب يتقاسم العلاج مع المريض فيشرب كل المخدر ويترك للمريض كل العلاج. هه، هه، هه، من هنا".

وهكذا ذهب بطش وبون إلى الردهة بينما تبعنا، أنا وإفربي، الطبيب إلى غرفة فيها أريكة من وبر الجياد تعلوها وسادة قذرة. وكانت هناك مكتبة تعلوها زجاجات الأدوية، وعلى أطرافها رماد نيران الشتاء الماضي، الذي لم يمسسه أحد. كما كانت هناك مغسلة عليها طست وإبريق لم تفرغ ماؤه منذ مدة طويلة. ولو أن أمي كانت موجودة، لما سمحت له بلمس جرح في إصبعها. ويبدو أن إفربي كانت تفكر على طريقة أمي، فسارعت بنزع الضماد عن يدي. كانت بحالة جيدة كما قلت. ونظر إليها الطبيب من وراء نظارتيه، ثم سأل إفربي عما وضعت عليها، فأخبرته. فقال لها الطبيب: كيف تيسر لك ذلك؟ ثم رفع النظارتين ونظر إليها، ثم أعاد النظارتين وتنهد ثم قال: لم أزر ممفيس منذ خمس وثلاثين سنة. نعم، خمس وثلاثون... لو أنني مكانك لما فعلت لهذا الجرح شيئاً. ثم قال لي: هل أنت الصبي الذي سيمتطي الحصان غداً؟

فأجابته إفربي بالإيجاب، فقال: تغلّب على حصان لنبسكوب هذه المرة ـ لعنه الله. فهزت إفربي برأسها موافقة واستفهمت عن المبلغ الذي يطلبه بدل المعاينة. فقال الطبيب أن لا داعي لذلك، لأنها هي التي عالجت الجرح وشفته. فعادت إفربي تلح على الدفع لمجرد أنه طمأننا عن حالة الأصابع. ولكن الطبيب أصر على رفضه. ونظر إليها من وراء نظارتيه، بعينين واسعتين غير مركزتين على شيء معيّن وقال لها:

"لو أن معك منديلاً إضافياً أو شيئاً ما... نعم، خمس وثلاثون سنة. كان لديّ واحد عندما كنت شاباً، منذ خمس وثلاثين سنة. بعد ذلك تزوجت و... نعم، خمس وثلاثون سنة!"

وأدارت إفربي ظهرها وانحنت، فسمعت حفيف ثوبها الذي لم يكن طويلاً. ثم سمعت الحفيف ثانية حين وقفت واستدارت وفي يديها ربطة ساقها. وتناهى إلينا صوت بطش المرتفع ونحن خارجون. وكان يقول: ما قولك؟ هذا الصبي الحلو لا يرغب في كأس أخرى، حين يكون الشباب يتخاطفون الشراب. لقد أهانني!

ثم وقف ينظر إلى بون باستهزاء ويبتسم بتسلط وانتصار. أما بون فقد كان منظره مخيفاً تلك اللحظة. وكان ند مرهقاً لقلة النوم. إنما كان على ند أن يحمل عبئاً واحداً هو الحصان، بينما كان على بون أن يحمل إفربي والشارة التي على صدر بطش، وأن يظلا عبئه الثقيل وشغله الشاغل. وكان بطش ما يزال يضحك. وهمّ بأن يضربه على ظهره مرة أخرى ممازحاً، لكن بون أوقفه هذه المرة، وقال له: لا تُعِدْها! فتوقف بطش، ولكنه ظل يبتسم ساخراً وقال لبون: أسمي لف ميدن، إنما يمكنك أن تناديني بطش. فقال بون لف ميدن!

وسألنا بطش عما إذا كان الطبيب قد عالجني كما يجب. واقترح بون أن نذهب، فخرجنا. حينئذ سألت إفربي عن أوتيس، فأخذت تناديه، لكن بهدوء ودون إلحاح. فقال بون إنه ربما سبقنا، إذ أين يمكنه أن يذهب هنا. وقال إننا سندركه في الطريق ونأخذه معنا؛ ولم يفُتْه أن ينعته بابن الكلبة وابن المومس. وصعدنا إلى العربة وأجلستني إفربي قريباً، حيث كان يجلس أوتيس. ولم أجد في حياتي شخصاً يفقد ثقة الناس بهذه السرعة. إذ لم يكن في العربة من يثق به. ولو قضى في بارشم وقتاً طويلاً، لارتابت به البلدة كلها.

وصلنا إلى الفندق. وهناك اكتشفت أن ند كان على خطأ، أعني بصدد تقاطر الجماهير لمشاهدة السباق. فقد توقعت أن أجد شرفة الفندق مزدحمة بمتفرجين ينتظرون مشاهدتنا عندما نصل. لكنني لم أر أحداً. كان يمكن أن يحصل ذلك في الشتاء، في موسم الصيد، لا في الصيف. لبارشم فصل صيف، لأن الناس يذهبون إلى أماكن أخرى. لم تعد الحال هكذا في هذه الأيام. إذ ما حاجة الناس إلى الاصطياف أو الاشتاء، ما دامت أجواء البيوت تكيّف فتنخفض الحرارة كثيراً في الصيف، وترتفع كثيراً في الشتاء، حتى أن أمثالي يضطرون للخروج منها هرباً من بردها في الصيف وهرباً من حرها في الشتاء. وكذلك السيارات. فقد كانت من قبل ضرورة اقتصادية فصارت اليوم ضرورة اجتماعية. لم نكن إذن في موسم نشاط البلدة ـ موسم الصيد والمسابقات الوطنية ـ حين يعج الفندق الفخم بالزوار من ذوي الثروات والألقاب، وبالخدم ومظاهر الأبّهة، حين يكون موشّى بألوان البنود المختلفة، وتختلط في أرجائه أصداء الكؤوس الفضيّة ببريق المال والأصوات التي تتحدث بلذة وشهية عن المال.

وهكذا، فحين بلغنا الفندق لم نجد شيئاً من هذا كلّه. كان الشارع الهادئ خالياً إلا من غبار شهر أيار. كان خالياً حتى من أوتيس، الذي ربما كان داخل الفندق. ولكن شدّ ما أدهشني أن يتغيب بطش. فقد أوصلنا إلى الباب واستدار راجعاً ليلقي نظرة ساخرة قاسية على أفربي وأخرى على بون. غير أن أفربي ردت على نظرته بعبارة لا تقل قسوة وسخرية:

"لا تشغل بالك سأرجع. إذا كانت لديك مشاغل معلّقة، فالأفضل أن تحلها قبل أن أرجع. وإلا وقع حادث ما".

ولكنه تابع طريقه. ربما كان لديه مكان يذهب إليه هو أيضاً. كنت ما أزال جاهلاً وبريئاً (ليس بقدر جهلي وبراءتي منذ أربع وعشرين ساعة) لكنني كنت في جانب بون، وإنما ليس في ما يتعلق بإفربي. وكنت قد جمعت معلومات منذ البارحة، سواء هضمتها أو لم أهضمها بعد، تجعلني أتمنى أن تكون له زوجة في المكان الذي ذهب إليه، زوجة بريئة اختُطفت من أحد الأديرة، حيث كانت بلا صديق أو أحد يثأر لها حين يُغَدر بها. لقد تمنيت هذا ليتضاعف وزن بطش في الدناءة والقسوة الفطرية. لكنني كنت مخطئاً، إذ كان بطش عازباً.

ولم نجد أوتيس داخل الفندق. ولم يكن فيه غير كاتب يجلس في ردهة نصف معتمة، وخادم يعبث بفوطته وهو واقف بباب غرفة الطعام التي لم يكن فيها غير مائدة واحدة، أُعِدّت لمناسبات كهذه. ولم يكن أوتيس هناك أيضاً. وشعر بون بتساؤلنا عنه فقال: لست مهتماً بمكان وجود أوتيس الآن، ولا بما يكون قد ارتكبه دون علمنا. فقالت إفربي: لم يرتكب شيئاً. إنه ولد.

"نعم، ولد صغير مسلح! ولكنه عندما يكبر، يستطيع أن يسرق..". فقاطعته إفربي تحاول إسكاته، غير أنه استأنف كلامه قائلاً:

"حسنا، حسناً. إذن، اجمعي مالاً يكفي كي يشتري سكيناً طول نصلها ستة بوصات بدل تلك السكين الصغيرة. فيصبح على كل من يدير له ظهره أن يلبس واحداً من تلك الدروع التي تغطي الجسم كله، كالتي ترينها في المتاحف". ثم قال بعد لحظة: "يجب أن أكلمك. سنتعشى حالاً، ثم ننتظر القطار. لأن ذلك الحصان الذي يضع شارة من تنك سيأتي في أية لحظة". ثم امسك بذراعها وقال لها تعالي.

جرى ذلك عندما بدأت أصغي لبون. أعني عندما اضطررت. وقد أجبرتني إفربي على ذلك، حين رفضت أن تذهب معه بدوني. فذهبنا إلى ردهة السيدات. ولم يكن أمامنا متسع من الوقت: كان علينا أن نتناول العشاء بسرعة ثم نذهب إلى المحطة لاستقبال الآنسة ريبا. ففي تلك الأيام لم يكن باستطاعة النساء الدخول والخروج من غرف الرجال في الفنادق كما يفعلن اليوم. بل لقد سمعت أنهن ينتقلن مرتديات ما تسميه الجرائد بـ "الشورت" أو الثياب القصيرة التي تعطي المرأة الحرية التي تحتاج إليها في نضالها من أجل التحرر. والحقيقة أنني لم أر في حياتي امرأة تدخل فندقاً بمفردها (لم تكن أمي تذهب بدون أبي) وما زلت أذكر كم استغربت أن تستطيع إفربي دخول الفندق دون خاتم زواج. كان للفنادق آنذاك ما يدعى بردهة السيدات، وهي عبارة عن صالة صغيرة مؤثثة بشكل فخم. وحين بلغناها كنت ما أزال بجانب بون، لذلك لم أدخل بل بقيت خارج الباب، بحيث تعرف إفربي أين أكون وتستنجد بي عند الحاجة دون أن تضطر إلى الصراخ. لذلك سمعت، بل أصغيت. كنت مضطراً إلى ذلك على أية حال. وكنت قد سمعت الكثير من القذارات وحقائق الحياة كي أصبح عاجزاً عن التوقف الآن. لذلك سمعت. كانت إفربي تتكلم:

"كلا! لا أريد! اتركني".

"لكن، لماذا؟ قلتِ إنك أحببتني. هل كنت تكذبين عليَّ؟".

"احبك. لهذا لا أريد. اتركني! افلتني! لوشيوس! لوشيوس".

"اسكتي. اسكتي".

ثم ساد صمت قصير. فلم أنظر، ولم أوصوص، بل اكتفيت بالإصغاء:

"إذا لاحظت أنك تخدعينني وتهتمين بذلك اللعين صاحب شارة التنك..".

"كلا! كلا! أبداً". ثم تبادلا كلاماً لم أستطع سماعه إلى أن قال بون:

"ماذا؟ تركتِ؟ ماذا تعنين بقولك تركتِ؟"

"نعم! تركت! لن أفعل ذلك بعد الآن! أبداً!"

"كيف ستعيشين؟ ماذا ستأكلين؟ أين ستنامين؟"

"سأجد عملاً. أقدر أن أشتغل".

"بماذا تستطيعين أن تعملي. لست متعلمة أكثر مني. ماذا يمكنك أن تعملي لتكسبي عيشك؟"

"أقدر أن أغسل الأطباق. أقدر أن أغسل وأكوي. أقدر أن أتعلم الطبخ. أقدر أن أقطف القطن. دعني أذهب يا بون، أرجوك، أرجوك. يجب أن أتركك، ألا ترى ذلك؟"

ثم سمعت وقع أقدامها وهي تركض، بالرغم من سماكة السجادة، وهكذا أمسك بي بون هذه المرة. لم يكن منظر وجهه مُسراً. كان ند محظوظاً. كان لديه همّ واحد، هو السباق، وقال بون ووجهه

يكاد ينفجر: "انظر إليَّ. انظر إلي جيداً. ما عيبي؟ بحق الشيطان ما علتي؟ كنتُ عادة..". وازداد احتقان وجهه ثم تابع: "لكن لماذا أنا؟ بحق الشياطين لماذا تختارني من بين كل الناس لتهتدي على حسابي. إنها مومس. لماذا لا تفهم هذه الحقيقة؟ إنها تقبض أجرتها لتكون ملكي منذ أن تضع قدمها حيث أكون، تماماً كما يستخدمني الرئيس والسيد موري وأكون تحت تصرفهما منذ أن أضع قدمي حيث يكونان. لكنها تركت، ولأسباب خاصة. لا يمكنها أن تعود كما كانت. ولا يحق لها أن تترك دون موافقتي..". ثم توقف عن الكلام. كان مهتاجاً وخائباً. وكان يرغي ويزبد لكنه كان عاجزاً، بل كان مذعوراً.

وتوقف عندما وقف الخادم الزنجي بالباب يلوّح بفوطته. لقد بذل بون مجهوداً عظيماً. ولقد كان ند مرتاحاً، إذ لم يكن عليه إلا أن يكسب السباق. ثم أخبرني بون برقم غرفتها وسألني أن أذهب وأدعوها للعشاء، لنتمكن من ملاقاة القطار.

فذهبتُ ودعَوْتُها، لكنها رفضت أن تخرج. وهكذا أكلنا وحدنا، أنا وبون. لم يكن وجهه قد هدأ بعد، فكان يأكل بشكل آلي، دون أية رغبة في الطعام أو نفور منه. فقلت له بعد لحظة: لعله في طريقه إلى أركنساس. فأجاب بون: أكيد. لعله سبقها ليجد لها وظيفة، أو لعله هو نفسه اهتدى، فيذهبان معاً إلى السماء مباشرة دون أن يتوقفا في أركنساس أو غيرها. نعم، سبقها ليجد طريقة تمكنها من المرور بممفيس دون أن يراهما أحد.

وكان وقت الذهاب قد حان وحين جاءت إفربي، أخذت أراقب طرف تنورتها من وراء باب غرفة الطعام. ثم ذهبنا نحن الثلاثة باتجاه المحطة. لم يكونا يتخاصمان الآن بل كانا يستطيعان أن يتبادلا الكلام، إنما كان على بون أن يأخذ المبادرة. واقتربنا من المحطة، ولم يبق لنا

إلا أن نقطع خط السكة لنصل إلى الرصيف. واقترب القطار. ومرت أمامنا القاطرة ترعد والشرر يتطاير من فراملها، ثم توالت مقطورات الركاب وبينها المقطورة الخاصة ثم تلتها مقطورة الشحن.

كان هذا قطار سام كالدويل. وإذا كانت إفربي وأوتيس قد جاءا إلى بارشم بقطار شحن، فإن الآنسة ريبا ستكون في قاعة الاستقبال، هذا إن لم تكن في مقطورة رئيس الجمهورية الخاصة. ووقف القطار ولم تفتح أية مقطورة، ولم نشاهد حمّالين يرتدون المعاطف البيضاء. ومع هذا، فقد كنا متأكدين أن سام يبحث عنا. وفجأة قال بون: يا للشيطان، إنه في عربة التدخين. وانطلق يركض.

عند ذاك رأيناهم. كان السيد كالدويل على الدرج يساعد الآنسة ريبا على النزول، ومعها امرأة تتبعها. ولم تنزل من عربة التدخين بل من العربة التي يسافر فيها الزنوج. واقتربت المرأتان ووقفتا على رصيف المحطة قرب الحقائب. كانت الآنسة ريبا جميلة أنيقة اللباس، وبقربها تقف ميني، كأنها الموت. وقالت الآنسة ريبا: حصلت لنا متاعب، أين الفندق؟ فذهبنا إلى الفندق، وهناك في ضوء الردهة استطعنا أن نرى وجهها. لم يكن يشبه الموت ـ فالموت هادئ مسالم ولم يكن في وجهها ما يوحي بأي هدوء أو سلام. وجاء كاتب الفندق فقالت الآنسة ريبا: أنا السيدة بنفورد، هل وصلتك برقيتي التي طلبت فيها إضافة سرير في غرفتي لخادمتي؟ فأجابها: نعم، يا سيدة بنفورد. عندنا جناح خاص بالخدم مع غرف طعام خاصة بهم. فقالت: أبقها لغيرنا. قلت أريد سريراً إضافيا في غرفتي. أريدها أن تكون معي. سننتظر في الصالة إلى أن تهيء ذلك. أين هي؟

كانت قد عرفت موقع صالة السيدات فذهبت وتبعناها. وقالت الآنسة ريبا: أين هو؟ فأجابت إفربي: من؟.

وفجأة عرفتُ من هو. وبعد لحظة أخرى كنت سأعرف السبب، ولكن لم يكن أمامي وقت. وطلبت الآنسة ريبا من ميني أن تجلس، لكنها لم تتحرك. فقالت لها: حسناً اخبريهم. وهنا ابتسمت ميني أماماً. كانت ابتسامة شاحبة باهتة ـ مجرد فتحة فم عصبية شرسة. وبدا فمها مثل جرح أسود أطلّتْ منه أسنان بيضاء جميلة، اصطفت بانتظام حول الفتحة السوداء حيث كان السن الذهبي. آنذاك عرفت لماذا هرب أوتيس من بارشم سيراً على قدميه. وقالت ميني:

"إنه هو! أعرف أنه هو! أخذها عندما كنت نائمة!"

فأجاب بون: "بحق نيران الجحيم، هل يمكن أن يأخذ أحد سناً من فمك ولا تشعرين به؟" فقالت الآنسة ريبا: "عليك اللعنة، اسمع. أوصت ميني على صنع تلك السن بشكل يمكنها من نزعه ووضعه. فاشتغلت أعمالاً إضافية ووفّرَت ـ كم سنة يا ميني؟ ثلاث، أليس كذلك؟ ـ إلى أن تجمّع لديها ما يكفي لخلع سنها الأصلي والحصول على تلك السن اللعينة. أوه طبعاً، حاولتُ أن أثنيها عن ذلك، عن إفساد هذه الأسنان الطبيعية الرائعة التي يتمنى أي شخص أن يدفع ألف دولار مقابل الحصول على مثلها، هذا فضلاً عما دفعته زيادة "ليصبح بإمكانها نزع السن عندما تأكل..". وهنا صاح بون قائلاً: "تنزعها عندما تأكل؟ بحق الشيطان لأي شيء توفرها؟" فقالت ميني: "منذ زمن طويل وأنا أتمنى الحصول على تلك السن. وقد اشتغلت ووفرت حتى حصلت عليها. ولم أرد أن يفسدها شيء كالطعام!"

ثم أوضحت الآنسة ريبا أنها لم تكن تبعد السن عنها، وأنها كانت تضعها على طرف الصحن أمامها وهي تأكل، وأنها لم تنسها قط. وأكدت ميني أنها أعادتها إلى فمها بعد أن تناولت طعامها للمرة الأخيرة. إنما كانت متعبة، منهوكة القوى". وهنا تولت الآنسة ريبا

شرح ما جرى ليلة سرقت السن، فقالت: "أظنني كنت ثملة قليلاً عندما أتيتم ليلة البارحة. ولم أشفَ جيداً وأتوقف عن الشراب حتى الفجر. فطلبت من ميني أن تشرب جرعة من الجن وتذهب لترى إن كان الباب الأمامي مقفلاً، ثم تذهب إلى فراشها. وأيقظت جاكي وطلبت منها أن تُبقي الأبواب مقفلة وأن لا تستقبل أحداً قبل السادسة من هذا المساء. لذلك عادت ميني إلى فراشها في غرفة المستودع. وفي البداية حسِبْتُ أنها نسيت أن تقفل بابها. وهنا قاطعَتْها ميني لتؤكد أنها أقفلته لأنها تعرف أن البيرة فيه، وقد دأبت على قفله منذ جاء أوتيس أول مرة. وقالت الآنسة ريبا متابعة كلامها:

"وهكذا كانت حالها. منهكة وغارقة في نوم عميق، بعد أن أقفلت الباب، ولم يخطر لها شيء حتى..". وهنا تولت ميني الكلام فقالت:

"... حتى استيقظت. كنت ما أزال مرهقة وتعبة، فلم أغادر السرير. ولم أفطن لشيء. إنما شعرت بشيء غريب في فمي، فحسبتها قطعة من بقايا الطعام، ولم أعرف الحقيقة حتى ذهب إلى المرآة... إنه هو الذي فعل هذا. كان يضايقني كل يوم سائلاً: كم يكلف، ولماذا لا أبيعه، وكم يدفعون لي إذا عرضته للبيع، وأين يمكن أن أبيعه..". فعلّقت الآنسة ريبا قائلة:

- "طبعاً. لهذا صرخ مثل قطة متوحشة هذا الصباح عندما أخبرته أنه لن يعود إلى أركنساس، بل سيأتي معك إلى بارشم. ولهذا هرب عندما سمع صفير القطار. أين هو الآن؟ سأستعيد سن ميني". فأجابت إفربي:

- "نعرف أين اختفى من العربة حوالي الخامسة والنصف وحسبناه هنا، إذ ليس لديه مكان آخر يذهب إليه. لكننا لم نعثر عليه".

"لم تفتشوا جيداً. فهو ليس من النوع الذي يحضر إذا صفرت له. يجب خنقه بالدخان كي يخرج مثل الجرذ أو الأفعى".

وجاء مدير الفندق وأخبر الآنسة ريبا أن غرفتها جاهزة، فنهضت وقالت إنها ستذهب لتؤمن نوم ميني وتبقى معها حتى تنام ثم تعود لتناول العشاء. وخرجت بصحبة ميني.

كنا ما نزال واقفين، إذ لم يجلس أحد منا. وكانت إفربي واقفة هناك بهدوء. كانت صبية ضخمة تناسبها الرصانة، وكذلك الحزن. ربما لم يكن الحزن هو الذي استولى عليها، آنذاك، بقدر ما كان الشعور بالعار. وبعد لحظة قالت:

"لم تُتَح له أية فرصة هناك. لهذا فكرت... بإحضاره، ولو لأسبوع، خلال الصيف الماضي، وهذه السنة أيضاً، خاصة بعد أن سمعت أنكما آتيان. وحالما رأيت لوشيوس عرفت أنني هكذا أردت أن يكون أوتيس. لكنني لم أعرف كيف أُفْهمه ذلك، أو أعلّمه. لذلك حسبت أن وجوده مع لوشيوس، ولو لثلاثة أيام..". فتقدم منها بون وربت على ظهرها مهدئاً. ولم يحاول وضع ذراعه حولها هذه المرة. وقال:

"بالتأكيد. أردت أن يكون مهذّباً. لكن لا بأس. فعلت كل ما تعرفين. هيا بنا الآن". وجاء الخادم وأخبر بون أن سائق عربته في المطبخ. فأبدى بون استغرابه قائلاً ليس لديه سائق عربة. لكنني عرفت. كان ند. لذلك مشيت وتبعاني نحو المطبخ. وهناك كان ند يقف قرب الطاهية. وكانت زنجية ضخمة تجفف الأطباق. وسمعناه يقول لها:

"إن كان المال هو ما يشغل بالك يا حلوتي فأنا الرجل..".

وتوقّف لدى رؤيتنا. وكأنما قرأ أفكار بون في ومضة، فقال: "أرح بالك. إنه هناك عند بارشم. ماذا فعل هذه المرة؟" فلم يفهم بون عما يتكلم ند. فقلت: إنه يعني أوتيس فقد وجده ند. فقال ند:

"لست أنا الذي وجده. لم أُضعه أبداً. كلاب العم بوسم وجدته. حاصرته خلف قن الدجاج حتى ذهب ليكورغوس وأتى به. رفض أن يأتي معي، وقد تصرّف وكأنه لا ينوي الذهاب إلى أي مكان. ماذا فعل هذه المرة؟" فأخبرناه، فقال: "إذن، هي أيضاً هنا. هه، هه، هه. وإذن، لن أجده عندما أعود". فسأله بون عما يعني، فأجاب: "أكنت تبقى لو أنك مكانه؟ إنه يعرف أن البنت قد أفاقت وافتقدت السن. ولابد أنه صار يعرف الآنسة ريبا جيداً ليدرك أنها لن ترتاح حتى تقبض عليه وتنفضه حتى تسقط منه السن". فقال بون:

"حسناً، وماذا سيفعل بها؟"

"لو كانت مع شخص غيره، لفكر بثلاث طرق للتخلص منها. بيعها أو إخفاؤها، أو إعطاؤها لشخص ما. وهذا ما لن يفعله هو طبعاً. فبيعها يقتضي ذهابه إلى ممفيس أو أية مدينة أخرى. وهذا يكلفه نفقات، ولا رغبة لديه في دفع شيء من جيبه. لذلك فإن أفضل مكان يبيعها فيه هو ميدان السباق، حين يتجمع الناس غداً. وهناك يمكنه أن يبيعها أو يراهن بها. لكنه ليس أهلاً للرهان. لأن الرهان عملية بطيئة وغير مضمونة. لكن يمكننا أن نبحث عنه هناك. ومن المؤسف أنني لم أعرف القصة حين رأيته. ربما كنت أستطيع إخراجها منه،" فقالت إفربي:

"هل يمكنك أن تعثر عليه غداً؟ يجب أن أجده. إنه ولد. سأدفع ثمن سن أخرى لميني. يجب أن أجده. سوف ينكر ويقول إنه لم يرها مطلقاً". فقال ند: "طبعاً. هكذا كنت أفعل لو أنني مكانه. سأحاول. سآتي باكراً لرؤية لوشيوس. لكن أفضل فرصة للعثور عليه هي في الميدان، قبل بدء السباق، ثم التفت إلي وقال:

"ما زال الناس يتوافدون على بيت بوسم. ربما ليعرفوا من نظن، بعد الآن، أن هذا الحصان يقدر أن يركض. لذلك سيكون هناك حشد كبير غداً. الوقت متأخر. اذهب ونم قليلاً. أنا أيضاً يجب أن أعود، وأرجع البغلة كي تنام. الآن؟ تصبحون بخير". وخرج.

وذهبنا إلى غرفة المائدة، حيث كان الخادم يقدم العشاء إلى الآنسة ريبا. فسألتها إفربي إذا كانت قد نامت، فأجابتها "نعم. ذلك الصبي أين... عفواً. حسبت أنني رأيت كل شيء في مهنتي، لكن لم يخطر لي أن أحدا سيسرق سناً في أحد بيوتي. أكره البنادق الصغار. إنهم مثل الأفاعي الصغيرة. يمكنك أن تتدبري أمر الأفاعي الكبيرة، لأنك تكونين حذرة ومستعدة لها. أما الصغيرة فتلسعك من وراء ظهرك قبل أن تتبيني ذلك".

في تلك اللحظة بدت قاعة الطعام غاصة بالناس. على الرغم من اتساعها، كما يحصل دائما عندما يلتقي بون وبطش داخل أربعة جدران. لن كل شيء يتضخم ويتضاعف ولا تبقى هناك أية فسحة. كان بطش قد رجع إلى الطبيب، أو إلى أي مكان آخر يقدم كأساً مجانية لمن يحمل شارة الشرطة. ونهضت إفربي مسرعة، ودارت حول المائدة، وجلست على كرسي قرب الآنسة ريبا. وكان بطش ينظر إليها، وكنت أنا، هذه المرة، قد مللت من أهمية بون وأعطيت إفربي المكان الأول. ولم يكن بون يحمل غير عبء واحد هو بطش، بينما كانت إفربي تواجه عبئين: بون وبطش معاً. وقال بطش:

"هل سيأتي سكان شارع كاتالبا كلهم إلى بوسم؟" فحسبته صديقاً للآنسة ريبا، أو أن لها علاقات عملية معه. لكنه لم يذكر اسمها. ومع أنني كنت في الحادية عشرة من عمري، فقد كنت أعرف آنذاك أن أمثال بطش لا يذكرون أحداً إلا عندما يحتاجون إليه. ولم يكن ما

يحتاج إليه سوى امرأة أخرى، بصرف النظر عمن تكون، شرط أن تكون فتية إلى حد ما، ومقبولة. أم تراه لم يكن يحتاج إليها: إنما وجدها صدفة، شأن الأسد الذي يكون في طريقه إلى مقاتلة أسد آخر في نزاع حول غزال. ومع أن الأسد يكون واثقاً من فوزه على غريمه، يكون مجنوناً إن لم يرم في طريق الغريم بغزال آخر يكون قد لقيه في طريقه، فيصرفه عن طريدته الأصلية. وهكذا كان. إلا أن الآنسة ريبا لم تكن غزالاً، بل أسد. وقال بطش: "الصبي الحلو يستعمل عقله. لماذا نتطاحن على قطعة لحم، إذا كان هنالك قطعة أخرى تماثلها في التفاصيل، ما عدا فارقاً بسيطاً في اللون؟" فقالت الآنسة ريبا لإفربي:

"من هذا، أهو صديقك؟" فأجابت إفربي: "كلا، أرجوك". فقال بون: "لم يعد لها أصدقاء. لم تعد تريدهم. لقد تركت هذه المهنة. وحالما ننتهي من هذا السباق، ستذهب إلى مكان ما وتجد وظيفة غسالة صحون. أسأليها!".

وكانت الآنسة ريبا تنظر إلى إفربي، فقالت هذه: "أرجوك". فسألت الآنسة ريبا بطش عما يريد فأجاب:

"لا شيء. لا شيء مطلقاً. كنا، أنا وهذا الحلو، على خلاف منذ قليل. لكنك جئت، وصار كل شيء على ما يرام". ثم تقدم وأمسك بذراع إفربي وطلب إليها أن ترافقه إلى العربة في الخارج. فأمرتني الآنسة ريبا بصوت مرتفع أن أنادي المدير. وقبل أن أتحرك، أطل مدير الفندق من الباب فقالت له الآنسة ريبا:

"هل هذا الرجل ممثل القانون هنا؟" فأجاب: "نعم. كلنا هنا يعرف بطش، يا سيدة بنفورد. أصدقاؤه في بارشم كثيرون. إنه من هاردويك، إذ ليس عندنا في بارشم شرطي لأن بلدتنا لا تستحق شرطياً بعد!"

لقد أثرت ضخامة بطش وحماسته في نفس المدير قبل أن يـدخل الباب، وكأنما أغرقه هذا التأثير فتضاءل وامحى، كما تتوارى فـأرة في السقيفة. وبدت آنذاك عينا بطش باردتين وقاسيتين. وقال للمدير:

"ربما كان هذا ما ينقصكم هنا ربما لهذا السبب لا تتقدمون. إنكم تحتـاجون إلى قليـل مـن القـانون". فقالـت الآنـسة ريبـا: "تعـني أن باستطاعة أي رجل أن يدخل من الشارع ويجر أية امـرأة تحلـو لـه مـن نزيلات الفندق، ويأخذها إلى أقرب سرير، كأنك تدير بيتـاً للقطـط؟" فقال بطش:

"من الذي يجر وإلى أين؟ وبماذا، بـدولارين؟" فنهـضت الآنـسة ريبا، وقالت لإفربي:

"هيا، يوجـد قطـار إلى ممفـيس، الليلـة. أعـرف صـاحب هـذه المزبلة. وأظنني سأذهب لمقابلته غداً..". فقال مدير الفندق مقاطعاً:

"أو، بطش. انتظري، يا سيدة بنفورد..". فقال له بطش:

"اذهب إلى الباب الأمامي. قد يأتي الآن نزلاء أثرياء ولا يجـدون من يسجل لهم أسماءهم. نحن هنا أصدقاء". فذهب المـدير، واقتـرب بطـش مـن إفـربي ثانيـة وأمـسك بـذراعها قـائلاً: "الآن وقـد سُـوِّيت المسألة..". فقاطعته الآنسة ريبا قائلة: هكذا إذن، تعال معي إلى الباب الأمامي، أو إلى أي مكان منعزل. لدي ما أقوله لك". واسـتفهم بطـش عن الموضوع الذي ستكلمه فيه، لكنـها لم تجـب، بـل سـارت نحـو الباب، فقال: "هل قلت إلى مكان منعزل؟ إنني على استعداد للاعتنـاء بأية حسناء في مكان منعزل". ثم خرجا، وغابا خلف صالة الـسيدات، حوالي دقيقة أو أكثر بقليل، إلى أن عادت الآنسة ريبـا، كمـا ذهبـت، وهي تسير بهدوء. ثم سمعنا بطش يقـول: "هكـذا إذن. سـوف نـرى".

وتابعت الآنسة ريبا خطواتها الثابتة إلى حيث كنا ننتظر. ووقفت تراقب بطش وهو ينصرف. ثم سألتها إفربي قائلة: "هل انتهينا منه؟" فأجابت بالإيجاب وقالت لبون: "هذا يسري عليك أيضاً". ونظرت إلي. وقال بون: "بحق الشيطان، ماذا فعلت له؟" فأجابت وهي تنظر إليّ: "لا شيء. حسبت أنني عرفت مشكلات بيوت القطط كلها، حتى واجهت منها مشكلة الأولاد! " ثم قالت لإفربي: "أنت أحضرت ولداً يسرق الأسنان المتحركة، ويشرب في الخفاء بيرة بما يساوي أربعة عشر دولاراً. وكأن لم يكفنا هذا، فأحضر لنا بون هوجانبك ولداً آخر يدعو بناتنا إلى الحشمة والفقر. أنا ذاهبة للنوم وأنت". فقال بون:

"انتظري. ماذا قلت له؟"

"أنتم، سكان المدن الكبرى، كجفرسون وممفيس، لا تعرفون الكثير عن القانون. يجب أن تأتوا إلى أماكن صغيرة كهذه. أنا أعرف لأنني نشأت في قرية صغيرة. يوجد هنا مفوض شرطة. يمكن أن يمضي أسبوعاً في جفرسون أو ممفيس دون أن تشعروا بوجوده. لكنه هنا، بين الذين انتخبوه. لا يكترث لعمدة المقاطعة أو حاكم الولاية، حتى ولا لرئيس جمهورية الولايات المتحدة. إنهم يتحدثون عن براعة ذلك الفرعون القديم في حكم المملكة، وعن شخص آخر ذكره الكتاب المقدس اسمه قيصر، إنما كان عليهما أن يزورا شرطياً من أركنساس أو ميسيسيبي أوتنيسي ولو مرة". فقالت إفربي:

"لكن كيف عرفته، كيف عرفت بوجود شرطي هنا؟"

"يوجد مثله في كل مكان. ألم أقل إنني نشأت في مكان صغير كهذا؟ لم أكن بحاجة إلى أن أعرفه. كل ما أردته هو أن أعرف ذلك القط بأنني أعرف بوجودِ واحدٍ مثله هنا".

لكن بون ألح قائلاً: "لكن ماذا قلت له؟ تكلّمي. أحب أن أذكر هذا".

"قلت لك لا شيء. إن كنتُ لم أتعلّم حتى الآن كيف أتدبر أمر هؤلاء الملعونين الذين يحملون شارة الشرطة بيد ونزواتهم باليد الأخرى، لكنت ذهبت إلى ملجأ الفقراء منذ سنوات. قلت له إنني إذا رأيت وجهه ثانية أرسلت مدير الفندق ليوقظ مفوض الشرطة ويخبره أن أحد رجال عمدة هارديك قد سجل اثنتين من مومسات ممفيس في فندق بارشم. أنا ذاهبة للنوم، والأفضل أن تناموا أنتم أيضاً. تعالي يا كوري". فذهبنا. وذهب بون أيضاً. ولعله تبع بطش إلى الباب الأمامي ليتأكد من ذهاب العربة. وفجأة اندفعت إفربي نحوي وقالت: "ألم تُحضِر غير هذه الملابس؟ إنك لم تغيرها منذ غادرت البيت. هات لأغسلها لك". فقلت: "ليس لدي ما ألبسه". فقالت: "لا بأس. يمكنك أن تجلس في الفراش. ستجدها جاهزة حالما تستيقظ. هاتها".

وهكذا خلعت ملابسي وجواربي، وجوارب السباق وكل شيء، ثم دخلت ورميتها لها من شق الباب وتمنيت لها ليلة سعيدة، ودخلت في الفراش. وبعد قليل، دخل بون وكنت نصف نائم، وسألني ماذا فعلت بثيابي، فأجبته أن إفربي أخذتها لتغسلها. وكان قد خلع بنطلونه وحذاءه وذهب ليطفئ المصباح. ولكنه توقف لدى سماع جوابي وسألني: "ماذا قلت؟" وإذاك كنت قد صحوت. ولكن الوقت كان قد فات. وبقيت متمدداً مغمض العينين دون حركة. وقال ثانية:

"أي اسم ذكرت؟"

"الآنسة كوري".

"قلت شيئاً آخر". وشعرت بنظراته عليَّ: "دعوتها إفربي" وشعرت بوقع نظراته عليَّ "هل هذا اسمها؟". وشعرت بوقع نظراته عليَّ: "إذن أخبرتك عن اسمها الحقيقي". ومن خلال جفنيّ المغمضين شعرت بالعتمة تسود الغرفة وأزيز السرير عندما استلقى عليه بثقله. وقال: "تصبح على خير". فأجبت: "وأنت بخير!".

الفصل العاشر

ثم كان صباح اليوم التالي: يوم سباقي الفعلي الأول (فإذا ربحت في السباق، أصلحتُ ما ارتكب بون وند ـ ونجوت؛ فلا أعود طفلاً، بل أصبح نداً لهما ـ أصبح حراً في العودة إلى البيت، ويستطيعان العودة هما أيضاً). ذلك السباق الذي جرّنا إليه هربنا وألاعيبنا وسرقة سيارة جدي. وقال لي بون:

"إذن، كشفَتْ لك اسمها الحقيقي؟" لقد أفلت الأمر مني. كنت نصف نائم عشية البارحة، فلم أكن بكامل وعيي. لذلك أجبته بالإيجاب، على الرغم من أن ذلك كان غير حقيقي: لأنها لم تخبرني. بل لم تعرف أنني عرفت وأنني أدعوها إفربي منذ ليل الأحد. فقلت لبون:

"يجب أن تعدني بأنك لن تذكر هذا الاسم بصوت مرتفع حتى تذكره هي أولاً". فقال: "أعدك. لم أكذب عليك بعد. أعني كذبة مسيئة. أعني... حسناً، أعدك".

كانت ملابسي كلها: القميص والجوارب والثياب الداخلية وجوارب الركوب، مغسولة ومكوية ومطوية بعناية، وموضوعة على كرسي قرب بابنا. فناولني إياها بون وقال: "ما دامت ثيابك كلها نظيفة، يجب أن تستحم ثانية".

"يوم السبت جعلتني أغتسل".

"كنا في الطريق مساء السبت، ولم تبلغ ممفيس حتى الأحد".

"حسنا، الأحد".

"واليوم هو الثلاثاء. مرّ على حمّامك يومان".

"بل يوم واحد. ليلتان، ولكن يوم واحد فقط".

"منذ ذلك الحين وأنت تسافر. صار عليك طبقتان من الوسخ".

"اقتربت الساعة السابعة، تأخرنا عن الفطور".

"يمكنك أن تستحم أولاً".

"يجب أن ألبس ثيابي لأتمكن من شكر إفربي على غسل ثيابي".

"استحم أولاً".

"سأبلل ضماد يدي".

"ارفعها فوق عنقك".

"لم لا تستحم أنت إذن؟"

"دعني جانباً. نتكلم الآن عنك".

وهكذا ذهبت إلى الحمام واغتسلت ولبست ثيابي وذهبت إلى غرفة الطعام. كان ند مصيباً. فعشية البارحة لم تكن هناك غير مائدة واحدة. وهذا الصباح كان هناك سبعة رجال كانوا جميعاً غرباء بالنسبة لنا نحن الذين لا نعيش في بارشم (ولم يكن أحد منهم، أي ممن يدخنون السيجار ويرتدون الملابس الداخلية الحريرية. لأننا لم نفتتح موسم الرياضات الشتوية في منتصف أيار. كان بعضهم يرتدي بزة عمل، وكانوا جميعاً إلا واحداً دون ربطات عنق). وبالإضافة إلى الخادم، رأيت ظهر خادمة في زي الخدمة الخاص وهي تعبر الباب إلى المطبخ وكان على مائدتنا رجلان يتحدثان إلى بون والآنسة ريبا. لكن إفربي لم تكن هنا. وللحظة، مرت في خيالي صورة مرعبة لبطش

وهو يترصدها، ويقبض عليها بالقوة وهي تعبر الممر باتجاه غرفتنا حاملة الكرسي وعليها ثيابي المغسولة. ثم فكرت أنها إذا كانت قد غسلت لي ثيابي الليلة الماضية، فلا بد أنها ظلت حتى ساعة متأخرة من الليل لتغسل ثيابها أيضاً، وربما ثياب الآنسة ريبا؛ وإنها ما تزال نائمة. هكذا اتجهت إلى المائدة عندما قال أحد الرجلين:

"هذا هو الصبي الذي سيمتطيه؟ يبدو أنك أعددته لمباراة في الملاكمة". فوافق بون وهو يدفع صحن لحم الخنزير نحوي. وقدمت لي الآنسة ريبا البيض وهي تقول:

"جرح يده وهو يأكل البارحة". فأجاب الرجل:

"ياه، ياه. على كل حال، إن حمله هذه المرة أخف".

فقال بون:

"طبعاً، إلا إذا أكل السكاكين والشوك والملاعق في غفلة عنا".

"ياه، ياه، رأيته يركض العام الماضي، ويبدو لي أنه سيحتاج إلى أكثر من خفة وزن الفارس. وهنا يأتي دور السر. هه؟"

"طبعاً. حتى لو لم يكن لدينا أي سر يجب أن نتصرف وكأن في الأمر سراً".

فقال الرجل وهو ينهض: "حظاً سعيداً، على كل حال".

وجاءت الخادمة تحمل لي كوب حليب وطبق بسكوت ساخن. وكانت ميني في ثياب خدمة جديدة. ويبدو أن الآنسة ريبا أعارتها للفندق أو أجرتها له. كان وجهها ما يزال كامداً لم يصفح، لكنه كان هادئاً. لابد أنها نامت واستراحت. ولكن لم تصفح بعد. وذهب الغريبان. ثم قالت الآنسة ريبا دون أن توجه الكلام إلى أحد: "كل ما تحتاج إليه هو حصان مضمون ومليون دولار نراهن بها".

فقال بون:

"سمعت ند عشية الأحد. أنت الذي صدقته، أعني، أنتِ التي قررت تصديقه. كان موقفي مختلفاً. بعد اختفاء تلك السيارة الملعونة لم يبق لنا سوى الحصان. كنت مضطراً لتصديقه".

"حسناً، حسناً" ثم قال لي بون: "كفّ أنت عن القلق. ذهبت إلى المحطة تتفقده لترى إن كانت الكلاب قد ضبطته ثانية في الليل، وإن كان ند قد أوصله إلى القطار".

فسألت:

"هل وجد ند؟"

"لا. ند في المطبخ الآن. يمكنك أن تسأله. الأفضل أن تظل قلقاً. لقد خلصتك الآنسة ريبا من صاحب الشارة، ولكن الآخر ـ ما اسمه؟ كاندويل؟ جاء في قطار الصباح".

فسألت الآنسة ريبا.

"عمّ تتكلم الآن؟" فأجاب:

"لا شيء. ليس لدي ما أتكلم عنه. لقد انتهى دوري. لوشيوس هو الذي يهتم الآن بالمنافسين من أصحاب الشارات والبزات الرسمية".

لكنني كنت قد نهضت لأنني عرفت أين أجدها. فسألتني الآنسة ريبا:

"أهذا هو فطورك؟" فقال بون: "دعيه وشأنه. إنه عاشق".

وعبرت الردهة باتجاه صالة السيدات. كانت جالسة هناك تبكي. كانت وحدها للمرة الثالثة. بل الرابعة. لم يطلب أحد إليها المجيء، بل جاءت من تلقاء نفسها، لذلك يمكنها أن تجلس حيث تشاء. مع ذلك كانت تبكي للمرة الثانية منذ جاءت إلى بارشم. أعني أنها وإن

كانت تختزن فيضاً غزيراً من الدموع، فإن أوتيس لا يستحق أن تضيع عليه قطرة منها. وقلت لها:

"إنه بخير. سيجده ند. شكراً على غسلك ثيابي. أين السيد سام؟ حسبت أنه قادم في ذلك القطار".

"اضطر للعودة إلى ممفيس ليخلع البزة. لا يمكنه حضور سباق خيل وهو يرتديها. سيعود في قطار الظهر. لا أعرف أين منديلي".

فوجدته لها. وقلت: "اذهبي وغسّلي وجهك. عندما يجده ند سيأخذ منه السن". فقالت "لا أبكي على السن. سأشتري لميني سناً غيرها. أبكي... لأنه ليس منه أمل. إنه... هل وعدت أمك أيضاً بأن لا تسرق؟".

"لا حاجة لمثل هذا الوعد. الإنسان لا يأخذ ما ليس له".

"لكن، هل كنت تعدها لو سألتك ذلك؟"

"ما كانت لتسألني. لا يأخذ الإنسان ما ليس ملكه".

"صحيح. لن أبقى في ممفيس. كلمت سام في المحطة هذا الصباح وقد أعجبته الفكرة. يقدر أن يجد لي عملاً في تشاتانوغا أو غيرها. لكنك ستبقى في جفرسون، لذلك قد أرسل إليك بطاقة بريدية وأعطيك عنواني كي..".

"سأكتب لك، قومي.. ما زالوا على مائدة الفطور".

"هناك أشياء لا تعرفها عني. ولا يمكن أن تحزرها".

"بلى، أعرفها. اسمك إفربي كورنتيا. منذ يومين أو ثلاثة وأنا أدعوك هكذا. أوتيس أخبرني. ولن أخبر أحداً لكنني لا أفهم السبب!".

"السبب أنه اسم قروي قديم. هل يمكنك أن تتصور أن يأتي أحد إلى بنسيون ريبا ويقول أرسلي لي إفربي كورنتيا؟ كانوا سيخجلون كانوا سيموتون من الضحك. لذلك فكرت أن أبدأ باسم إيفون أو بيلي أو كن. لكن ريبا قالت لا بأس باسم كوري".

"سخافة".

"أتعني أنه لا بأس به؟ الفظْه! ". فلفظته وهي تصغي إليّ. ثم ظلت مصغية وكأنها تنتظر رجع صداه. ثم قالت: "هذا سيكون منذ الآن".

"إذن تعالي وتناولي فطورك، ند ينتظرني ويجب أن أذهب".

لكن بون وصل قبل أن نتحرك وقال لي: في الخارج أناس كثيرون. ربما كان يجب أن لا أخبر ذلك الرجل بأنك ستقود الحصان في السباق. ربما كان يجب أن لا أدعك تغادر جفرسون".

وكان هناك باب صغير خلف الستار في مؤخرة الغرفة، فأخرجني منه. وعبرنا ممراً آخر حتى وصلنا إلى المطبخ. كانت الطاهية تقف قرب حوض الغسيل ثانية، وند ينهي فطوره، لكنه كان يتكلم قائلاً: "عندما أعد امرأة، لا يكون وعدي كلاماً فارغاً..". ثم توقف لدى رؤيتنا ونهض على الفور وقال لي:

"هل أنت مستعد؟ لقد حان وقت ذهابي أنا وأنت إلى الحلبة. يوجد هنا أناس كثيرون. إذا كانوا جميعاً يملكون المال كي يراهنوا، وإذا راهنوا على الحصان الخاسر، وكنا نعرف الحصان الرابح ونملك المال للمراهنة عليه، فلن نأخذ السيارة وحدها إلى جفرسون، بل سنأخذ معها بوسم كلها. وربما هدأ ذلك غضب الريّس بريست. فهو لم يملك بلدة من قبل، وقد يروق له ذلك". فقال بون:

ـ "انتظر. ألا تهيء خطة ما؟ فأجاب ند:

ـ "الوحيد الذي يحتاج إلى خطة هو الحصان "لايتنينغ". والخطة الوحيدة التي يحتاج إليها هي أن يركض في المقدمة ولا يتوقف حتى يأمره شخص ما بذلك. لكنني أعرف ماذا تعني. سنجعله يركض في حلبة الكولونيل لنسكويب. سيبدأ الشوط الأول في الساعة الثانية. إن المكان يبعد أربعة أميال من هنا. الأفضل أن تبكروا في الذهاب. اذهبوا حالما ينزل السيد سام من القطار، لأن عليكما أن تهتما بأمر المراهنات، وأن تحصلا على بعض النقود للمراهنة".

وفي تلك اللحظة وصلت ميني تحمل صينية فيها أطباق ملونة. كان وجهها كقناع مأساوي هادئ متعطش، ولا يتعزى. وقال لها ند:

"هيا ابتسمي ثانية لأرى أين سأضع السن حين استعيدها لك الليلة!" فقالت الطاهية:

"لا تجيبي يا بنية. لا تقبضي هذه الأقوال المعسولة، قد يستطيع صرفها في ميسيسيبي، لكنها لا تشتري له شيئاً في تنسي. أو على الأقل في هذا المطبخ". وقبل أن يخرج ند قال له بون:

"انتظر".

"انتظر أنت حتى يأتي السيد سام. وبالمناسبة، بينما نكون أنا ولوشيوس مهتمين بالفوز في السباق، قد تستطيعان العثور على ذلك المسخ وأخذ السن".

كانت معه عربة العم بارشم هذه المرة. كان على حق. لقد تغيرت حال البلدة عن اليوم السابق. ليس لأن عدد الناس زاد عن اليوم السابق، بل لأن حماساً جديداً ساد الجو وللمرة الأولى تحققت أنني سأمتطي حصان سباق، حتى لقد شعرت أن طعم لعابي تغير

وصار لاذعاً. وقلت لنـد: "حسبتك قلـت الليلـة الماضـية أن أوتـيس يكون قد ذهب قبل أن تعود من المدينة" فقال: "كان سيذهب. لكن ما كان ليبتعد. ليس لديه مكان يـذهب إليـه. لقـد نبحـت الكـلاب جهـة المستودع مـرتين أثنـاء الليـل. فحـتى الكـلاب شـعرت، كمـا يـشعر الناس، بنفور سريع منه. والأرجح أنه ذهب في طلب طعـام الفطـور، حالما خرجت".

"لكن لنفرض أنه باع السن قبل أن نقبض عليه؟".

"لقد تدبّرت هذا الأمر. فهو لن يبيعه... لن يجد من يشتريه. إذا لم يظهر وقت الفطور، فسيأخذ ليكورغوس الكلاب ويحاصره. وسيخبره أنني لما عدت من بارشم البارحة قلت إنّ رجلاً في ممفيس عرض على ميني ثمانية وعشرين دولاراً نقداً ثمناً للسن. وسيصدق ذلك. فلو أنـني أقول مئة دولار أو خمسين لما صدّق. لكنـه سيـصدق أن مبلغـاً كهـذا عُرض عليها. ربما لأنه يحسبه مجحفاً. ولـذلك فإنـه عنـدما سـيحاول بيعها في حلبة السباق، عصر اليوم، لن يجد مـن يـدفع لـه مثـل هـذا المبلغ. وهكذا فلا يبقى أمامه غير الانتظار حتى يـستطيع الوصـول إلى ممفيس. لذلك اصرف اهتمامك عن السن وركّزه على السباق. أو على الشوطين الآخيرين، لأننا سنخسر الأول. فلا تهتم لذلك..".

"ماذا؟ ولم؟"

"ولِمَ لا؟ كل ما نحتاج إليه هو الفوز في شوطين".

"لكن لماذا نخسر الأول؟ لماذا لا نفوز فيه؟"

مشكلة هذا السباق أنه معقـد كـثيراً، يحـضره أشـخاص كـثيرون ويتألف من أشواط كثيرة. لو كان شوطاً واحداً فقـط يجـري في مكـان لا يوجد فيه غيرنا، أنا وأنت ولايتيننغ والحصان الآخر وفارسه، لكنـا

بألف خير. فقد اكتشفنا البارحة أننا نستطيع أن نجعل لايتنيننغ يركض مرة واحدة. لكن عليه الآن أن يركض ثلاث مرات".

"لكنك كنت تجعل ذلك البغل يركض في كل مرة".

"هذا الحصان ليس ذلك البغل. بل إنه لا يملك من تلك الحاسة قدر ما تملك بعض الخيول. هكذا باستطاعتك أن ترى مشكلتنا. إنني أستطيع أن أجعله يركض مرة، وربما مرتين لا أكثر. نحن نأمل وحسب، لذلك لا يمكننا أن نجازف بالشوط الذي أؤكد أننا سنربحه حتى يحين وقته. فإذا كنا سنربح شوطين ونخسر شوطاً، علينا، إذن، أن نجعل شوط الخسارة في البداية، بحيث يمكن أن يتعلم الحصان منه شيئاً يفيده للشوطين التاليين.

كفّ الآن عن التفكير والاهتمام، لا أعني التفكير في السباق، بل في الفوز. فكر فيما علّمك إياه لايتنينغ البارحة عن كيفية امتطائه. هذا كلّ ما عليك. وسأهتم بالباقي. هل أحضرت جورب الركوب؟"

فقلت نعم. لكننا لم نكن ذاهبين إلى بيت العم بارشم، بل لم نكن نسير في ذلك الاتجاه. وبعد لحظة قال ند:

"حصلنا على إسطبل خاصّ بهذا السباق. إنه يخص أحد أعضاء كنيسة بوسم، وهو قريب من الحلبة، بحيث يمكننا أن ننتظر دون أن يعرف بوجودنا أحد فيزعجنا. لقد أخذ ليكورغوس والعم بوسم الحصان إلى هناك بعد الفطور مباشرة". فقلت: "هل هناك حلبة رسمية؟".

كان لابد من وجود حلبة رسمية، ولكن فاتني أن أفكّر في ذلك. ولو أنني فكرت فيه، لظننت أن الشخص الذي سيمتطي الحصان الآخر، كان يحضره إلى مرعى العم بارشم، وهناك يجري السباق فأجاب ند:

"نعم، حلبة رسمية. إنها تشبه الحلبات الكبرى، لكن مداها نصف ميل فقط، وليس فيها أمكنة لبيع الوسكي والبيرة. إنها في مرعى الكولونيل لنسكومب الذي يملك الحصان الآخر. لقد ذهبنا، أنا وليكورغوس، عشية البارحة وتفقّدناها. لكنني لم أر الحصان بعد. إنما سيُتاح لنا أن نراه اليوم وعلينا أن نُعدّ خطة كي نجعل الحصان الآخر خلف لايتنيننغ، في النصف الأخير من كل شوط. لذلك يجب أن أكلم الصبيّ الذي سيمتطيه. فهو زنجي، وليكورغوس يعرفه. إنني سأكلمه بطريقة هيّنة، فلا يكتشف ما وراء كلامي حتى يحصل ما سيحصل". فقلت: "لكن، كيف؟ فقال: "دعنا نصل أولاً".

ومضينا. كان المكان، بالنسبة لي، غريباً. كنا نجتاز مزرعة الكولونيل لنسكومب. وعندما صرنا في وسطها انعطفنا وسلكنا طريقاً فرعيّة تمر في غيضة، ثم بلغنا الإسطبل. كان المكان هناك منعزلاً، آمناً، وسريّاً إذا شئناه كذلك. وكان لايتنينغ واقفاً وقد أمسك ليكورغوس بزمامه، بينما كان العمّ بارشم في حلّته البيضاء والسوداء يجلس تحت شجرة. كانوا ينتظروننا. وفي اللحظة التالية أدركت الخطأ. إذ كانوا ينتظرونني أنا فقط. ووجدتني أقف قرب لايتنينغ على بعد ألف قدم من الحلبة عندما رأيت أن مصيري ومصير الحصان ليس الوحيد الذي يرتبط بمصيري الآن، بل أن مصيري ومصير الحصان يعنيان مصير بون وند. فعلينا كان يتوقّف ذهابهما إلى البيت أو عدمه ـ وهي حالة غامضة معقّدة، كان يجب أن لا تُلقى على عاتق طفل في الحادية عشرة. وقال ند لليكورغوس:

"هل أبلغته ما قلته لك؟" فأجاب ليكورغوس بالإيجاب، ثم قال للعمّ بارشم:

"أخبرني ثانية عمّا حصل في سباق الشتاء الماضي. قلت إنه لم يحصل شيء. كيف كان ذلك؟" فأجاب العم بارشم:

"آه، كان السباق يتألف من ثلاثة أشواط، كما هي الحال الآن. ولكن الحصانين لم يركضا إلا شوطين. إذ لم تكن هناك حاجة للثالث. ففي الشوط الأول بدأ حصانك يركض بسرعة وفي الشوط الثاني بدأ متأخراً. فلعلّ ضربة السوط التي عاجَلتُه بها في المرة الأولى كانت سريعة بينما أبطأت في المرة الثانية. على أية حال، فقد قفز لدى الضربة الأولى إلى المقدمة وتجاوز الحصان الآخر بمسافة كبيرة، وظل كذلك طوال الدورة الأولى، حتى بعد أن تلاشى أثر الضربة. وعندما اقتربا من خط الوصول، ورأى حصانك الحلبة فارغة أمامه، وقال في نفسه إنه غريب، وأن هذا ليس لائقاً، تراجع مسافة كافية كي يجعل رأسه بموازاة ركبة الفارس الذي يمتطي حصان الكولونيل لنسكومب. وظل كذلك حتى أُمِر بالتوقف. وفي الشوط الثاني بدأ يركض، وكأن الشوط الأول لم ينته. وظل رأسُه يوازي ركبة فارس الحصان الآخر. وعندما تلقّى الضربة الأخيرة وقفز، لم تُفِد لأنه رأى أمامه الحلبة الفارغة ثانية". فقال ليكورغوس:

"ربما لم تأت الضربة متأخرة حتى تخيف ماك ويلي".

فسأل ند:

"كم كانت سخيفة؟" فقال ليكورغوس:

"مقداراً كافياً". حينئذ قال لنا ند أن نذهب إلى الإسطبل الآخر ونلقي نظرة على ذلك الحصان. وأوصاني بأن أترك الكلام لليكورغوس، وأن لا أتلفّت إلى الوراء أثناء العودة. ولم أسأله عن السبب. ولو سألته لَما أخبرني. وذهبنا. لم يكن الإسطبل الآخر بعيداً. اجتزنا الحلبة حتى بلغنا الإسطبل. ولم نر أحداً في طريقنا. لا أدري ماذا كنت أتوقع: ربما كنت أتوقع رؤية حشد آخر من الرجال بملابس العمل ودون ربطات عنق، يمضغون التبغ مثل الذين رأيتهم في غرفة

الطعام وقت الفطور. ربما كان الوقت مبكراً، وربما كان هذا ما جعل نـد يرسلنا في هذا الوقت. وهناك رأينا زنجياً ينظف الإسطبل، وغلاماً ملوناً يصلح أن يكون تؤام ليكورغوس في الحجم واللون والعمر، يجلس على كومة من العشب اليابس ويستند إلى الجدار. وقال ليكورغوس:

"مرحباً يا بنيّ. هل تبحث عن حصان؟" فأجابه قائلاً:

"أبحث عن اثنين. ظننتُ أنني قد أجد الثاني هنا".

"هل تعني أن السيد فان توش لم يأت بعد؟".

"لن يأتي أبداً. هناك أشخاص آخرون سيُنزلون كوبرمين إلى السباق. رجل أبيض اسمه هوجانبك. وسيقوده هذا الصبي الأبيض". ثم قال لي: "هذا ماك ويلي".

ونظر إليّ ماك ويلي لحظة، ثم ذهب إلى باب مكتب الإسطبل وفتحه وقال شيئاً ما وعاد، فخرج في أثره رجل أبيض. وأخبرني ليكورغوس هامساً أنه مروّض الخيول وأن اسمه والتر. وقال الرجل الأبيض:

"صباح الخير يا ليكورغوس. أين تخبئون ذلك الحصان؟ أم أنكم تعدّون لنا خدعة؟" فأجاب ليكورغوس:

"كلا، يا سيدي. أظنه لم يغادر البلدة بعد. حسبناهم أرسلوه إلى هنا، فجئنا لنراه".

"هل مشيتما طوال الطريق من بوسم؟"

"كلا، يا سيدي. امتطينا بغلين".

"أين ربطتهما؟ لا أرى لهما أثراً. أم لعلكما صبغتموهما بصبغة إخفاء، كما فعلتما بالحصان عندما أخرجتماه من عربة القطار، صباح البارحة!".

"كلا يا سيدي. امتطيناهما حتى المرعى ثم افلتناهما" وقطعنا هذه المسافة سيراً على الأقدام".

"حسناً، ما دمتما قد جئتما لرؤية حصان، فلن نخيبكما، أخرجه يا ماك ويلي كي يلقيا عليه نظرة". فقال لنا ماك ويلي:

"انظر إلى وجهه على سبيل التغيير. الذين قادوا كوبرمين لم يروا غير مؤخرة ايركون طوال الشتاء، ولم ير أحدهم وجهه. هكذا يبدأ هذا الصبي بمعرفة هيئته من الأمام، ما اسمك يا بني؟"

فأجبته فسألني: "ألستَ من هنا؟" فقلت: "كلا يا سيدي. من جفرسون في ميسيسيبي". وأضاف ليكورغوس قائلاً: "إنه مسافر مع السيد هوجانبك الذي سيُنزِل كوبرمين في السباق". فسأل السيد والتر: "وهل اشتراه السيد هوجانبك؟".

وأخرج ماك ويلي الحصان. ورفع الغطاء عنه هو والسيد والتر. كان أسود اللون أكبر من لايتنينغ بقليل، لكنه كان شديد العصبية، فكان يحرك إذنيه إلى الوراء كلما تكلم أحد بالقرب منه، ويرفع حافر قائمته الخلفية كأنما يريد أن يرفس بها، فكان السيد والتر وماك ويلي يكلّمانه بهمس ويراقبانه باستمرار. وقال السيد والتر لماك ويلي:

"حسناً. اسقِه وأعدِدْه". ثم سار وتبعناه. فقال لي:

"لا تدعه يثبط عزيمتك. مهما تكن الحال فليس سوى سباق خيل". فقال ليكورغوس.

"صحيح يا سيدي. هذا ما يقولونه. شكراً لسماحك لنا برؤيته".

وشكرته أنا أيضاً. فقال السيد والتر: "إلى اللقاء. لا تدعا البغال تنتظر. أراكما وقت السباق بعد ظهر اليوم".

ومشينا مارَّين قرب الإسطبلات، ثم عبرنا الحلبة. وقال ليكورغوس: "أتذكر ما قاله لنا السيد ماك كاسلن؟".

"ماك كاسلن؟ أوه، نعم". وهذه المرة أيضاً لم أسأل عما قال. فقد ظننت أنني عرفت. أو لعلي لم أُرِد أن أصدق أنني عرفت. إذ لم أرد أن أصدِّق أنني تقدمت بتلك السرعة وصرت أفهم من التلميح. ولو أنني سألتُه عما قال ند لكان في ذلك اعترافاً بأنني عرفت. قلت: "ذلك الحصان سيِّء".

"إنه مذعور. هذا ما قاله السيد ماك كاسلن ليلة البارحة".

"ليلة البارحة؟ حسبتكما أتيتما لرؤية الحلبة".

"وماذا نبغي من رؤية الحلبة؟ لن تنتقل من مكانها. إنه جاء لرؤية الحصان".

"في الظلام؟ أليس لديهم حارس؟ ألم يكن باب الإسطبل مقفلاً، أو أي شيء من هذا القبيل؟".

"عندما يقرر السيد ماك كاسلن أن يفعل شيئاً، فإنه يفعله. ألم تكتشف هذا؟".

ثم مضينا دون أن نلتفت إلى الوراء. وعندما وصلنا كان ند يجلس مقرفصاً قرب العم بارشم، بينما جلس رجل آخر - زنجي - قريباً منهما. لقد عرفته، إذ كنت قد رأيته في مكان ما. وقال ند: "هذا بوبو" فتأكّدت. كان من نسب ماك كاسلن أيضاً واسمه بوبو بوشام ابن عم لوكاس كونيتوس كاروذرز ماك كاسلن بوشام، الذي قالت جدتي أنه يشبهه في كل شيء ما عدا اللون. كان بوبو يتيماً آخر، فقد أمه فتعهدته العمة نيني إلى أن صار نداءُ العالم البعيد أقوى من مقاومته، فذهب إلى ممفيس هذه ثلاث سنوات. وقال ند ثانية:

"بوبو يعمل عند الرجل الذي كان يملك لايتنينغ. وقد جاء ليراه وهو يركض". فعرفت الشيء الذي كان يزعجني: لعل بوبو يعرف مكان السيارة. والحقيقة أنها قد تكون عنده لكن ذلك كان خطأ، إذ لو كان الأمر كذلك، لاستطاع بون وند أخذها منه. ثم إنني أدركت فجأة أنني لا أريد ذلك، إذ كنا نستطيع استرجاع السيارة بمجرد أن نطلبها من بوبو، فماذا نفعل هنا إذن؟ وفيم كل هذه المتاعب وهذا القلق؟ ولماذا نخبئ لايتنينغ ونغيّر شكله واسمه وننقله في منتصف الليل عبر شوارع ممفيس إلى المحطة، ونلجأ إلى الوساطة والحيلة لننقله في عربة قطار بارشم، هذا فضلاً عما تلا ذلك، من مقاومة بطش، وسرقة سن ميني، وغزو بيت العم بارشم، وعدم النوم والحنين إلى البيت (وبالنسبة لي) عدم تغيير ملابسي الداخلية، وكل ذلك الصراع والاحتيال للاشتراك في السباق بحصان ليس ملكنا، كي نستعيد سيارة لم يكن لنا شأن بها في الأصل. فيم كل هذا إن كان كل ما علينا أن نفعله لاسترجاع السيارة هو إرسال الصبي الزنجي لإحضارها؟ فيم كل هذا لو لم يكن مداره كله الفوز في السباق؟ فيم كل هذا لو لم نكن أنا ولايتنينغ الحصن الأخير الذي يحمي بون وند من غضب جدي، إن لم يكن من شرطته؟ لو كان ند وبون يستطيعان العودة إلى جفرسون (ملجئهما الأخير والوحيد)، وكأن شيئاً لم يكن، دون الفوز في السباق أو حصوله على الأقل، لكنّا جميعاً مشتركين بلعبة العسكر واللصوص التي يلعبها الأولاد. لكن يحتمل أن يكون بوبو عارفاً بمكان السيارة، لذلك سألت ند فأجابني:

"أظنني قلت لك أن تكف عن الاهتمام بالسيارة. ألم أعِدْك بأن أهتم بشأنها عندما يحين الوقت؛ لديك أشياء كثيرة تشغل بها فكرك: لديك سباق خيل، ألا يكفي هذا ليشغل فكرك؟"

وكان بوبو قد ذهب، فقال ند لليكورغوس: "هات الزوادة. هذا وقت مناسب للأكل ما دام المكان ما يزال هادئاً". فأحضر ليكورغوس الطعام الذي كان مغطّى بملاءة نظيفة ووضعه أمام الرجلين. وسألني العم بارشم إن كنت قد تناولت فطوري، فأجبته كلا، حينئذ نصحني بألا أتناول غير كسرة خبر وجرعة ماء. وأضاف ند: "صحيح، الأفضل أن تمتطي الجواد ومعدتك خاوية".

وهكذا أعطاني قطعة من خبز الذرة. وجلسنا جميعاً حول العم بارشم والطعام بيننا، ثم سمعنا وقع خطوة أو خطوتين خلفنا، وتلا ذلك صوت ماك ويلي يقول:

"مرحباً بالعم بارشم. صباح الخير يا محترم". وكان يعني ند. وتقدم وهو ما يزال ينظر إلى لايتنينغ ثم قال: "تماماً. هذا هو كوبرمين بعينه. هذان الصبيان أخافا السيد والتر هذا الصباح فحسب أنكم ستُنزِلون في السباق حصاناً آخر. هل أنت الذي تتولى ذلك يا محترم"؟ فقال العم بارشم: "ادعُه السيد ماك كاسلن".

"سمعاً وطاعة، هل أنت الذي تسابق به، يا مستر ماك كاسلن؟" فأجاب ند:

"لا، رجل أبيض اسمه السيد هوجانبك. ونحن الآن بانتظاره".

"من المؤسف أن ليس لديكم غير كوبرمين كي تسابقوا به، إذ لكان إيكرون يقوم بسباق حقيقي". وقال ند:

"قلت مثل هذا للسيد هوجانبك". ثم بلع اللقمة وشرب على مهل، ومال ويلي يراقبه. وقال ند ثانية:

"تفضل شاركنا الطعام".

"شكرا. أكلت. ربما لهذا تأخر السيد هوجانبك. ربما كان ينتظر كي يحضر حصاناً آخر".

"لم يبق وقت لذلك. سيضطر للاكتفاء بهذا الآن. المشكلة هي أن الوحيد الذي يقدر أن يسبق هذا الحصان هو الذي يدرك طبيعته الخاصة، فلا يدعه يركض في المؤخرة. لأن هذا الحصان لا يحب أن يركض في الطليعة، فهو يظل متخلّفاً حتى يلوح له خط الوصول ويرى هدفاً ما يركض نحوه، حينئذ ينطلق بأقصى سرعته. أنا شخصياً لم أره يركض من قبل، لكنني أراهن على أنه كلما أبطأ الحصان الذي يتقدمه، ركز هو انتباهه على ألا يحتل الطليعة حيث لا زميل له. وهو يظل كذلك إلى أن يرى خط الوصول ويدرك أنه في سباق. وكل ما يحتاج إليه راكبه هو أن يدعه هادئ البال لاهياً، حتى إذا ما لاح خط الوصول. جاء ذلك بعد فوات الآوان. المؤسف أن الذي يعرف هذا هو الفريق الآخر". فسأل ماك ويلي:

"من؟".

"الشخص الذي سيمتطي الحصان الآخر اليوم".

"إنه أنا. لا تقل أن العم بارشم وليكورغوس لم يخبراك بهذا".

"لو أن الأمر كذلك، لما كنت تكلمني. اجلس وكُلْ. أتانا العم بوسم بزاد وافر".

"أشكرك. حسناً، سيسرّ السيد والتر حين يعرف أن الحصان هو كوبرمين دون غيره. كان يخشى أن يُقحَم في سباق مع حصان جديد، سأراك في السباق". قال هذا وانصرف.

وانتظرت دقيقة أخرى وقلت: "لكن لماذا؟" فأجاب ند: "لا أعرف. قد لا نحتاج إلى ذلك. قلت هذا على سبيل الاحتياط. أتذكر ما قلته لك هذا الصباح عن هذا السباق؟ ثم إنّ هذا البلد ليس

بلدنا ولا الحلبة حلبتنا، حتى ولا الحصان حصاننا، إلا على سبيل الإعارة. لذلك نحتاج إلى احتياطات كثيرة. لكن لماذا لا يأخذونه إلى ممفيس أو لوبرفيل أو شيكاغو للاشتراك في سباقات حقيقية بدلاً من بقائه هنا في مرعى خاص حيث لا يسابق إلا الجياد العابرة التي تتخلف عنه، مثل حصاننا؟ لقد عرفت السبب عندما رأيته البارحة. فهو حصان ضعيف يهبطَ من تحتك قبل أن تدرك ذلك إن أنت قُدْتَه بسرعة عظيمة، أكثر من السرعة التي اعتاد عليها. لذلك كان الصبي يحسب أن كل ما عليه هو أن يعتلي ظهره ويوجهه في الاتجاه المناسب. وقد فعل ذلك ففاز مرتين، وكان سيفعل مثل ذلك هذه المرة، لولا أننا أدخلنا في رأسه شيئاً آخر فصار فيه شيئان متناقضان لا ينسجم أحدهما مع الآخر. لذلك سننتظر ونرى، وبينما نحن ننتظر، الأفضل لك أن تذهب وتنام قليلاً خلف هذه الشجيرات. لقد انتشر الخبر الآن وسيبدأ الناس بالمجيء. وهناك لن يزعجك أحد".

ففعلت كما قال: "ولم أكن طوال الوقت نائماً لأن الأصوات كانت تصلني، كما أنني لم أبق طوال الوقت مستيقظاً، لأنني عندما فتحت عيني كان ليكورغوس يقف فوق رأسي. لقد جاء ليخبرني أن الوقت قد حان. فنهضت وذهبت معه. ولم يكن مع لايتنينغ غير ند والعم بارشم. كنت أتوقع أن أرى بون وسام وربما أفربي والآنسة ربيا. (لكنني لم أتوقع رؤية بطش. بل لم أفكر فيه، إذ لعل الآنسة ربيا تخلصت منه نهائياً، فذهب إلى هاردويك. كنت قد نسيته).

فسألت:

"ألم يأتوا بعد؟ فأجاب ند:

"لم يخبرهم أحد إلى أين يجب أن يأتوا، ولسنا الآن بحاجة إلى بون هوجانبك، هيا".

"ربما كانوا يبحثون عن أوتيس".

"ربما. هذا مكان مناسب لاصطياده، سواء وجدوه أو لم يجدوه".

ومشينا. كان ند والعم بارشم يتقدمان لايتننغ، وكان ليكورغوس سيأتي بالعربة والبغال لو أنه وجد فسحة لها. ذلك أن المرعى المجاور للحلبة كان قد امتلأ بالعربات والدواب واستطعت أن أرى الناس سوداً وبيضاً، دون ربطات عنق، يرتدون بزات العمل ويمضغون التبغ وقد تجمهروا على طول الحاجز وحول حظيرة الخيول. كان سباقاً ديمقراطياً. أما الكولونيل لنسكومب، البارون الارستقراطي، فلم يكن موجوداً. وعلى ما أعلم لم يكن أحد يعرف أين هو، بل لم يهتم أحد بذلك. كان يملك أحد الحصانين (ولم أكن بعد قد عرفت مالك الحصان الذي أمتطيه) كما كان يملك الأرض التي ستتسابق عليها والحاجز الأبيض الجميل الذي يسوّرها والحقل الذي وقفت فيه العربات والدواب، والسياج والحظيرة. ومع ذلك لم يكن أحد يعرف أين هو، أو يهتم بمعرفة ذلك.

وذهبنا إلى الحظيرة. فقد كانت لنا نحن أيضاً واحدة. كان لدينا كل ما يلزم السباق ما عدا بسطة توضع عليها المشروبات، من بيرة ووسكي...

كانت الهيئة الحاكمة تتألف من عامل التلغراف الليلي في المحطة، والسيد ماك ديارميد الذي يدير غرفة الطعام في المحطة أيضاً والذي أشيعت عنه خرافة تقول إنه يقدر أن يقطع الجامبون إلى شرائح رقيقة جداً، حتى أنه استطاع أن يأخذ عائلته بكاملها في رحلة إلى شيكاغو من الأرباح التي جناها من كتلة جامبون واحدة. وكان وكيلنا أحد مدربي الكلاب. ثم رأيت بون وسام يقفان بانتظارنا. وقال بون:

"لم أقدر أن أجده. ألم تره أنت؟" فأجاب ند: "من؟" ثم أشار عليَّ بالنزول عن الحصان. كان الحصان الآخر هناك أيضاً، ومازال عصبياً أو خائفاً كما قال ليكورغوس وند. وقال بون: "ذلك الصبي الملعون! قلت هذا الصباح سيكون هنا". ثم التفت إليّ قائلاً: "ماذا علّمك هذا الحصان البارحة؟ قدته دورتين حول الحلبة. فماذا علمك؟ فكِّر". ففكرت. ولم أستنتج شيئاً. فقلت: "لا شيء. كل مافعلته هو أن أحول دون ذهابه إليك مباشرة عندما رآك".

"هذا بالضبط ما أريدك أن تفعله في الشوط الأول. أبقِه في وسط الحلبة فقط، ودعْه يركض دون أن تزعجه. لا تزعجه أبداً. على أية حال سنخسر الشوط الأول وبعد..".

فقاطعه بون:

"تخسره؟ ماذا تقول؟" فقال ند:

"أتريد أن تتولّى هذا السباق أم ستترك أمره لي؟".

"حسناً، حسناً. قلت إن ذلك الصبي اللعين..".

فقاطعه ند قائلاً: "إذن دعني أغيّر السؤال: أتريدني أن أهتم بهذا السباق أم أتركه للبحث عن تلك السن؟" فقال سام: "ها قد أتوا. أعطني قدمك". ورماني على ظهر الحصان.

وهكذا لم يعد أمامنا وقت كي يعطيني ند تعليمات أخرى. لكننا لم نكن بحاجة إلى ذلك. إذ لم يكن فوزنا في الشوط الأول متوقّفاً عليَّ وعلى لايتنينغ، بل على ند وماك ويلي. والحقيقة أنني لم أكن في البداية أعرف ماذا يجري، وذلك بسبب صغري وقلة خبرتي، فضلاً عن الحالة التي كان الحصان الآخر يصير إليها تدريجياً. كان المتّفَق عليه أن يقودنا الخدم إلى حبل الانطلاق، حيث يفلتون الجياد مع

كلمة انطلق. وهكذا فعلنا. كان لايتنينغ يتصرف كعادته عندما يكون ند قريباً منه كي يشمشم يده أو معطفه، وكان أيكرون يتصرف كعادته عندما يكون أحد قرب رأسه، فكان ينطنط ويدفع الخادم هنا وهناك، لكنه كان يسير باتجاه الحبل. وكانت البداية متوقَّعَة في أية لحظة، وقد رأيت منظم السباق يتنفس ملء صدره كي يصرخ: انطلق! ولم أعرف آنذاك ماذا حصل. إذ قال لي ند فجأة "تماسك"، وشعرت براسي وذراعيّ وكتفيّ وكل ما فيّ ينخطف. لا أعرف ما الذي استعمله، مخرز أو مثقب ثلج أو مسمار كان في يده. لم أشعر بغير قفزة الحصان. وسمعت صوتاً يصرخ. لكنه لم يقل انطلق بل كان يقول: قف! قف! دي، دي. فتوقفنا، أنا ولايتنينغ، واستطعنا أن نرى سائس إيكرون على ركبتيه حيث قذفه، بينما كان إيكرون ينطلق بأقصى سرعته ويجتاز مرحلة من الدورة الأولى. وكان ماك ويلي يروح ويجيء على ظهره ويلوى عنقه جانباً. لكن لجامه كان قد أفلت، فركض منظم السباق وأربعة من المتفرجين ليوقفوه. على أن ماك ويلي كان قد أوقفه. كانت المسألة مسألة اختيار: هل يكمل الدورة ويأتي إلى خط الانطلاق أم يعود من حيث أتى، لأنه كان في منتصف المسافة؟ واختار ماك ويلي (أو لعله أيكرون) طريق العودة. وكان ند يتمتم عند ركبتيّ قائلاً: "على أية حال، لقد تعب أكثر منّا إذ ركض نصف ميل. هذه المرة عليك أن تبدأ بنفسك لأن المحكمين سوف..". وقبل أن يتم كلامه كانوا قد وصلوا. فأبعدوه، لكنهم لم يجدوا معه شيئاً. لقد أفلت رأس لايتنينغ قبل أن تعلو الصيحة آمرة بالانطلاق. لذلك تطوّع هذه المرة شخص من بين الجمهور ليمسك رأسه. وكان ماك ويلي يتفرس في وايكرون ينطنط تحته، بينما كان السائس يحاول إرجاعه إلى المكان المحدد. وفي هذه اللحظة آل الشرف إلى ماك ويلي. أفهمت ما أعني؟ حتى وإن لم تكن اللافضيلة تعرف شيئاً عن

سباق الخيل في الريف، فلم تكن بحاجة إلى ذلك. كل ما كان يلزمها هو أن تدعمني بشخص مثل سام لأمشي تلك الخطوة البعيدة في الشر بطريقة لا شعورية كصعود النسغ في الأشجار.

كنا واقفين ننتظر الإشارة عندما رأيت حذاء سائس ايكرون، فيما كان هو نفسه ينطلق في الحلبة راكضاً. وكنا أنا ولايتننغ، ساكنين لا نقوم بحركة. لكن ماك ويلي كان ممسكاً بزمام ليكرون فأوقفه قبل أن يبلغ المنعطف. فأسرعت إليه فرقة الطوارئ وأمسكت به وأعادته. وهكذا كانت النتائج إلى جانبنا حتى الآن. لكن كسبنا الأهم كان ماك ويلي لأنه لم يتملكه الغضب وحسب بل الذعر أيضاً، ثم راح يحدق فيّ، وفي عينيه شيء أكثر من الغضب. وكان سائسان يمسكان إيكرون، فابتعدنا قليلاً، أنا ولايتنينغ، لنفسح له الطريق، ثم علت كلمة انطلق.

وانطلقنا. كان لايتنينغ قوياً ومندفعاً، لكن دون هياج، وكان يتحلى بكل ما نريده من مميزات حصان السباق. غير أن ذهنه لم يكن قد أدرك بعد أنه في سباق. كان ماك ويلي يشد إيكرون جانباً فلحقنا به وتجاوزناه عند المنعطف الأول. وأخذ لايتنينغ يتباطأ شيئاً فشيئاً حين واجه الحلبة الخالية أمامه، إلى أن لحق بنا إيكرون وتجاوزنا بالرغم من كل ما فعله ماك ويلي: آنذاك أسرع لايتنينغ ثانية، وقد صار لديه رفيق. وحين درنا حول المنعطف الثاني كان عنق ليكرون يتقدمنا. وبدأ جمهورنا يهتف وكأنما حصل على لقاء ما دفعه من مال. ولاح لنا خط الوصول، فضرب ماك ويلي حصانه ضربة عنيفة. وكان عليّ أن أضرب لايتنينغ أيضاً. ولو كان أمامنا بعد عشرون قدماً لسبقنا. لكن لم تكن أمامنا تلك المسافة. ونظر إلي ماك ويلي من فوق كتفه للمرة الأخيرة. كانت نظرته نظرة هياج وذعر، لكنها كانت أيضاً نظرة ظفر،

بينما كنت أوقف لايتنينغ. آنذاك رأيت: لم تكن معركـة، كانـت شـغباً وغليان رؤوس وأكتاف وظهـور الجمهـور حـول منـصة المحكمـين، ومن وسطها نهض بون فجأة مثل شجرة سرو ترتفع وسط الغاب. كان قميصه ممزقاً وبيده هراوة يتعلق بها رجلان أو ثلاثـة. وكنـت أسـتطيع أن أراه يجأر. ثم اختفى. ورأيت ند يـركض باتجـاهي. ثم خـرج بطـش من الجمهور ومعه شخص آخر، وسارا باتجاهنـا، فقـال لنـد: مـاذا؟ فقال وهو يتناول اللجام بإحدى يديه بينما راحت يده الأخـرى تبحـث في جيبه: "لا تهتم. إنه بطش. خذ، "خـذ، لـن يزعجـك". كـان ذلـك كيس تبغ من القماش فيه قطعة جامدة بحجم الجوزة. وقال:

"أخبئها. واحتفظ بها. إنما لا تنس من أين جاءت: مـن نـد وليـام ماك كاسـلن جفرسـون ميسيـسيبي. فقلـت نعـم، وخبأتهـا في جـيبي الخلفي. ثم حاولت أن استوضح لكنه لم يدعني أنهـي كلامـي، فقـال لي: أبحث عن العم بوسم بأسرع ما يمكنك وابق معه. لا تهـتم بـشأني أنا وبون والبقية. إذا أخذوه أخذوا البقية. اذهب مباشرة إلى العم بوسم وابق معه. إنه يعرف ما يجب أن يفعل. فقلت نعم.

وكان بطش والرجل الآخر قد وصلا إلى بوابة الحلبة. كـان قـسم من قميص بطش قد ذهب أيضاً. وكانـا ينظـران إلينـا. وسـأل الرجـل: أهذا هو؟ فأجاب بطش: نعم. وهنا قال الرجل لند: هات الحـصان يـا ولد. إنني أريده.

فأشار عليَّ ند بأن أبقى هادئـاً. ثم قـاد الحـصان إلى حيـث كانـا ينتظران. وقال لي الرجل بلطف: انـزل يـا ابـني. لا أريـد منـك شـيئاً. فنزلت. ثم قال لند: أعطني اللجام. فامتثل ند. حينئذ قال له الرجل:

"ستذهب معي. أنت موقوف!"

الفصل الحادي عشر

كان الجمهور يوشك أن يحيط بنا. كنا نقف هناك قبالة بون والرجل الآخر الذي كان يمسك بلايتنينغ. وقال ند: ما الحكاية يا إخواني البيض؟ فأجاب الرجل: "إلى السجن. هكذا نسميه هنا. لا أعرف ماذا تسمّونه في بلدكم".

"نعم سيدي. نحن أيضاً عندنا مثله. لكنهم عندنا يذكرون السبب حتى للزنوج". فقال بطش:

"أوه، إنه محام! لعله يريد أن يرى ورقة. أره ورقة. لا بأس سأريه أنا". وأخرج شيئاً من جيبه الخلفي. رسالة في مغلف مختوم. فتناولها ند. وظل في مكانه هادئاً يمسكها بيده. فقال بطش:

"ما قولك في هذا؟ رجل لا يحسن القراءة، مع ذلك يطلب أن يرى ورقة، شُمّها إذن، لعل رائحتها صحيحة".

فأجاب ند:

"نعم سيدي، صحيحة". وكان الجمهور قد وصل. فاستعاد بطش المغلّف من ند ووضعه في جيبه ثم خاطب الناس:

"لا شيء، يا شباب. إنها مجرد مشكلة قانونية تتعلّق بمن يملك هذا الحصان. لم يُلغَ السباق. سيبقى للشوط الأول. الشوطان الباقيان يؤجلان إلى الغد. أتقدر أن تسمعني أنت هناك؟".

فأجاب صوت من بين الجمهور:

"لا نقدر إن كانت المراهنات قد ألغيت". ثم علت قهقهة وتلتها اثنتان. فأجاب بطش:

"لا أفهم. كل من رأى هذا الحصان يركض في العام الماضي وعاد يراهن عليه، فقد ألغى نقوده لحظة راهن بها عليه". وانتظر القهقهة لكنها لم ترتفع. ثم عاد الصوت ذاته يقول (أو ربما صوت آخر):

"هل يرى والتر كلاب مثل هذا؟ لو طال الشوط عشر أقدام بعد لسبق هذا الحصان اليوم".

"حسناً، حسناً، نسوّي هذا الأمر غداً. لم يتغير شيء. الشوطان التاليان تأجّلا إلى الغد. والدولارات الخمسون عن كل شوط باقية ولم يربح الكولونيل غير دفعة واحدة منها. هيا الآن، يجب أن نوصل الحصان وهؤلاء الشهود إلى المدينة حيث نستطيع أن نوضح كل شيء، ليصبح بالإمكان متابعة السباق غداً. ليناد أحدكم بإحضار عربتي".

ثم رأيت رأس بون يرتفع بين الجمع. كان وجهه هادئاً، ما تزال تعلوه خطوط دامية وقد ربط طرفي قميصه الممزق حول عنقه. ثم رأيت سام أيضاً، وكأنما لم يبدُ عليه أثر. كان هو الذي تقدم أولاً. فقال له بطش:

"سام، منذ ثلاثين دقيقة ونحن نحاول العثور عليك، لكنك لم تدعنا نراك".

"نعم. أسألك ثانية، ولتكن الأخيرة: هل نحن موقوفون؟" فسأل بطش: من الموقوف؟

"أنا وهوجانبك وهذا الزنجي". فالتفت بطش إلى الرجل الآخر، فعرفت بسرعة أنه كان هو السلطة في بارشم، وهو الذي حدثتنا عنه الآنسة ريبا عشية البارحة. كان مفوّض الشرطة، ولم يكن بطش بالقياس له غير ضيف آخر مثلنا. وقال بطش:

"هو ذا محام آخر. ربما كان هو أيضاً يريد ورقة". فقال المفوض لسام: "كلا. يمكنك الذهابِ متى شئت". فقال سام: إذن أنا عائد إلى ممفيس لأجد سلطة ما، أعنيِ نوعاً من السلطة". وكان قد رآني فقال لي: "تعال معي". فأجبته: كلاً، سأبقى هنا". فنظر إلي المفوض وقال: يمكنك أن تذهب معه إذا شئت. فقلت: كلا يا سيدي سأبقى هنا. فسأل المفوض: لمن هذا الصبي؟ فأجاب ند: إنه معي. فسأل المفوّض وكأنه لم يسمع ما قال ند: من أتى به إلى هنا؟ فأجاب بون: أنا، إنني أعمل عند أبيه. وقال ند: أنا أعمل عند جده، ونحن مُكَلّفان بالاهتمام به. وقال سام: انتظروني، سأحاول أن أعود الليلة. حينئذ نبحث كل شيء. فقال المفوض: وعندما تعود تذكّر أنك لست في ممفيس أو ناشفيل أو حتى في هاردويك. عندما تنزل إلى المحطة من القطار تكون في النقطة رقم أربعة. فقال بطش معلقاً.

"هكذا يجب أن تفهمهم. نحن في ولاية تنيسي الحرة".

"كنت أعنيك أنت أيضاً. ربما كنتَ أول من يجب أن يذكر هذا".

وكانت العربة قد وصلت إلى حيث أمسكوا ببون. وأشار المفوض إلى ند أن يصعد. وفجأة بدأ بون يقاوم. فقال له ند شيئاً ما. حينئذ التفت المفوض نحوي وقال:

"ذلك الزنجي يقول إنك ستذهب مع العجوز بوسم هود".

"نعم سيدي".

"لا أستحسن هذا: صبي أبيض بين أسرة من الزنوج. تعال معي إلى البيت".

"كلا يا سيدي".

"بلى. أسرع. لدي أعمال كثيرة". وهنا قال ند: "لكل شيء حد!" فتوقف المفوّض دون حراك. ثم قال: "أصبت. ولكن هل هذا هو المكان الذي تريد الذهاب إليه؟ أعني عند العجوز بوسم؟" فقال: نعم سيدي. وسأل بطش، وقد أخذ أعنّة الجياد من الرجل الذي أحضر العربة: ماذا ستفعل بالزنجي؟ هل ستجعله يقود حصانك؟ فقال المفوض لند: ستقود حصاني. اصعد، أنت الخبير بالخيول هنا.

فأخذ ند الأعنة من بطش وصعد وضغط على العجلة ليصعد المفوض إلى جانبه. وجلس سام وبون في المقعد الخلفي. وكان بون ما يزال ينظر إليّ. وبدأ وجهه مرضوضاً مهشماً. وقال لي: تعال مع سام. فأجبت: إنني بخير. فقال المفوض: أعرف بوسم هود. سأذهب لأخذه إن قلقت عليه. سُقْ يا ابني.

وتحركوا. وبقيت وحدي وشعرت بالوحدة. لم أشعر بغير الوحدة. كنت جزيرة وسط تلك الحلقة من القبعات والقمصان التي بلا ربطات عنق، وبزات العمل والوجوه التي بلا أسماء التي انصرفت عني دون كلمة نعم أو لا، أو اذهب أو ابق. ورأيتني أنا المتروك، أُترك ثانية. فعندما تكون في الحادية عشرة فقط لا تكون كبيراً حتى تستحق هذا القدر من الهجر. هذا يجعلك تطمس، تُمحى، تنحلّ، تتبخر تحت وطأته. وأخيراً قال شخص من الآخرين:

"هل تبحث عن بوسم هود؟ أظنه هناك في عربته ينتظرك".

كان هناك فعلاً بانتظاري وكانت العربات كلها قد انصرفت ولم

يبق غير عربته. فمشيت إليها وتوقفت. لا أعرف لماذا، توقفت، وهذا كل ما في الأمر. ربما لم يكن هناك مكان آخر كي أذهب إليه. أعني لم أجد فسحة لأخطو إلى الأمام. فتوقفت إلى أن حرك العربة شخص ما. وقال لي العم بارشم:

"اصعد، سنذهب إلى البيت وننتظر ليكورغوس".

فقلت:

"ليكورغوس؟" وكأنني أسمع الاسم للمرة الأولى. فأوضح العم بارشم قائلاً:

"ذهب إلى البلدة ليستفهم عن القضية ويعود ليخبرنا. وسيسأل عن موعد تحرك القطار إلى جفرسون".

"جفرسون؟".

"كي تذهب إلى البيت. إذا أردت". قال هذا دون أن ينظر إليّ.

"لا اقدر أن أذهب الآن. يجب أن انتظر بون".

"قلتُ إذا أردت. اصعد" فصعدت. ومضينا عبر المرعى، ثم خرجنا إلى الطريق. فقال لي: انزل وأغلق البوابة. آن أن يتذكر هذا الأمر شخص ما.

فنزلت وأغلقتها وعدت إلى العربة، فقال لي: هل قدت يوماً بغلاً يجر عربة؟ فقلت: كلا يا سيدي. فناولني القياد. فقلت إنني لا أعرف كيف أقودها، فأجاب:

"إذن يمكنك أن تتعلم الآن. البغل ليس كالحصان. عندما تتسرب إلى رأس الحصان فكرة خاطئة، عالِجْه بضربة سوط أو ربما بمجرد الزجر. إنما البغل بخلاف ذلك. فهو يستطيع أن يحتفظ في رأسه

بفكرتين في وقت واحد. ولكي تغيرهما يجب أن تتصرف وكأنك تصدق أنه اعتزم أن يغيرهما قبل أن تطلب ذلك. وهو يعرف أن تظاهرك غير صحيح، لأن البغال ذكية. لكن البغل جنتلمان، فإذا جاملتَه وعامَلْتَه باحترام، بادلك المجاملة والاحترام، شرط ألا تبزّه في ذلك. لهذا لا تدلّل البغل كما تدلل الحصان، فهو يعرف أنك لا تحبه. يعرف أنك تحاول خداعه واستمالته ليفعل شيئاً لا يريد أن يفعله، وهذا يهينه. عامِلْه هكذا. إنه يعرف الطريق إلى البيت. كما يعرف أنني لست من يمسك بالقياد. لذلك كل ما عليك أن تفعله هو أن تخبره بواسطة الرسن أنك أنت أيضاً تعرف الطريق. ولكن، بما أنه هو ابن البلدة وأنت الغريب، فإنك تريده هو، لياقة، أن يتقدمك!".

ومضينا. وسار البغل برشاقة وانتظام. لم يكن ما يثيره من الغبار مقدار نصف ما يثيره الحصان، فأدركت الآن ما عناه العم بارشم. كنت أشعر من خلال الرسن بذكائه وحكمته بالإضافة إلى قوته. لم تكن لديه المقدرة على الاختيار المضبوط واتخاذ القرار الصحيح عند اللزوم وحسب، بل كانت لديه الإرادة التي تتعمد ذلك أيضاً. وسألني العم بارشم:

"ماذا تفعل في بلدك؟"

"أعمل أيام السبت".

"إذن ستوفر بعض المال. فماذا ستفعل به؟"

وفجأة وجدتني انطلق بالحديث وأخبره عن كلاب صيد الأرانب، وكيف أردت أن أصبح صياد ثعالب مثل ابن العم زاك، وكيف قال ابن العم زاك أن الطريقة الوحيدة لتعلم ذلك هي بالحصول على بضعة كلاب صيد الأرانب والتدرب على اصطياد الأرانب أولاً. وأخبرته أنّ أبي يدفع لي عشرة سنتات كل يوم سبت في الإسطبل

العمومي، وأن أبي سيدفع مبلغاً مماثلاً لما سأدّخره كي أستطيع شراء أول زوج من الكلاب لأبدأ الصيد. وقلت له أن ذلك يكلّف اثني عشر دولاراً، وإنني ادخرت ثمانية دولارات وعشرة سنتات. ثم فجأة بدأت أبكي وأنتحب: كنت تعباً، ليس لأنني ركبت في سباق ميل واحد، فأنا قد ركبت أكثر من هذه المسافة من قبل، بل ربما لأنني استيقظت باكراً ورحت أعبر البلدة جيئة وذهاباً، وكل ما أكلتُه وقت الغداء هو كسرة من خبز الذرة. وهكذا كنت جالساً أشهق كطفل، وقد ألصقتُ وجهي بقميص العم بارشم، بينما كان يحضنني بإحدى ذراعيه ويتناول الرسن باليد الثانية، دون أن يقول كلمة. وأخيراً قال: "الآن يمكنك أن تكف. كدنا نصل إلى البيت. أمامك وقت يكفي لتغسل وجهك قبل أن ندخل. ما أحسبك تريد أن تراك النسوة هكذا".

وهذا ما فعلت. أعني، فككنا البغل أولاً وسقيناه وعلّقنا السرج وأدخلنا البغل إلى الإسطبل وعَلَفناه، ودفعنا العربة تحت سقيفتها. ثم غسلت وجهي بالماء وجففته بجورب الركوب وتبعتهم إلى البيت. كان العشاء جاهزاً مع أن الساعة لم تكن قد بلغت الخامسة، وذلك على عادة المزارعين من أهل الريف. وجلسنا، أنا والعم بارشم وابنته، ولم يكن ليكورغوس قد عاد بعد من البلدة. وسألني العم بارشم إن كنت أتلو صلاة شكر قبل الطعام في بيتنا. فأجبته بالإيجاب حينئذ قال لي: احنِ رأسك. فحنيت رأسي، فتلا صلاة مختصرة بمهابة ولباقة ودون تذلّل. كان كرجل مهذب ذكي يخاطب آخر: يخبر الإله أننا نوشك أن نأكل وأننا نشكره على نعمته ولكنه يذكره في الوقت نفسه بأنه لو لم يكدّ ويعرق إنسان اسمه هود اوبريجنز (وهذا اسم ليكورغوس) لكانت صلاة الشكر تتلى فوق صحون فارغة. وأنهى العم بارشم صلاته وفتح فوطته وادخل طرفها تحت يافطته كما يفعل جدي تماماً وشرعنا نأكل. وحين انتهينا لم تكن الشمس قد غربت بعد. وهكذا

كان الليل بطوله أمامي. ولم أكن أعرف أنني سأنام. كان العم بارشم جالساً أمامي ينكش أسنانه بمسواك ذهبي، مثل مسواك جدي، ويقرأ أفكاري وكأنه يسلط عليها مصباحاً سحرياً. ثم قال لي:

"هل ترغب في الذهاب إلى صيد السمك؟" ولم أكن في الحقيقة أحبّ صيد السمك، لكنني وافقت بسرعة، فأضاف:

"هيا نذهب، ريثما يكون ليكورغوس قد عاد".

كانت هناك ثلاث قصبات مجهزة بالخيوط والصنابير وكل شيء، تستند إلى جدار الرواق الخلفي بين مسمارين. فأخذ اثنتين منها. كان هناك دلو ثُقِب غطاؤه عدة ثقوب بواسطة مسمار. وقال لي: أن ليكورغوس يحفظ فيه الجنادب التي يستعملها كطعم، أما أنا فأفضل الديدان.

كان يحفظ الديدان في صينية خشبية فيها قليل من التراب. وعندما همّ بإخراج بعضها سألته أن يدع ذلك لي. فحفرت التراب بشوكة عنيفة وأخرجت الديدان من التراب ووضعتها في علبة صفيح. وحملنا العدة ونزلنا باتجاه الساقية مارّين بين أشجار الغابة، حتى بلغنا الساقية. كان الماء يجمع الأضواء الباهتة بلطف، ثم يعكسها بلطف مماثل. وقال العم بارشم:

"في هذا الحوض تصيد ابنتي. ندعوه حوض ماري. تستطيع استعماله الآن. أما أنا فسأنزل على طول الضفة لأجد مكاناً مناسباً".

وذهب. كان الضوء ينسحب بسرعة، وأمسى الليل قريباً. فجلست على جذع شجرة وُضع هناك خصيصاً، بين طنين البعوض. لم يكن الأمر صعباً. كل ما كان عليَّ أن أفعله هو أن أقول في نفسي عند الحاجة "لن أفكر". وبعد فترة فكرت في إنزال الصنارة إلى الماء. وتوالت عليَّ أفكار مختلفة، كأن أضع أحد جنادب لكيورغوس في

الصنارة، لكنني عدت وفكرت بأنه يصعب عليَّ الإمساك بالجنادب، ففضلت أن أتركها لليكورغوس. وعدت أقول بيني وبين نفسي، يجب ألا أفكر. لم أكن أستطيع رؤية العم بارشم أو سماعه، ولم أعرف كم ابتعد على طول الضفة. وشعرت أن هذا هو الوقت المناسب لأن أتصرف كطفل، لكن ما الفائدة من التصرف كطفل إن لم يكن قربك من يشعر بذلك ويمنحك عطفه. وإذا كنت أريد العطف، أو حتى العودة إلى البيت، فما أردته حقيقة هو فراش طري أليف أرقد عليه ثانية على سبيل التغيير. وسمعت صوت طائر الليل. ومن خلف الآجام علا صوت بومة. وفكرت أنه لابد أن تكون في الجوار غابات كبيرة. وإذا كانت كلاب ليكورغوس (أو ربما كلاب العم بارشم) تمكنت من القبض على أوتيس، فلابد أنها تستطيع أن تصيد الأرانب. كان الليل قد حلّ منذ قليل. وتكلم ليكورغوس بهدوء وهو يقف ورائي، ولم أكن قد سمعت وقع خطواته:

"هل اصطدت شيئاً؟".

"لست صياد سمك ناجحاً. كيف كان صيد كلابك؟".

"جيد".

وحمل ليكورغوس القصبتين وتبعناه إلى البيت. كان النور مضاء. وكان على المائدة صينية وُضع عليها عشاء ليكورغوس. فقال له العم بارشم:

"اجلس. قص علينا ما جرى لك، ونحن نأكل".

فجلس قائلاً:

"ما زالوا هناك". فسأله العم بارشم:

"ألم يأخذوهم إلى هارديك بعد؟ فليس في بوسم سجن".

"سجنوهم في مستودع للحطب، خلف المدرسة، إلى أن يستطيعوا أخذهم إلى السجن في هارديك. أعني الرجال. لم يوقفوا نساء من قبل". فقال ليكورغوس:

"كلا، يا سيدي. السيدات ما زلن في الفندق، وعلى بابهن حارس. السيد هوجانبك وحده في مستودع الحطب. السيد كالدويل عاد إلى ممفيس في القطار رقم واحد وثلاثين" ومعه الصبي، فقلت لأوتيس: هل استرجعوا السن منه؟ فأجاب ليكورغوس:

"لم أعرف شيئاً عن هذا. الحصان أيضاً بخير. ذهبت ورأيته. إنه في إسطبل الفندق. وقد كتب السيد كالدويل قبل ذهابه تعهداً بشأن ند ليتمكن من مراقبة الحصان". ثم أكل لقمة وتابع قائلاً: "هناك قطار يذهب إلى جفرسون في العاشرة إلا ثلثاً يمكننا اللحاق به إن نحن أسرعنا".

فأخرج العم بارشم ساعة فضية من جيبه ونظر إليها. قلت: "لا أقدر. يجب أن أنتظر". فأعاد العم بارشم ساعته إلى جيبه ونادى ابنته دون أن يرفع صوته. كانت في الغرفة المقابلة، ومع ذلك لم أسمع لها صوتاً. وسرعان ما وقفت في الباب وقالت: "لقد أعددته". ثم قالت لي: "ستنام في سرير ليكورغوس حيث نمت البارحة، فأجبت: "لا حاجة بي إلى سرير ليكورغوس. اقدر أن أنام قرب العم بارشم. لا يهم". فنظروا إليّ بهدوء تام وفي عيونهم النظرة الثابتة نفسها. وعدت إلى القول:

"نمت مع الرئيس مرات عديدة. هو أيضاً يشخر. لا يهمني". فسأل العم بارشم قائلاً:

"الرئيس؟"

"إنه جدي، هكذا ندعوه. هو أيضاً يشخر. إنني لا أهتم".

وذهبنا إلى غرفة العم بارشم. كانت على حاملة المصباح رسوم أزهار، وفي الجدار صورة كبيرة ضمن إطار مذهب تمثل امرأة في منتصف العمر. وكان هناك كرسي هزّاز لكنني لم أجلس عليه، بل بقيت واقفاً. وبعد قليل عاد يرتدي جلباب نوم وهو يملأ الساعة. وقال لي أن أخلع ملابسي، فخلعتها. حينئذ سألني:

"هل تدعك أمك تنام هكذا في البيت؟".

"كلا، يا سيدي".

"أليس معك شيء تلبسه؟".

"كلا، يا سيدي". فوضع الساعة من يده وذهب إلى الباب ونادى ابنته كي تحضر لي أحد قمصان لكيورغوس النظيفة. فغابت قليلاً ثم عادت تمدّ يدها من فتحة الباب بالقميص. فلبسته، وسألني:

"هل تصلي قبل النوم راكعاً أم جالساً في سريرك؟".

"راكعاً".

"إذن اتلُ صلاتك".

فجثوت قرب السرير وصليت ثم دخلت في الفراش. فأطفأ المصباح ثم سمعت صرير السرير ثانية. كان القمر سيتأخر قبل أن يرتفع في السماء، إنما كان هناك نور كاف فاستطعت رؤيته وهو يستلقي، وكل ما فيه بياض على سواد أو سواد على بياض. كان يستلقي بسواده فوق الوسادة البيضاء، بينما كان شارباه الأبيضان ولحيته القصيرة البيضاء فوق وجهه الأسود. وقال لي:

"غداً صباحاً سآخذك إلى البلدة لترى السيد هوجانبك. فإذا قال إنك قمت بكل ما عليك هنا وطلب منك العودة إلى البيت، فهل تعود؟".

"نعم، يا سيدي".

"الآن نم".

كنت أعرف أن هذا ما أريده قبل أن يقوله. ربما كان ما تمنيته منذ البارحة هو الذهاب إلى البيت. لا أحد يحبّ أن يُجلَد، لكن لا يمكنه تفادي ذلك أحياناً، وكل ما يستطيع فعله هو أن لا يتراجع. وهكذا فعل بون وند، أي أنهما لم يتراجعا، وإلا لَما كانا حيث هما الآن. وقد لا يقولان إنني تراجعت إذا طلبا مني الذهاب إلى البيت بنفسيهما. أرأيت؟ كانت الحقيقة البسيطة أنني أردت الذهاب إلى البيت ولم أكن أملك الشجاعة الكافية للتصريح بذلك، فكيف بتنفيذه. وهكذا حين اعترفتُ أخيراً بأنني لم أكن فاشلاً وحسب، بل جباناً أيضاً، استراح فكري فصار بإمكاني أن أنام كطفل. كان العمّ بارشم قد نام. لكنه نادراً ما شخر. ولم يكن ذلك مهماً، ما دمت سأذهب إلى البيت غداً وليس معي شيء - لا حصان مسروق ولا مومسات ولا عامل سكة حديد متجوِّل ولا ند أو بون. وصحوت على صياح ارتفع مرتين أو ثلاثاً. وحين تقلّبت كان موضع العم بارشم خالياً. فجلست في الفراش، وكانت الشمس قد أشرقت. سمعت الصياح من جديد خارج البيت. كان أحدهم ينادي ليكورغوس. فقفزت من الفراش وركضت إلى النافذة حيث يمكنني أن أطلّ منها على الساحة الأمامية. فرأيت ند ومعه الحصان.

الفصل الثاني عشر

هكذا مرّةً أخرى. كانت الساعة الثانية بعد الظهر، فهيّأت أنا وماك ويلي خطة السّباق (وكانت خطّته هو على أية حال) ـ وكنا قد أخفْنا مستر "كلاب" بما فيه الكفاية يوم أمس، وقُدناه إلى الموقع النصفي، فظفر ماك ويلي بذلك ـ ووقف ينتظر الجوكي للانطلاق.

سبقَتْ ذلك بضعةُ أشياء. منها ند. كان مظهرُه سيئاً ومخيفاً. ولم يكن ذلك بسبب قلة النوم؛ فالنّوم كان ينقصنا جميعاً. لكنني كنت قد أمضيت أنا وبون الليالي الأربع على الأقل في الفراش منذ أن تركنا جفرسون، بينما لم يُمضِ ند أكثر من ليلتين، إحداهما في عربة يجرّها حصان والأخرى في الإسطبل مع الحصان، ولم يفترش غيرَ التّبن، هذا إذا كان قد افتَرَش أيّ شيء. أضِفْ إلى ذلك ثيابه؛ فقد كان قميصه وسخاً، ولم يكن بنطلونه الأسود في حال أفضل. أما من جهتي فكانت إفربي قد غسلت، على الأقل، بعضَ ثيابي في الليلة قبل الأخيرة، في حين بقي هو لابساً ثيابه دون أن يخلع شيئاً منها. وها هو الآن يجلس وقد لبس بزة باهتة اللون نظيفة من بزات العم بارشم، وهي في الواقع عبارة عن بنطلون وسترة عمل. وكانت ماري تغسل قميصه وتبذل جهدها لتنظيف بنطلونه. وكنا، أنا وهو، نجلس إلى طاولة المطبخ، نتناول فطورنا، ومعنا العم بارشم، يصغي.

قال إن أحد الرجال البيض ـ ولم يكن المفوّض السيد بوليموس ـ أيقظه من نومه حيث كان مستلقياً فوق بالات التبن، وقال له أن يأخذ الحصان ويغادر البلدة. فقلت له: "وحدك أنت ولايتنينغ دون بون

والآخرين؟" وتابعت متسائلاً: "أين هم؟" فقال ند: "حيث وضعهم الرجال البيض. هكذا قلت لهم إنني شاكر كثيراً، أيها الأصدقاء البيض، وأخذت لايتنينغ بيدي و..". فسألته: "لماذا؟" فأجاب:

"وماذا يهمك من السبب؟ ما نحتاج إليه الآن هو أن نقف خلف ذلك الشريط الساعة الثانية بعد الظهر، ونسبقهم ونستعيد سيارة الرئيس، ثم نعود إلى جفرسون التي كان من الأفضل في الواقع ألا نغادرها".

"لا يمكننا أن نعود دون بون. لماذا لم يسمحوا له بالذهاب، إذا كانوا قد سمحوا لك وللايتنينغ؟"

"انتبه. عند كلٍّ منا، أنت وأنا، ما يكفينا لأن نشترك في سباق الخيل. لماذا لا تُنهي فطورك وتعود فتستلقي وتستريح حتى أدعوك في الوقت المناسب".

وقال العمّ بارشم لند، وهو يأكل بسرعة، ورأسه مائل فوق صحنه، وقد بدا متعباً ولم تكن عيناه محمرتين وحسب، بل كانتا فاقعتي الاحمرار:

"كفّ عن الكذب عليه". فقال ند:

"لن يذهب السيد بون هوجانبك إلى أي مكان. إنه الآن في السجن. سينقلونه إلى هاردويك هذا الصباح حيث يشدّون وثاقه. هذا يكفي، وانسيا ذلك. فما علينا القيام به هو".. فقاطعه العم بارشم قائلاً:

"أخبرْه. لقد تحمّل كل ما سبّبتموه له منذ أن جئتم به إلى هنا. فما الذي يجعلكم تشكّون أنه لا يستطيع أن يتحمل بقية ما سيلاقيه، حتى يمكنكم الانتقال إلى الجانب الآخر وتتمكّنوا من إرجاعه إلى البيت؟ ألم يكن عليه أن يراقبها أيضاً، هنا تماماً في حديقتي وبيتي وهناك في حقولي، هذا دون أن أذكر ما كان باستطاعته أن يراه في البلدة مذّاك ـ ذلك الرجل يدفش تلك الفتاة ويزحمها، وهي تحاول أن تتخلص

منه، ولم يبق لها سوى هذا الولد، ذي الأحد عشر ربيعاً لتلتجئ إليه؟ ولم تكن تستطيع الاعتماد على بون هوجانبك، ولا على القانون، ولا على الرجال البيض، بل عليه هو فقط؟ أخبره". وكان في داخلي شيء يقول: كلا، كلاّ لا تسأل. اتركها اتركها. وقلت: "ماذا عمل بون؟".

واستمرّ ند يأكل فوق صحنه، وعيناه ترتجفان كما لو أن فيهما رملاً، وقال: "ضرب ذلك المفوّض وضرب بطش، حتى كاد يقضي عليه. أطلقوا سراحه قبلي وقبل لايتنينغ. ولم يتوقف، بل توجه رأساً إلى تلك الفتاة" فقلت:

"إنها الآنسة ريبا. الآنسة ريبا".

"كلا، كانت الأخرى، تلك الكبيرة. لم يذكروا اسمها أمامي - وضربها واستدار".

"ضربها؟ بون ضرب الآنسة كوري؟"

"هذا هو اسمها؟ نعم واستدار وعاد إلى أن عثر على المفوّض وضربه بالرغم من مسدسه وكلّ ما لديه، قبل أن يقدروا على تخليصه".

"ضربها بون. ضربها".

"نعم. هي السبب في إطلاق سراحنا. أنا ولايتنينغ فقد اكتشف بطش أنه لا يقدر أن ينالها بأية طريقة أخرى، وعندما عرف أن علينا أنا وأنت وبون أن نربح هذا السباق اليوم قبل أن نجرؤ على العودة إلى البيت، وأننا نعتمد على لايتنينغ للفوز بالسباق، أخذه وسجنه. هذا ما حدث. هذا كل ما في الأمر. أخبركم العم بوسم كيف رأى الواقعة تقترب يوم الاثنين، وربما كان عليّ أن أراها أنا أيضاً، ولعلّي كنت أستطيع لو لم أكن مشغولاً بلايتنينغ إلى هذه الدرجة، أو لو كنت أعرف بطش أكثر".

"لا أصدق ذلك".

"نعم. هذا ما حدث. كان مجرد سوء حظ. ذلك النوع من سوء الحظ الذي لا يستطيع الإنسان أن يحسب له حساباً قبل وقوعه. وجد نفسه صدفة حيث كان عندما رآها يوم الاثنين. وتصوّرَ فوراً أنه يستطيع بذلك المسدس وبتلك الشارة على صدره، أن يفعل كل شيء. لعلّ ذلك راجع إلى أنه اعتاد رؤيتهما حوله. لكنهما هذه المرة فقط لم يفيداه، وهكذا كان عليه أن يبحث عن وسيلة أخرى. فكان لايتنينغ الذي نعتمد عليه لنربح ذلك السباق للتمكن من استرجاع سيارة الرئيس، وربما عدنا إلى البيت". فقلت:

"كلا، كلا لم تكن هي. ليست هنا. عادت مساء أمس إلى ممفيس مع سام. لم يخبروك. كان شخصاً آخر. شخصاً آخر".

"كلا، كانت هي. رأيتها يوم الاثنين هنا".

أوه، نعم. وفي طريق عودتنا ذلك المساء وعند الطبيب، وفي الفندق تلك الليلة حتى أفزعَته الآنسة ريبا وهرّبته وظننّا، أنا على الأقل ظننت، أنه ذهب إلى غير عودة، لأن الآنسة ريبا كانت أيضاً مجرد امرأة. قلت:

"لماذا لم يساعدها شخص آخر؟ رجلٌ ما. ذلك الرجل، ذلك الرجل الذي أخذك أنت ولايتنينغ، والذي أخبر سام وبطش أن بإمكانهما أن يكونا أي شيء يريدانه في ممفيس أو ناشفيل أو هاردويك، ولكنه هنا في بوسم هو وحده السلطة".

- "ثم صرخت: لا أصدق هذا!" فقال ند:

"نعم. إنها هي التي أطلقت سراح لايتنينغ ليدخل السباق مرة أخرى اليوم. أنا لا أتكلم عن نفسي وعن بون والآخرين، بطش لم يهتمّ بنا أبداً، لكنه اهتم بإبعاد بون وإزاحته من طريقه حتى هذا الصباح. كان

لايتنينغ هو كلّ ما احتاج إليه. كان عليه أن يدخلني في الموضوع، أنا وبون والبقية، ليجعل السيد بوليموس يصدّقه. وقد خدعه بطش واستخدمه إلى أن حصل ما حصل هذا الصباح وأطلق سراحنا. وربما تمّ ذلك حين اعتبر بطش أنه نال حقه. فزعم بأن المسألة كانت كلها غلطة، أو أن الحصان كان غير الحصان. أو ربما لم تكن لبطش يد في ذلك، بل السيد بوليموس هو الذي حلل الموقف وشكّ في الأمر، فأطلق سراح الجميع. وقبل أن يقدر أن يستدير، ذهب بون وضرب تلك الفتاة، ثم عاد مباشرة، وحاول أن يطيح برأس بطش ومسدسه وكل شيء، بيديه وحدهما. ولابد أن السيد بوليموس استنتج القصة بكاملها. وقد يكون السيد بوليموس صغير الجسم أو عجوزاً، إلا أنه رجل حقاً. أخبروني كيف أن زوجته أصابتها العام الماضي نازلة من تلك النوازل فلم تقدر حتى أن ترفع يدها، وكان كل أبنائه متزوجين يعيشون وحدهم، وهكذا كان عليه أن يغسلها ويطعمها وينزلها من الفراش ويعيدها إليه نهاراً وليلاً، بالإضافة إلى الطبخ وتدبير المنزل، هذا إذ لم تمرّ إحدى الجارات وتساعده. مع ذلك لا تقدر أن تعرفه على حقيقته قبل أن تنظر إليه وتراقبه. دخل هناك ـ لم أر هذا بنفسي، بل أخبروني: كان اثنان أو ثلاثة يمسكون ببون ويحاول آخر أن يمنع بطش من ضربه بالمسدس بينما كانوا يمسكون به. فتقدم رأساً إلى بطش وانتزع ذلك المسدس من يده ومد أصابعه وانتزع الشارة عن صدره كما انتزع نصف قميصه وتلفن لهاردويك ليعيدوهم إلى السجن جميعاً، ومعهم النساء أيضاً. وعندما يكون في الأمر نساء، يسمّون ذلك حلاوة". فقال العم بارشم مصححاً:

"زعرنة". وقال ند:

"هذا ما قلته. بإمكانك أن تسمي ذلك ما شئت. إنني اسمّيه سجيناً". وقلت:

"لا أصدق. إنها تركت ذلك". فقال ند:

"خير لنا إذن أن نعلن امتناننا لأنها بدأت من جديد إذ لـولا ذلـك لكنت أنا ولايتنينغ ـ" فقلت:

"لقد أقلعت عن ذلـك. وعـدتني بأنهـا سـتترك". فقـال نـد: "ألم تسترجع لايتنينغ؟ أليس واجبنا الآن هـو أن ندخلـه الـسباق؟ ألم يقـل مستر سام أنه سيعود اليوم وسيعرف ما سيعمله، وسـنكون أنـا وأنـت وبون كالعادة كما لو أننا عدنا إلى بيوتنا؟"

وجلست هناك. كان الوقت مازال باكراً. أعني كانـت الـساعة مـا تزال تشير في تلك اللحظة إلى الثامنة فقـط. كـان الجـو يـدل علـى أن اليوم سيكون حـاراً، اليـوم الحـار الأول، بـدء الـصيف. أرأيـت؟ إن الاستمرار في قولك لا أصدق يمكن أن يفيد في البرهة نفـسها ـ لكـن حالما تموت الكلمات والـضجيج، يبقـى كـل شـيء هنـاك: الغـضب والحنق والحزن وكل شيء آخر ـ دون تغيّر. وقلت للعم بارشم:

"عليَّ أن أذهب إلى البيت مباشرة. وإذا قدرت أن اسـتخدم أحـد البغال، فسأرسل لـك الـدراهم حالمـا أصـل إلى البيـت". فنـهض في الحال قائلاً: تعال. وقال ند: "قـف. فـات الوقـت الآن. أرسـل الـسيد بوليموس يطلب سيارة. لقـد ذهبـوا". وقـال العـم بارشـم: "يمكنـه أن يقطع الطريق عليهم. المسافة بيننا وبين الطريق التي سيسلكونها ليـست أكثر من نصف ميل". فقال ند: "ينبغي أن أنام قليلاً".

فقال العم بارشم: "أعرف ذلك. أنا ذاهب معه. وعَدتُه بذلك ليلة أمس". فقلت: "لست ذاهباً إلى البيت الآن. سأذهب إلى البلدة لدقيقـة. ثم أرجع إلى هنا".

وقال ند: "حسناً. دعني أنهي قهوتي على الأقل".

لكننا لم ننتظره. كان أحد البغلين قد انطلق على أية حال، ربما إلى الحقول مع ليكورغوس. أما البغل الآخر فكان موجوداً. وخرج ند قبل أن نبدأ. ودلّنا العم بارشم على طريقة لاختصار المسافة إلى هاردويك، لكنني لم أهتم. أعني أنني لم أهتم الآن للمكان الذي أحلّ فيه. لو لم أكن قد أُرهقت من جراء سباق الخيل والنساء والبوليس وجميع الآخرين البعيدين عن بيوتهم، لكنت فضّلت أن ألقى بون في مكان خاص وبسرعة من أجلنا كلينا. لكن لم يعد هناك فرق الآن، كان يمكن أن يتم اللقاء في منتصف الطريق أو الساحة. أو ربما سيارة مليئة بهم. لكننا لم نصادف السيارة، كان واضحاً أنني كنت محمياً، فقد كان أمراً لا يغتفر أن أفعل ما أفعله بصورة علنية ـ كان أمراً لا يحتمله الذين خدموا اللافضيلة بهذا الولاء، طيلة أربعة أيام، وطلبوا مكافأة لهم، شيئاً زهيداً. أعني أن لا أرى أياً منهم أكثر مما عليَّ أن أرى. وهذا ما تيسّر لي. فالسيارة التي ما زالت فارغة كانت قد وصلت لتوها إلى الفندق عندما وصلت إليه: كانت مركبة لسبعة ركاب وفيها فسحة لعفش اثنين ـ كلا، ثلاثة: ميني أيضاً ـ امرأة تقوم برحلة لمدة يومين من ممفيس إلى بارشم. إنهم جميعاً الآن في الطابق الأعلى يرتّبون أمتعتهم، وهكذا فإن سرقة الخيول نفسها حُلّت من تلقائها. وأزاح ند الدولاب من أجلي لأنزل، وقال: أما تزال مصراً على ألا تخبرني بسبب مجيئك إلى هنا؟ فأجبت: كلا.

كانت الكراسي في الشرفة فارغة كلها، وكان باستطاعة قيصر أن يحتفل بانتصاره هنا وحصوله على العزلة التي يتطلبها مركز بون وبطش الجديد. وكانت القاعة فارغة، ويمكن السيد بوليموس أن يستخدم مثلها، لكنه كان رجلاً. كان في جناح السيدات ـ السيد بوليموس، وسائق السيارة وشرطي آخر يحمل شارة، ثم بطش وبون، وكانت تظهر عليهما دلائل المعركة.

كان بون وحده هو الذي قرأ ما بدا على وجهي (عرف هذا الوجه مدة كافية) أو لعل ضميره هو الذي استيقظ، فقال بسرعة:

"احذر يا لوشيوس، احذر!" قال هذا وهو يرفع ذراعه إلى أعلى وينهض بسرعة، ويخطو إلى الوراء ويتراجع، وأنا أمشي إليه، مباشرة إليه، ولم أكن طويلاً بمقدار نصف طوله، ولم أجد ما أقف عليه، كان عليَّ أن أتطاول وأقفز وأمد نفسي لأتمكن من ضربه على وجهه! أوه، نعم، كنت أبكي وأصرخ. لم أكن استطيع رؤيته تلك اللحظة، إنما كنت أضرب أعلى مكان أستطيع بلوغه. وكان عليَّ أن أتطاول وأقفز لأضرب أعلى نقطة فيه. وكان السيد بوليموس خلفي يقول: "اضربْه ثانية. لقد ضرب امرأة. ولا يهمّني من تكون".

وأمسك بي أحدهم، فانتزعت نفسي واستدرت نحو الباب كالأعمى. آنذاك انتبهت إلى أن اليد تقودني. وقال بون: انتظر، ألا تريد أن تراها؟

كنت متعَباً، وكانت قدماي تؤلمانني. كنت على وشك الهلاك. كنت بحاجة إلى مزيد من النوم. وأكثر من هذا: كنت متّسخاً. كنت أريد ملابس نظيفة. لقد غسلَتْ ثيابي مساء الاثنين، لكن الملابس المغسولة لم تكن كافية. كنت بحاجة إلى تبديلها بملابس غُسِلت واستراحت قليلاً، كما في البيت، وتفوح منها رائحة الجوارير الهادئة والنشاء والبياض. لكنّ قدميّ بصورة خاصة كانتا بحاجة إلى جوارب نظيفة، وإلى حذائي الآخر. وأجبت بون: "لا أريد أن أرى أحداً. أريد أن أذهب إلى البيت!" فأجاب: "حسناً. من منكم هنا يوصله إلى القطار هذا الصباح؟ معي المال الكافي لذلك". فأجبت: أخرس، لن أذهب إلى أي مكان الآن". ومضيت وأنا لا أزال فاقد النظر، واليد ما تزال تقودني. وقال بون:

"انتظر. انتظر يالوشيوس!" فقلت ثانية:

"اخرس!" ولَوّثني اليد. كان أمامنا جدار. قال لي السيد بوليموس: "امسحْ وجهك". ومد يدَه نحوي بمنديل لم آخذه. ومسحت برباط يدي. لقد وفّى جورب الركوب بالغرض. على أية حال، تلقّى دموعي قبل الآن. ومن يدري؟ لو بقي معي مدة كافية، لربما فاز في السباق. صار بإمكاني أن أرى. كنا قد بلغنا الردهة وبدأتُ انعطف، لكن صاحب اليد أوقفني وقال:

"انتظر لحظة. إذا كنت ما تزال غير راغب في رؤية أحد". وكانت الآنسة ريبا وإفربي تهبطان الدرج، وهما تحملان أمتعتهما، لكن ميني لم تكن معهما. كان الوكيل السائق ينتظر، فأخذ الأمتعة، ومضوا جميعاً دون أن ينظروا باتجاهنا. كانت الآنسة ريبا كعادتها، من حيث صلابتها ومشيتها المتعالية. ويدا لي أن الوكيل لو لم يتحرك بسرعة لتعثّرت به وبالحزم وكل شيء. وتابعوا طريقهم. وقال لي السيد بوليموس:

"سأشتري لك تذكرة سفر كي تعود. اذهب في ذلك القطار". ولم أقل له: اخرس. فتابع قائلا:

"لقد فقدتَ كلّ أصحابك الآن. سأبقى معك وأوصي السائق بك".

"سوف انتظر ند. لا أقدر أن أذهب بدونه. لو لم تفسد البارحة كل شيء، لكنا الآن في طريق عودتنا".

"من هو ند؟"

فأخبرته، فقال ثانية:

"أتعني أنك ستقود ذلك الحصان اليوم مهما كانت الحال؟ أنت وند وحدكما؟" أجبته بالإيجاب، فسألني:

"أين ند الآن؟" وحين أخبرته، قال:

"تعال، نقدر أن نخرج من الباب الجانبي". كان ند يقف قرب البغل. وكانت مؤخرة السيارة إلى جهتنا. ولم تكن ميني معهم هنا أيضاً. لعلها عادت إلى ممفيس البارحة مع سام وأوتيس. ولعلها، وقد وجدت أوتيس ثانية، لن ترفع يديها عنه إلا وهي تمسك بتلك السن. هذا ما كنت أفعله لو أنني مكانها. وقال ند. "إذن، قبض عليك السيد بوليموس أنت أيضاً؟ ما الحكاية؟ اليس لديه قيود بقياسك؟" فأجبته: اخرس! فسأله السيد بوليموس: متى ستعيده إلى البيت يا ابني؟ فقال: آمل أن أعيده الليلة، حالما أتخلص من هذا السباق. فقال:

"هل معك مال كاف؟".

"نعم، يا سيدي. أشكرك. سنكون بخير بعد هذا السباق".

وأوقف ند العجلة وصعدنا. وقال السيد بوليموس وهو يمسك بالعمود العلوي:

"إذن ستسابقون حصان لنسكومب بعد ظهر اليوم".

"سنفوز على حصان لنسكومب بعد ظهر اليوم!".

"أهذا ما تأملونه؟".

"بل هذا ما نعرفه حق المعرفة!".

وقال ند: "ليتي أملك مئة دولار لأراهن عليه". ونظر كل منهما إلى الآخر. ومرت برهة طويلة، أفلت بعدها السيد بوليموس العمود وأخرج من جيبه محفظة مهترئة تشبه محفظة ند تماماً. كانت أطول من جورب الركوب نفسه، حتى أنك لا تقدر أن تميز من الذي يدفع ولمن يدفع ولأي سبب. ثم فتحها وأخرج منها ورقتين نقديتين، كل

منهما بقيمة دولار واحد. ثم طوى المحفظة وأعطى ند الدولارين وقال: "راهن بهذه لحسابي. إذا صدق توقعك، يمكنك الاحتفاظ بنصفها". وأخذ ند الورقتين وقال:

"سأراهن بهما لحسابك. لكنني أشكرك. عند غروب الشمس أكون قادراً على تسليفك ثلاثة أو أربعة أضعاف هذا المبلغ".

وقدنا العربة ـ أعني قادها ند. ولم نمرّ قرب السيارة. وقال لي "عدت تبكي. صرتَ فارس سباق ولم تتجاوز مرحلة البكاء بعد". فقلت له: "إخرس". لكنه كان يدير العربة ثانية ويجتاز الساحة إلى الجانب الآخر. وتوقف أمام مخزن وأعطاني زمام البغل ونزل إلى المخزن. ولم يطل الوقت حتى عاد يحمل كيساً من الورق، صعد به إلى العربة وساقها باتجاه البيت ـ أعني بيت العم بارشم. ثم أخرج من الكيس الكبير كيساً صغيراً فيه سكاكر روح النعنع، وقال وهو يناولني الكيس:

"خذ. معي أيضاً بعض الموز. وحالما نأخذ لايتنينغ إلى تلك الحظيرة الخاصة، يمكننا عندئذ أن نستريح ونأكلها. وربما استطعت أن أنام قليلاً قبل أن أنسى كيف يكون النوم. وحتى ذلك الحين كفّ عن تلك الصبية، ما دمتَ قد سوّيت الحساب مع بون هوجانبك. ضربُ المرأة لا يؤذيها لأن المرأة لا ترد الضربة شأن الرجل، بل تستسلم لها. حتى إذا ما أدرتَ ظهرك تناولَت فأساً أو سكين جزار. لهذا كان ضربُهن لا يكسر شيئاً. كل ما هنالك أنه يترك قرب عينها علامة سوداء، أو يجرح فمها قليلاً. وهذا لا شيء بالنسبة للمرأة. لماذا؟ لأن لا شيء أحب إلى المرأة من أثر ضربة تلقّتها من رجل يفكر فيها؟".

ثم اعتلينا الحصانين ثانية، أنا وماك ويلي، ووقفنا متأهبين خلف حبل الانطلاق. (كنا نتحفز ونتأهب فعلاً للسباق. وكان لايتنينغ نفسه متحفزاً. لقد تعلّم من سباق البارحة على الأقل أن عليه أن يكون في

مستوى ايكرون عندما يبدأ الركض، وإن لم يكن قد اكتشف بعد ضرورة الوصول قبله عندما يتوقفان).

كانت تعليمات ند هذه المرة بسيطة وواضحة. قال: "أعرف أنني أقدر أن أجعله يركض مرة، وأعتقد أنني أقدر أن أجعله يركض مرتين. لكننا نريد توفير الشوط الذي أعرفه إلى أن نحتاج إليه. وإليك ما أريدك أن تفعله في هذا الشوط الأول: "قبل أن يصرخ المحكّمون "انطلق" بثانية، قل في نفسك اسمي ند وليام ماك كاسلن وحققها".

"أحقق ماذا؟" فتابع قائلاً:

"أنا أيضاً لا أعرف بعد. لكن إيكرون حصان. ومع الحصان يمكن أن يحصل أي شيء. وإذا كان فارسه زنجياً تضاعف الاحتمال. كل ما عليك هو أن تراقب وتتأهب، حتى إذا ما حصل له شيء قلتَ في نفسك اسمي ند وليام ماك كاسلن وتحققها بسرعة. ولا تقلق. إن لم تنجح العملية أو لم يحصل له شيء، سأكون هناك عند خط الوصول لأتدخّل. لأننا نعرف أنني أقدر أن أجعله يركض مرة".

ثم ارتفعت الصيحة "انطلق!"، فقفز الحصانان وانطلقنا. كان ماك ويلي هذه المرة هو السابق. أو بالأحرى انطلق أولاً. إذ إنني لا أذكر إن كنت قد فعلت ذلك بناء على خطة أو بالحدس فقط. كان إيكرون في حمّي السباق يتقدمنا بثلاثة أطوال عندما أطلقت العنان للايتنينغ. لكنني حافظت على مسافة الأطوال الثلاثة بيننا. كنا نركض وبيننا مجال لثلاثة أحصنة عندما رأيت ماك ويلي يقوم بحركة يدعونها اليوم قفزة مضاعفة، ثم يلتفت بعينيه فقط بلمحة جانبية خاطفة. كان، طبعاً، يتوقع أن يرانا عند ركبتيه. ثم تابع الركض بالسرعة القصوى فترة أخرى قبل أن يفطن إلى أننا، أنا ولايتنينغ، لم نكن هناك. فاستدار والتفت بحركة كاملة من رأسه إلى الوراء. ما زلت أذكر بياض

عينيه وفمه المفتوح. وكأنني أراه الآن يشير بيديه إلى إيكرون كي يخفف سرعته. وأعتقد بكل إخلاص أنني سمعته يصرخ لي: "بحق السماء أيها الصبي الأبيض اركض إذا كنت تسابقني".

كانت المسافة بيننا تقصر بسرعة لأنه كان قد شدّ إيكرون إلى الخلف بشكل جانبي حتى أصبح بوضع يعترض مجرى السير، أو على الأقل، يجري جانباً مواجهاً الحاجز الخارجي. إنني مقتنع الآن بأن ذهن ماك ويلي الملتهب قد ساوره بالرجوع والركض إلى الخلف ليتمكن من أن يعاود الركض ولايتنينغ أمامه. لا، لم أضع أية خطة. فقط قلت في نفسي: اسمي ند وليم ماك كاسلن، وضربت لايتنينغ بالقضيب بمنتهى قوتي حتى أنه عندما قفز ليجتاز المسافة بين إيكرون والحاجز الداخلي كنا نستطيع أن ندفع إيكرون. ولاح لي أن قدمي ستهرس، وثبّت نفسي فوق ظهره فاقد الشعور لا أنتظر غير وقع الضربة، والانهراس، والصدمة، وانبثاق الدم، وانسحاق العظام، وأي شيء آخر. لكنّ ما أنقذنا هو أنه كانت أمامنا فسحة كافية أو سرعة كافية أو لعلّه كان خطاً كافياً: فلم تُصَبْ ساقي بل لمس وركُ لايتنينغ مؤخرة إيكرون. وفي هذه اللحظة ذاتها ضربته بالقضيب بأسرع ما أستطيع. ولم يكن باستطاعة أي قاض أو حكم، أو مدرب كلاب، أو صياد، مهما بلغ دهاؤه وحذقه أن يبرهن على أن حصاني ليس هو الذي ضرب. الحقيقة أننا كنا متشابكين بصورة كاملة في تلك اللحظة، حتى أن إيكرون كان الوحيد بيننا نحن الأربعة، الذي عرف من أصيب.

ثم واصلنا الركض، أعني أنا ولايتنينغ. لم ألتفِتْ إلى الوراء - لم أستطع أن ألتفت. إذ كان عليَّ أن أنتظر إلى ما بعد نهاية الشوط كي أعرف ماذا حدث. قيل لي إن إيكرون لم يحاولْ أن يقفز فوق الحاجز

مطلقاً، لكنه وقف على قائمتيه الخلفيتين فارتمى وراء الحاجز وسط عاصفة من الغبار لكنه بقي على أرجله. ثم أخذ يركض مذعوراً في المرعى باتجاه مستقيم والمتفرجون يتراكضون من طريقه إلى أن تمكّن ماك ويلي من كبح جماحه. وهنا قيل إن ماك ويلي حاول فعلاً أن يقفز الحاجز ليعود إلى الحلبة ويتابع الركض. لكن الوقت كان قد فات، إذ كنا، أنا ولايتنينغ، قد اجتزنا مسافة طويلة. ثم إن الحصان رفض أن يقفز وانطلق كالريح على طول الحلبة، لكن من الخارج. وكان المتفرجون يقفزون من طريقه كالضفادع. كان ذلك عندما بدأت أسمع وقعَ حوافر الحصان من جديد. كان يتقدم بسرعة، مع أن الحاجز بيننا. وكان لايتنينغ الذي استقل بالحلبة قد أخذ يعدو بحركة قوية منسجمة، حتى ليحسب من يراه أنه لا يبذل أي جهد لبلوغ هذه السرعة. ومع ذلك، كان إيكرون الذي كان قد ركض حوالى خمسين ياردة إضافية والذي كان عليه أن يقطع المسافة نفسها ثانية، قد تقدّمَنا الآن، لكن خارج الحلبة. وعند نهاية المنعطف الأول كنت أستطيع أن أرى دماغ ماك ويلي البائس يتنازعه اختياران حرجان: أن يدفع إيكرون إلى الحلبة ويغلق الثغرة التي أحدثها بنفسه، أو أن يبقيه في الحقل حيث لا تعترضه عوائق.

وأخيراً تغلبت الفكرة المحافظة. فإذا بظهره يتقوس للمرة الثانية (عند المنعطف الثاني)، وهكذا بدأت الدورة من جديد. ومع أن إيكرون كان في جهة الحلبة الخارجية حيث المنعطف الأطول، فقد كان ما يزال يتقدمنا. وأعتقد أنني فكرت باستعمال السوط. وكان الجمهور حولنا يصرخ. ومن يلومهم؟ وتابعنا الركض، وإيكرون ما يزال في أوج سرعته: يركض في الخط الذي شقه لنفسه، والخط مفتوح مثل طريق السماء. وكان قد تجاوز الحلبة بطولين، عندما

بلغنا، أنا ولايتنينغ، خط الوصول وعبرنا تحت الشريط. وكان إيكرون يبدأ الدورة الثالثة، عندما شدّه ماك ويلي بكل قوته إلى المرعى وأوقفه. وارتفع الصراخ حولنا:

"خطأ! خطأ! كلا! كلا! هذا ليس سباقاً! هذا ليس سباقاً".

"بلى إنه سباق!" كلا ليس سباقاً! أسألوا القاضي! أسألوا إد! ماذا يا إد؟".

وكان الجمهور الذي فرّقه ايكرون قد بدأ يتدفق على المكان من خلال الثغرات التي فتحها ايكرون. وكنت أنا أبحث عن ند. وحسبت أنني رأيته، لكنه كان ليكورغوس جاء يقفز عبر الحقل حتى وصل إليّ وأمسك بلجام لايتنينغ واتجه به إلى الوراء، فسألته: "ماذا حدث؟ هل سيعتبرون هذا الشوط سليماً؟ فزنا، اليس كذلك؟ قطعنا الشريط، اليس كذلك؟ هم استداروا حوله. خذ لايتنينغ. سأعود لأتحقق من الأمر". فقال: "كلا، السيد ماك كاسلن لا يريدك أن تذهب أنت أيضاً. فقد قال لي أن نبقى هنا، أنا وأنت، مع لايتنينغ، وأن نهيئه للشوط التالي بعد أقل من نصف ساعة. وعلينا أن نربح هذه المرة. لأن الشوط السابق قد يُلغى، فعلينا أن نربح الشوط التالي مهما حدث".

وهكذا تابعنا السير. ورفع ليكورغوس حاجزاً في نهاية الحلبة وذهبنا باتجاه الشجيرات مسافة مئتي ياردة تقريباً. كان حصان العم بارشم مربوطاً إلى أحدى الشجيرات. وظلت الأصوات تبلغني من منصّة التحكيم. وكانت الرغبة في العودة للاستفهام ما تزال تساورني. لكن لكيورغوس كان قد احتاط لذلك إذ أحضر المماسح والإسفنج والمناشف، وحتى دلو الماء، لكي نعري لايتنينغ ونبدأ بتدليكه.

ثم إنني حصلت على المعلومات الأولى عما حصل (وما يزال يحصل) عندما أخبرني ليكورغوس بالقليل الذي استطاع أن يراه قبل

أن يرسله ند لملاقاتي، وعندما أخبرني الآخرون أيضاً في ما بعد. وهو أن الفوضى قد سادت، إذ علا الصياح والاحتجاج والتأكيد وأوشك المتجادلون على التضارب. وكان ند في وسطهم، وقد بدا مهذباً هادئاً، لكن صلباً عنيداً يرد كل هجوم. وقال أحدهم: "لم يكن ذلك سباقاً. فالسباق يتطلب حصانين على الأقل. ولم يكن إلا حصان واحد في الحلبة". فأجاب ند: "كلا يا سيدي. كتاب القوانين لا يذكر عدد الأحصنة. إنه يتكلم عن كل حصان بمفرده. فإذا لم يرتكب الحصان أخطاء، ولم يقع الفارس، وقطع خيط النهاية أولاً اعتُبِر فائزاً". وقال آخر: "هكذا برهنت، أنت نفسك، على أن الأسود قد فاز. لأنه لم يخطئ إلا بابتعاده مسافة عشرين قدماً عن الحاجز. وهو لم يوقف سير السباق، وقد رأيته يعبر خط الوصول قبل كوبرمين بطولين". فأجاب ند: "كلا، يا سيدي. خيط النهاية يمتد فقط من طرف الحلبة إلى طرفها الآخر. إنه لا يمتد إلى نهر الميسيسيبي. فلو كانت المسألة كذلك، لكانت هناك أحصنة أخرى حول النهر تعبر خط الوصول منذ أن أشرقت شمس هذا الصباح. أحصنة لم تسمع بها بعد. كلا، يا سيدي. من المؤسف أن يقع حادث بسبب تلك الحواجز الضعيفة. لكننا كنا منشغلين بقيادة حصاننا مما لم يتِحْ لنا الوقت الكافي لنتوقف وننتظر عودة الحصان الآخر".

آنذاك ظهر ثلاثة أشخاص جدد فجأة، أو على الأقل تدخلوا في الحديث. لم يكونوا كلهم غرباء، لأن واحداً منهم كان الكولونيل لنسكومب بنفسه وقد عرفه الجميع. وربما كان الآخران ضيفين عنده جاءا من المدينة. كانا بعمره، يلبسان معاطف ويضعان ربطات عنق. وتقدم أحدهما وتولى الحديث، فقال:

"أيها السادة، دعوني أتقدم بحل. هذا الرجل (يعني ند) صدَق حين قال إن حصانه كان يركض، وفقاً للقوانين، وقطع شريط النهاية

قبل سواه. لكننا جميعاً رأينا الحصان الآخر يركض بسرعة تفوق سرعة رفيقه، ورأيناه في الطليعة عند انتهاء السباق. إن مالكَي الحصانين هما السيدان الواقفان خلفي. الكولونيل لنسكومب جاركم، والسيد فان طوش من ممفيس، وهو قريب منكم إلى درجة تجعل منه جاراً لكم، لو ازددتم معرفة به. لقد اتفقا، وسيوافق حكمكم، على اعتبار هذا الشوط معلقاً. وكون الشوط معلقاً لا يعني أنه ملغى. لم يخسر أحد ولم يربح أحد. إن الشوط الأخير سيقرر ذلك، كما أن كلاً من مالكَي الحصانين مازالا يضيفان خمسين دولاراً عن الشوط التالي. من يفُز في هذا الشوط يربح الشوطين السابقين. ما قولكم؟"

هذا ما عرفناه، أنا وليكورغوس، فيما بعد. لكننا لم نعرف شيئاً آنذاك: بقينا ننتظر ند أو أي شخص آخر ليأتي إلينا أو يرسل في طلبنا. وكان لايتنينغ قد نُظِّف ولُفَّ بالبطّانيّات وليكورغوس يقوده صعوداً وهبوطاً ليبقيه في حركة، وأنا أجلس مستنداً إلى جذع شجرة وقد نزعتُ جورب الركوب لأجفّف الضماد. وبدا لنا الوقت دهراً ونحن ننتظر. ولكن حين أطلّ ند، في اللحظة التالية، كان الوقت قد انعدم أو تكثّف. ثم جاء ند مسرعاً. أخبرتك كيف كان مظهره ذلك الصباح. كان ذلك بسبب ثيابه. هذه المرة لم تكن المسألة مسألة ثيابه، وإن كانت ما تزال متّسخة، بل كانت مسألة وجهه. فلم يكن في ملامحه ما يدلّ على أنه ينعم بأية سكينة. كان كمن يواجه النهاية، إلا أن تلك النهاية كانت تقول له: "اهدأ. أمامك ثلاثون أو أربعون دقيقة قبل أن أستدعيك. آنذاك يجب أن تكون مستعداً. ولكن، حتى ذلك الحين، توقف عن القلق واهتم بعملك".

وذهب إلى العربة فوراً وتناول معطفه الأسود ولبسه وهو يقول:

"حلّوا المشكلة بأن اعتبروا الشوط معلقاً، هذا يعني أن من يخسر هذا الشوط يخسر كل شيء. استعدوا!"

وكان ليكورغوس قد انتزع الحزام عن الحصان ولم يستغرق ذلك أي وقت. وكنت قد نهضت وتهيّأت. ووقف ند قرب رأس لايتنينغ ممسكاً بالسرج، ويده الأخرى تعبث بشيء ما في جيب المعطف. وقال لي:

"سيكون هذا الشوط هيّناً عليك. حرّضناه أمس قليلاً وخدعتَه أنت اليوم، وعليك ألا تخدعَه مرة ثانية. لكن لا يهم. لسنا بحاجة إلى خداعه الآن. سأهتم بذلك بنفسي. كل ما عليك أن تعمله هو أن تبقى على ظهره حتى النهاية. لا تسقط: هذا كلّ ما هو مطلوب منك. أبقه بين حاجزَي الحلبة ولا تسقط عن ظهره. تذكّر ما علّمك إياه يوم الاثنين. قبل أن يبلغ المنعطف الأول، وقبل أن يخطر بباله أين كنتُ أقف يوم الاثنين، أضربه. أجعله يواصل الركض. لا تهتم بالحصان الآخر، مهما كان يفعل وأينما كان. اهتم بحصانك فقط. هل هذا مفهوم؟".

"نعم".

"حسناً. إذن هاك الشيء الآخر الوحيد الذي عليك أن تفعله. حينما تصل إلى المنعطف الأخير، عند المرحلة الأخيرة، استدر نحو الشريط. لا تظنّ، بل تأكّد أن لايتنينغ موجود في مركز يمكّنه من رؤية الحلبة أمامه. عندما تبلغ تلك المرحلة ستعرف السبب. لكن لا تفكّر في ذلك قبل أوانه. تأكّد أنه يقدر أن يرى الحلبة حتى شريط النهاية وما وراءه.؟ وإذا كان الحصان الآخر أمامك، ادفع لايتنينغ إلى الجانب الآخر من الحلبة نحو الجهة الخارجية بحيث يتمكن من رؤية الحلبة ومكان الشريط وعبر الشريط، وتتأكد أنت أن لا شيء يعيقه عن الركض. لا تأبه للمسافة التي ستخسرها بسبب ذلك، تأكد فقط من أنه يرى كل شيء أمامه".

كان قد أخرج يده الثانية من جيبه، وأخذ لايتيننغ يحك أنفه بها المرة بعد المرة. وشممت تلك الرائحة الضعيفة التي عرفتها في مرعى العم بارشم يوم الاثنين. تلك الرائحة التي أستطيع أن أميزها، أنا أو أي شخص آخر، والتي كنت سأعرفها لو كان لدي وقت كاف للتفكير. ثم قال ند:

"هل تستطيع أن تتذكر ذلك؟" قلت: نعم.

"إذن هيا. قده يا ليكورغوس".

وشد ليكورغوس على اللجام كي يرفع رأس الحصان عن يد ند نحو الحلبة. وحاول الحصان أن يفلت ويعود إلى الوراء، لكن ليكورغوس جذبه، وقال لي "اضربه قليلاً. دعه يعد إلى التفكير في ما يفعله". فضربته ومضينا.

وهكذا وقفنا للمرة الثالثة وراء الشريط أنا وماك ويلي. وإذ رفض حصان ماك ويلي الوقوف في مكانه بانتظار الإشارة، فقد مدّوا قطعة من الجنفيص محشوة بالقطن من طرف الحلبة إلى طرفها الآخر. كانت تلك أفضل انطلاقة لنا. فعندما علَتْ صيحة الحكَم: انطلق، وارتمى الخيط، قفز ايكرون وماك ويلي وانطلقا أمامنا كالسهم. وصرخ ماك ويلي في أذني وهو يتخطانا:

"سأريك هذه المرة أيها الصبي الأبيض!".

لكنه لم يبتعد مسافة تذكر حتى لحق به لايتيننغ وصار عند مستوى ركبتيه. كان لاتيننغ يتمتّع بكل شيء، بالقوة والانضباط وكل شيء. إلا أن أحداً لم يُدخل في عقله أن ذلك كان سباقاً. الحقيقة أنني أصبحت للمرة الأولى، عاملاً من عوامل السباق. وكأنما الحصانان قد شُدّا إلى بعضهما منطلقين كالصاعقة، يتأرجحان الواحد بعد الآخر أو

يتلاحمان ويتمايلان جنبا إلى جنب. وهكذا ظل مركزنا بالنسبة للحصان الآخر يتغير بانسجام وسهولة كالحلم، طيلة الشوط الأول. فكان كلما تقدمنا ايكرون وبدا أنه يبتعد عنا فعلاً، لاحظ لايتنينغ المسافة التي نشأت بين الاثنين فيسرع ويجتازها. كان ذلك مثل التحدي. وكنت أستطيع أن أسمع جلبتهما طوال الحلبة. من لا يعرف لايتنينغ الآن؟ كل ما هنالك أنه لم يكن يرغب في البقاء وحده متخلّفاً. وفي دورة العودة، بلغ لايتنينغ المنعطف الأول وهو يفتش بعينيه عن ند. وصهل وهو ينطلق في عدوه المميت. وللمرة الأولى اسمع أن حصاناً يصهل وهو يسابق. لم أكن أتصوّر أن حصاناً ما يقدر على ذلك.

وضربته بمنتهى القسوة، فانفلت، وتأرجح، وقفز مرة أخرى. وكنا قد تكرمنا على ماك ويلي بمسافة قامتين أمامنا وهكذا اجتزنا المسافة مرة ثانية، وعندما بلغنا المنعطف الثاني كنا متخلفين فأسرعنا ولحقنا به مرة أخرى، وأصبح رأسه بمحاذاة ركبة ماك ويلي. ثم أخذ يركض بمنتهى الطواعية. هذه الآلة الرائعة التركيب التي لم تؤثر عضلاتها بعقل ما، أو التي لم يبلغ عقلها ما تجمع في مراكز الملاحظة والخبرة، لم يعرف عقلها، لذلك، أنّ الهدف الوحيد من هذا الجهد الجنوني هو الوصول إلى مكان ما قبل الآخرين. كان ماك ويلي يضرب حصانه بالسوط. أما أنا فلم احتج إلى مثل ذلك. لقد كان عاجزاً عن أن يتقدم لايتنينغ أو يتخلف عنه. وبلغنا المنعطف الأخير من دورة العودة، وأنا ما أزال فوق لايتنينغ، ولايتنينغ ما يزال في الحلبة. وهكذا لم يبق إلا تنفيذ تعليمات ند الأخيرة فأطلقت له العنان واندفعنا، مانحين ماك ويلي مسافة قصيرة. فصار لايتنينغ في وضع يمكّنه من رؤية الحلبة وخط الوصول وما وراءه. ورأى لايتنينغ ند قبلي، ولم أعرف ذلك إلا حين مدّ عنقه وجمح بجسمه، وكأنه قد انفلت من عقال نير أو قيد. إذ ذاك رأيت ند على بعد أربعين ياردة

تقريباً من خطّ الوصول. وبدا لي ضئيلاً وتافهاً ووحيداً في فراغ الحلبة، بينما كانت يد ماك ويلي التي تسرع في الحض والحركة، تبتعد عنا إلى الوراء، يتبعها وجه ماك ويلي المحتقن، ويغيب عنّا، ثم الشريط وهو ينخطف فوق رأسي. وقال ند:

"تعال يا بنيّ، أعددتُها لك".

كاد لايتنينغ يرميني عن ظهره وهو يتوقف فجأة ويتجه نحو ند في نفس الانطلاقة السريعة. وعندما بلغه، توقف عن الحركة ودفن رأسه بين يدي ند وأنا حول أذنيه أمسك بكل ما تصل إليه يداي حتى يدي المجروحة. وصحت: فزنا! فزنا! سبقناه!" وقال ند: "حققنا هذا القسم من الفوز. إنما بقي اعتبار هذا كافياً".

كانت هذه هي المرة الأولى التي اشتركت فيها بسباق حقيقي وفزت. اعني بسباق على مستوى الرجال، والناس يراقبونني أفوز. وقد راهنوا على أنني سأفوز (أو راهن بعضهم على الأقل). ولم يكن لديّ الوقت الكافي آنذاك؟ لألاحظ التغيير الذي اعترى وجهه وصوته، أو حتى ما كان يقوله لي. لأن الناس كانوا قد بلغوا الحلبة واجتازوا الحواجز مندفعين نحونا. كانوا حشداً صاخباً من القبعات التي يرشح منها العرق، والقمصان التي بلا ربطات عنق، والوجوه التي ما زال يعتصرها الصراخ. وقال لي ند: انتبه الآن. لكنني لم أكن أرى غير الوجوه والأصوات تموج كالبحر:

"هكذا يكون السباق يا صبي! هذا ما يسمى نصراً". لكننا لم نتوقف. فكان ند يقود لايتنينغ وهو يقول: "دعونا نمر أيها الأصدقاء البيض، دعونا نمر أيها الأصدقاء البيض". فأفسحوا لنا المجال ومررنا، لكنهم كانوا ما يزالون يتبعوننا كالموج، حتى بلغنا البوابة حيث كان الحكَم بانتظارنا. وقال ند ثانية: انتبه الآن. ولا أذكر الآن

غير الحصان الهادئ، وند يقف أمامه كاللوحة، وجدّي وهو ينحني فوق عكازه (ذات الرأس الذهبية) ووراءه شخصان كنت قد عرفتهما منذ مدة طويلة. وصحت: "الرئيس!" وقال جدي:

"ماذا فعلتَ بيدك؟" فأجبت.

"نعم، يا سيدي الرئيس!".

"أنت منشغل الآن، وكذلك أنا". قال ذلك بلطف وهدوء. لا، ليس صحيحاً. والصحيح أنه قال: "سننتظر حتى تصل إلى البيت". ثم ذهب. كان الشخصان اللذان رأيتهما وراءه، سام وميني. وكانت ميني تنظر إليّ بوجهها الهادئ الحزين. وبدا لي أن ند كان يربت على ساقي منذ مدة دون أن أنتبه. وقال: "أين كيس التبغ الذي أعطيتك إياه البارحة لتحفظه؟ ألم تُضِعه"؟ فأجبت: "أوه، صحيح". وأنا أمد يدي إلى جيبي.

الفصل الثالث عشر

قالت الآنسة ريبا لميني: أرِهم" كانوا في سيارتنا - أعني سيارة بون - كلا، سيارة جدي: وهم إفربي والآنسة ريبا وميني وسام وسائق الكولونيل لنسكومب، وهو أبو ماك ويلي. كان الكولونيل لنسكومب أيضا يملك سيارة، وكان السائق وسام وميني قد ذهبوا إلى هاردويك ليأتوا بالآنسة ريبا وإفربي وبون إلى بارشم، حيث يستقل سام والآنسة ريبا وميني القطار إلى ممفيس. لكن بون لم يأت معهم. وظل في السجن للمرة الثالثة. فتوقفوا عند بيت الكولونيل لنسكومب لإخبار جدي. وروت الآنسة ريبا الحادثة وهي جالسة في السيارة بينما وقفنا، أنا وجدي والكولونيل، حولها، لأنها رفضت الدخول. كانت تروي ما جرى بين بون وبطش، فقالت:

"عندما وصلنا إلى هاردويك، كان لديهم قدر كاف من الإدراك كي يسجنوا كلاًّ منهما في زنزانة منفردة. المشكلة هي أنهم لم يجدوا وسيلة يقفلون بها فم صديق كوري الجديد..". وتوقفت. لم أكن بحاجة إلى النظر إلى إفربي. كانت صبية ضخمة، أضخم من أن تحصل لها أشياء كهذه الكدمة عند عينها وهذا الجرح في فمها. وكانت تجلس هناك بهدوء وليس لديها ما تفعله، ولا مكان تذهب إليه. وكان الدم يبقّع خدها. وقالت الآنسة ريبا:

"آسفة أيها الصغير، إنس ذلك. أين كنت؟" فأجاب جدي:

"كنت تخبريننا عما فعل بون هذه المرة".

"أوه، نعم. سجنوهما في زنزانات منفصلة على جانبي الممر. وقد عاملونا أنا وكوري بلطف. عاملونا كسيدات. أخذونا من هناك إلى غرفة زوجة السجان، إلى أن ظهر بطش فجأة وقال:

"حسناً، هناك شيء واحد. أنا وهذا الصبي الحلو خسرنا بعض الدم والجلد وزوجاً من القمصان، لكننا على الأقل أبعدنا عاهرات ممفيس عن الطريق". فبدأ بون يخلع الباب الفولاذي. لكنهم كانوا قد تذكروا أن يقفلوه. ثم جاء سام بالأوراق القانونية. ثم قالت لجدي: "أشكرك كثيراً. لا أعرف كم دفعت عني. ولكنك إذا أرسلت لي الفاتورة حين أصل إلى البيت، فأسدد الحساب. إن بون يعرف عنواني ويعرفني". فقال جدي:

"شكراً. إذا كان هناك حساب ما فسأخبرك. ما الذي حدث لبون؟ لم تخبريني بعد؟"

"أوه، صحيح. أطلقوا سراح بطش بالغلط. ما كادوا يخرجون المفتاح من قفل بون حتى صار خارج الزنزانة. ولكن بون عاجله بضربة واحدة ألقته أرضاً، ثم ارتمى عليه قبل أن ينتبه أحد. ولهذا السبب احتفظوا ببون ولم يطلقوا سراحه". ثم صاحت: "لنتحرك. علينا أن نلحق بالقطار. لا تنس أن ترسل لي الفاتورة". فقال الكولونيل لنسكومب:

"لا، انزلوا في ضيافتي. العشاء جاهز. يمكنكم أن تلحقوا بقطار منتصف الليل". فأجابت الآنسة ريبا:

"كلا، أشكرك. مهما طال غياب زوجتك في مونتفيل فلابد أن تعود، وستضطر لإيضاح ذلك".

"سخافة. أنا السيد في بيتي".

"آمل أن تظل كذلك. أوه، صحيح. أرهم يا ميني!"

فابتسمت ميني. لكنها لم تبتسم لهم، بل ابتسمت لي. كانت ابتسامتها جميلة، إذ عادت السن الذهبية تتلألأ وسط صف الأسنان الأبيض المنسق. ثم أطبقت شفتيها برصانة. وكبرياء. وقالت الآنسة ريبا:

"حسناً". فأدار أبو ماك ويلي المحرك واندفع إلى الوراء فتحركت السيارة. وكان جدي والكولونيل لنسكوب قد استدارا عائدين نحو البيت. وكنت قد ابتدأت أستدير أنا أيضا عندما علا بوق السيارة، فرجعت. كان سام يقف إلى جانب الآنسة ريبا ويشير إليّ قائلاً:

"تعال. الآنسة ريبا تريد أن تراك لحظة. لم تخبرني أن هذا الحصان سيدخل السباق؟" فأجبت:

"ظننتك عرفت. ألم تعرف أننا جئنا إلى هنا لهذا السبب؟"

"طبعاً، طبعاً. ند أخبرني. الجميع أخبروني. إنما لماذا يحاول أحد أن يقنعني؟ لو كانت لي شجاعة الآنسة ريبا لكنت غطيت تلك العربة. خذ". ومد يده نحوي بحزمة كبيرة من الأوراق النقدية وقال: "هذه لند. قل له أنه حين يجد حصاناً لا يركض، فلا ينتظر حتى يجيئ ويأخذني، بل ليبرق لي".

كانت الآنسة ريبا تميل إلى الخارج، صلبة وجميلة. وكان بجانبها، وهي من الضخامة بحيث لا يمكن أن يتجاهلها أحد. وقالت الآنسة ريبا: "لم أكن أتوقع أن أزج في السجن هنا. لكنني أيضاً لم استبعد ذلك. على أية حال، فقد راهن سام عني" راهنت بخمسين للسيد بنفورد وبخمسة لميني. أريد ـ أعني نريد ـ أن نقسم الربح مناصفة..". فقلت: "لا أريد حصتي". فقالت: "توقعت أن تقول هذا القول لذلك جعلت سام يضع خمسة أخرى لحسابك. خذها".

"لا أريدها". فقال سام:

"ماذا قلت لك؟" وقالت الآنسة ريبا:

" ألأنها أموال قمار؟ هل وعدتَ بهذا أيضاً؟" ولم أكن قد وعدت إذ ربما لأنّ المقامرة لم تخطر ببال أمي. لكنني لم أكن بحاجة إلى أن أعد أحداً بذلك، ولم أعرف كيف أوضح لها ما كان واضحاً لي. وهو أنني لم أقم بالسباق من أجل المال: كان المال آخر ما يمكن أن أفكر فيه. لقد بدأنا شيئاً وكان عليَّ أن أتابع، أنا وند، حتى لو انسحب الجميع. لكنني لم أعرف كيف أوضح لها فقلت: "كلا، لا أريده". فقال سام: "هيا. خذه كي نذهب. يجب أن نلحق بالقطار. أعطه لند أو لذلك العجوز الذي اهتم بك. فهما يعرفان ما يفعلان به". فأخذت المبلغ، فصارت معي حزمتان: حزمة كبيرة، وهذه الحزمة الصغيرة. وكانت إفربي ما تزال ساكنة لا تتحرك، ويداها في حضنها. وقال لي سام: "ربِّتْ على رأسها، على الأقل". فقالت الآنسة ريبا: "لن يفعل ذلك أيضاً. أنظر إليه. ويحكم أنتم، أنتم الرجال، حتى ولو كان واحدكم لم يتجاوز الحادية عشرة! ألم تُثْبِت منذ يوم الأحد أنها ثابت؟ إذا كنت تعمل في نشر الأخشاب مدة طويلة كالتي أمضتها في مهنتها، ثم كففت عن عملك يوماً، هل يضيرك أن تقطع خشبة أخرى، حتى وإن كنت قد تركت العمل وأنزلت اللافتة؟"

على أنني درت حول السيارة وذهبت إلى الناحية الأخرى. لكنها لم تتحرك. كانت كبيرة، أكبر من أن تحركها الأشياء الصغيرة، كبيرة في انغلاقها على نفسها كي تتفتح لاستقبال الأشياء التافهة كطائر يرتطم بلوحة أو عليٍ وجه طبل نحاسي. كانت تجلس هناك خجلة، لكنها أكبر من أن يقلصها الخجل. وقلت لها:

"لا بأس. لا يهم". فقالت:

"كان عليَّ أن أتخذ تلك المهنة. لم أعرف مهنة أخرى".

فقالت الآنسة ريبا: "أرأيت ما أهون ذلك؟ هذا كلّ ما عليك أن تقوليه لنا. وسنصدّقك. ليس بينكم أنتم الرجال ـ شرط أن يكون دون السبعين ـ من لا يقدر أن يجعل أية امرأة تعتقد بأنه لم يكن أمامها إلا تلك المهنة".

فقلت: "اضطررتِ إلى ذلك. لقد استعدنا لايتيننغ في الوقت المناسب كي يدخل السباق، ولكن هذا لم يعد مهماً. الأفضل أن تتحركوا كي لا يفوتكم القطار". فقالت الآنسة ريبا:

"طبعاً. ثم إن عليها أن تُعِدّ طعام العشاء. فأنت لم تسمع بعد. هذه مفاجأة لك. لن تعود معنا إلى ممفيس. إنها لم تُشفَ من إغراء تلك المهنة وحسب، بل شفيت من التجربة إطلاقاً. شرط أن يكون ما يقولونه عن بارشم صحيحاً: يقال إنه ليس فيها من الإغراء غير قابليات الرجل الطبيعية. لقد حصلت على عمل في بارشم. ستغسل وتطبخ لزوجة ذلك المفوّض وترفعها من الفراش وتعيدها إليه. وتخلّصت لذلك من اقتسام أرباحها مع أول رجل يحمل شارة الشرطة". ثم قالت لسام: "هيا، لنذهب. لا يمكنك أن تجعل القطار ينتظرنا وأنت هنا".

وذهبوا، فاستدرتُ ومشيت نحو البيت. كان بيتاً كبيراً بأعمدة ومداخل وحدائق وإسطبلات (وكان لايتنينغ في أحدها) وحظائر للعربات، وما كان يستعمل لسكنى العبيد ـ ومنها بيت بارشم القديم، أو ما تبقى من مزرعة الرجل أو العائلة التي أعطت اسمها للبلدة وجوارها، ولبعض الناس، كالعم بارشم هود. كانت الشمس قد غابت، وسرعان ما سيتبعها النهار. حينئذ أدركت للمرة الأولى أن كل شيء قد انتهى، أعني أيام الهرج والتطاحن والاحتيال والكذب، ولم يبق غير الدفع. كان جدي والكولونيل لنسكومب والسيد فان طوش

في مكان ما من البيت، ولا بد أنهم كانوا يتناولون الآن مشروب ما قبل العشاء. لذلك اتجهت جانباً وعبرت الحديقة ومنها إلى مؤخرة البيت. وهناك كان ند يجلس على الدرجات الخلفية. فقلت له، وأنا أمدّ يدي بحزمة النقود الكبيرة: "خذ. قال سام إنّ هذه لك". فأخذها. وقلت: "ألن تعدها؟" فقال "أظنه عدها". ثم أخرجت الحزمة الصغيرة من جيبي، فنظر إليها وسألني:

"هل أعطاك هذه أيضاً؟"

"كلا، الآنسة ريبا أعطتني إياها. لقد راهنت لحسابي".

"هذا مال مقامرة. أنت اصغر من أن تأخذ مال المقامرة. الحقيقة أنه ما من شخص عمّر إلى درجة تسمح له بأخذ مثل هذه الأموال. أما أنت فما تزال صغيراً جداً".

ولم أستطع أن أعرب له، هو أيضاً، عن مشاعري. ولكنه قال:

"أنت تعرف أننا لم نفعل ذلك من أجل المال".

فقلت:

"وأنت، ألا تنوي الاحتفاظ بحزمتك؟"

"بلى. فات الوقت بالنسبة لي. ولكنه لم يفت بالنسبة لك. سأتيح لك فرصة. وقد لا تكون سوى حرمانك فرصة من نوع آخر".

"قال سام إنني أقدر أن أعطيها للعم بارشم. ولكنه هو أيضاً لا يأخذ أموال مقامرة".

"هل هذا ما تنوي أن تفعله بها؟"

"نعم".

فقال: حسناً، وأخذ الحزمة الصغيرة، وأخرج محفظتـه ثم وضـع الصرتين في داخلـها. كـان الظـلام يوشـك أن يـشتد. لكـنني سمعـت جرس العشاء. وسألته:

"كيف استرجعت السن؟"

"لم استرجعه أنا، بل ليكورغوس، عنـدما ذهبـت ذلـك الـصباح إلى الفندق لإحضارك. ولم يكن ذلـك صـعباً. وبمـا أن لايتنينـغ كـان سيدخل السباق بعد الظهر ويحتاج إلى الراحة، قرر الاستعانة بالبغـل، وقد أخبرني كيف أشهر عليـه المـسخ سـكين جيـب صـغيرة، ولكـن ليكورغوس عرف كيف يتدبر ذلك".

"وبعد ذلك؟ كيف نجح؟"

"أخبرتك. بواسطة البغل!"

"كيف؟"

"وضع ليكورغوس المـسخ علـى البغـل، دون سـرج أو لجـام، وربط قدميه بعضهما ببعض، من تحت، وأفهمه أنه متى قرر أن يـضع السن في القبعة ويرميها فسيوقف البغـل. وضـرب ليكورغـوس البغـل ضربة خفيفة. وحوالي منتصف الدورة الأولى ألقى المسخ القبعة، فلـم يجد فيها شيئاً. لذلك أعاد له القبعة وضرب البغل ضربة ثانيـة. ويقـول ليكورغوس إنه نسي أن هذا البغـل يقفـز فـوق الـسياجات، إلى أن رآه يقفز سياجاً يرتفع أربعة أقدام. وهكذا رمى المسخ القبعة للمـرة الثانيـة وكانت السن فيها. إنما كان يجب أن يحتفظ بها لمصلحتي. لقد ذهبت هي أيضاً إلى ممفيس، اليس كذلك؟"

"نعم".

"هذا ما توقعته. ربما كانت تعرف كما أعرف، أن وقتاً طويلاً سيمر قبل أن تراني ممفيس، أو ترى بون هوجانبك ثانية. وإذا عاد بون إلى السجن ثانية، لا أتصور أن ممفيس سترانا هذه الليلة أيضاً".

أما أنا فلم أكن أعرف. وفجأة أدركت أنني لا أريد أن أعرف. لم أكن عازفاً عن اتخاذ القرارات أو الاختيار وحسب، بل لم أكن أريد معرفة ما قرره الآخرون بشأني، قبل أن أضطر إلى مواجهة النتائج. ثم جاء والد ماك ويلي يلبس معطفاً ابيض. ولم أكن قد سمعت الجرس. وكنت قد غسلت (وبدلت ملابسي لأن جدي أحضر لي حقيبة، وحذائي الآخر أيضاً)، فقادني الخادم إلى غرفة الطعام. هناك كان جدي والسيد فان طوش والكولونيل لنسكومب والعجوز البدين لوبلن بين يديه. ووقفنا جميعاً، فتلا الكولونيل صلاة الشكر وجلسنا. ولم يكن أبو ماك ويلي الوحيد الذي يخدمنا على المائدة، بل كانت هناك أيضاً خادمة بملابس الخدمة تبدل الصحون. وكنت قد توقفت عن الاختيار واتخاذ القرارات. فكدت أنام في صحني، في الحلوى، عندما قال جدي:

"حسنا أيها السادة، هل نبدأ؟" فأجاب الكولونيل:

"سنذهب إلى المكتب".

كان المكتب أفضل غرفة رأيتها. وتمنيت لو أن لجدي مكتباً مثله. فالكولونيل لنسكومب كان محامياً أيضاً. لذلك كانت هناك أكداس من كتب القانون. وكانت هناك أيضاً كتب زراعية، وواجهة زجاجية فيها أدوات صيد سمك وبنادق. وكان في الغرفة كراسٍ وأريكة، وسجادة خاصة للجلوس قرب المدفأة، وعلى الجدران صور أحصنة وفرسان سباق مع أكاليل الورد والتواريخ التي تفوّقوا فيها. وكان هنالك أيضاً طاولة خاصة بكتاب المراجع الضخم، وطاولة أخرى عليها علبة مليئة

بالسيكار، وإبريق ماء ووعاء للسكر. كما كانت هناك نافذة على الطراز الفرنسي تنفتح على شرفة فوق حديقة الورود، حتى أنك كنت تستطيع أن تشم رائحة الورود وأنت داخل البيت.

وجاء رئيس الخدم مع ند، ووضع له كرسياً في الزاوية. وجلسنا جميعاً. كان الكولونيل لنسكومب يرتدي بزة بيضاء، والسيد فان طوش في ثياب أهل شيكاغو (وقد جاء منها لزيارة ممفيس فأعجب بها واشترى مكاناً لتربية الخيل وتدريبها، وشغّل في هذا العمل بوبو بوشامب منذ ست سنوات). وكان جدي يرتدي بزته الرمادية ذات الذيل التي ورثها (أعني أنه لم يرث البزة بل اللون الرمادي الخاص بأهل الجنوب، ذلك لأنه لم يكن جندياً آنذاك، إذ كان في الرابعة عشرة من عمره، وكان عليه أن يلازم أمّه، بصفة الابن الوحيد. وبقي جدّي مع أمّه حتى ماتت عام 1864. وعندما تمكّن الجنرال شيرمان من احتلال كارولينا، جاء ميسيسيبي للتفتيش عن قريب له يدعى ماك كاسلن، وكان اسمه في المعمودية مثل اسم ذلك القريب، أعني لوشيوس كوينتوس كاروترز. ثم التقى بابنة حفيدة ذلك القريب، اعني سارة ادموندس، فتزوجها عام 1869).

وهنا قال جدي لند: "إبدأ من البداية". فقال الكولونيل: "انتظر!" وصب بعض الوسكي في كأس ند.

لكن ند شكره بلطف ووضع الكأس على المدفأة قربه، وجلس دون أن ينظر إلى جدي. فقال الكولونيل:

"اشربْها، فقد تحتاج إليها".

وأخذ ند الكأس وابتلع ما فيها دفعة واحدة. ثم جلس يمسك بالكأس الفارغة. فقال جدي ثانية:

"ابدأ الآن". فقال السيد فان طوش:

"انتظر. كيف جعلت الحصان يركض؟" فالتفت ند نحو جدي للمرة الأولى وقال له:

"هل يسمح لنا هؤلاء السادة بالتحدث على انفراد؟"

فسأله جدي:

"عمّ تريد أن تتحدث؟"

"عن الحصان، وإذا شئت أن تخبرهم أنت، بعدئذ، فلك ذلك". فقال جدي للحاضرين:

"هل تأذنون لنا بالانفراد؟" ومشى باتجاه الشرفة. فنهضت أنا أيضاً، فسال جدي مشيراً إليَّ:

"ما شأن لوشيوس؟" فأجاب ند:

"اشترك في السباق، وله الحق في معرفة ذلك".

وخرجنا إلى الشرفة المظلمة، حيث تعبق روائح الورود. وتناهى إلينا نباح كلب بعيد. وقال ند بهدوء:

"أطعمته سردين". فقال جدي:

"لا تكذب عليَّ. الجياد لا تأكل السردين".

"لكن الحصان يأكل. أخذته أنا ولوشيوس وجرّبنا ذلك. لكنني لم أكن بحاجة إلى أن أجرّبه. فمنذ وقعت عيني عليه عرفت أن لديه الحاسة نفسها التي كانت لذلك البغل".

"آه، إذن هذا ما كنتما تفعلانه لذلك البغل أنت وموري".

"كلا، يا سيدي. لم يكن موري يعرف ذلك. لم يعرفه أحد غيري وغير البغل. هذا الحصان مثله. عندما ركض المرحلة الأخيرة، عصر اليوم، كنت أنتظره حاملاً السردين، وكان يعرف ذلك".

ودخلنا المكتب ثانية، وهم ينظرون إلينا. وقال جدي: "نعم، لكنه سر من أسرار العائلة. لن أكتمه إذا اقتضى الأمر. أتسمحون لي بأن أكون الحكَم؟ بالطبع، الكلمة الأولى للسيد فان طوش". فقال فان طوش:

"في هذه الحال، إما أن أشتري ند أو أبيعك كوبرمين. لكن ألا يجدر بنا الانتظار حتى يحضر رجلك هوجانبك؟"

فأجاب جدي:

"أنت لا تعرف هوجانبك. لقد قاد سيارتي إلى ممفيس. وعندما أُخرجُه من السجن غداً سيقودها إلى جفرسون. وبين هاتين النقطتين لن يفتقده أحد".

ولم يأمر جدي ند، هذه المرة، بأن يتكلم، ولكن ند قال:

"تورط بوبو مع رجل أبيض..".

وهذه المرة كان السيد فان طوش هو الذي قال: "آه". وهكذا بدأنا نعرف الحكاية: من ند والسيد فان طوش معاً. فالسيد فان طوش كان غريباً، فلم يعش في منطقتنا مدة كافية ليدرك وضع زنجي شاب عاش طوال حياته في الريف ولم يبتعد عن بيته يوماً، فيهرب إلى مدينة كبيرة سعياً وراء المال والتسلية. ربما كانت المقامرة، أو ربما بدأ بالمقامرة؛ فهذه أبسط نقطة يبدأون منها. ويبدو أن ند نفسه لم يكن يعرف المشكلة تماماً ـ هذا إن لم يكن يعرفها بتفاصيلها. ومهما تكن فقد كانت في عالم البيض. وعلى ما أخبرنا ند، كانت المشكلة قد تأزّمَت وارتفع محور المشكلة إلى مئة وثمانية وعشرين دولاراً،

وقد أدخل الرجل الأبيض في رأس بوبو أنه إذا اكتشف رجال القانون ذلك كان أقل ما يلاقيه هو الطرد من خدمة السيد فان طوش؛ الحقيقة أنه جعل بوبو يعتقد بأن متاعبه الحقيقية تبدأ حين يتخلى كل رجل عن مساندته. وهكذا إلى أن تأزمت الحالة، وتملكه اليأس، واشتدت وطأة تهديد الرجل الأبيض. وذهب بوبو إلى السيد فان طوش وطلب منه مئة وثمانية وعشرين دولاراً. وجاء الجواب كما كان يتوقعه من رجل لم يكن أبيض وغريباً وحسب، بل كان أيضاً رجلاً مستقراً، تجاوز العمر الذي يمكن أن يتذكر فيه أهواء الشباب ومتاعبه. كان الجواب كلا. كان ذلك في الخريف الماضي..". فقاطعه السيد فان طوش قائلاً:

"أذكر ذلك. لقد أمرت الرجل بألا يعود إلى مزرعتي ثانية. وحسبت أنه قد ذهب".

أرأيت ما أعني؟ كان السيد فان طوش رجلاً طيباً، لكنه كان أجنبياً. لذلك حين فقد بوبو أمله الأخير، الذي لم يكن شديد الاطمئنان إليه، "دبّر" ـ على حد تعبير ند ـ خمسة عشر دولاراً وأعطاها للرجل، فجرّت عليه ما تتوقعه وما يحتمل أن يكون بوبو نفسه قد توقعه. لكن ماذا كان يستطيع أن يفعل وإلى أين كان يمكنه أن يلتجئ؟ لقد اشتد عليه الضغط والتهديد. إذ برهن أنه يستطيع الحصول على المال إذا تعرض لضغط شديد. قال السيد فان طوش:

"لكن لماذا لم يأت إليّ"؟ فأجاب ند: ذهب إليك فأجبته بالرفض. وساد صمت قصير ثم قال بلطف: "أنت رجل أبيض، وبوبو زنجي". وهنا قال جدي:

"لماذا لم يأت إليّ أنا بدلاً من أن يعمد إلى سرقة الحصان، وأخذه إلى المكان الذي كان يجب ألاّ يغادره أصلاً؟".

"ماذا كنت ستفعل لو ذهب إليك مبهور الأنفاس بعد أن قطع الطريق من ممفيس، وقال لك لا توجِّه إليَّ أي سؤال، إنما أعطني مئة وبضعة دولارات لأعود إلى ممفيس وأبدأ بتسديد المبلغ، حالما أتمكن من ذلك؟"

"كان يمكنه أن يخبرني عن السبب. أنا أيضاً أنتمي إلى عائلة ماك كاسلن".

"وأنت أيضاً رجل أبيض".

وهكذا اكتشف بوبو أن الخمسة عشر دولاراً التي تصوّر أنها ستنقذه، قد دمّرته. ولم يعد بوبو يعرف الراحة. ولعل الرجل الأبيض بدأ يخوِّف بوبو. ولعله خشي أن يرتكب بوبو، بدافع خوفه ويأسه وغباوة عرقه، خطأً أو حتى جريمة تنسف كل شيء. هكذا كانت الحال عندما ابتدأ الرجل الأبيض يحاول إقناع بوبو بأن يضرب ضربة واحدة تخلصه من الدَّيْن والدائنين، والهمّ وكل شيء. فاقترح أولاً أن يسرق بوبو السروج ووسائل السِّباق وكل ما يمكن أن يحمل. وكانت الشبهة ستقع على بوبو فوراً، بينما يكون الرجل الأبيض قد ابتعد أثناء ذلك وصار آمناً. ولكن إذا هرب بوبو بسرعة، وهو ما كان يُنتظَر أن يفعله، فإنه كان سيجد أمامه الولايات المتحدة كلها ليلجأ إليها ويجد عملاً آخر فيها. ولكن الرجل الأبيض تخلّى عن هذه الفكرة، لأنه ما كان سيستطيع التخلص من العربة وحمولتها دفعة واحدة قبل طلوع النهار. وكان تصريف الحمولة قطعة قطعة سيستغرق بضعة أيام.

وهكذا بدآ يفكران بحصان: بأن يكتشفا العربة وحمولتها المتنوعة في قطعة واحدة تُباع دفعةً واحدة دون أي تأخير. هذا إذا تساهل الرجل الأبيض ولم يجادل بسبب بضعة دولارات أعني أن الرجل الأبيض، وليس بوبو، هو الذي اعتقد أن بوبو سيسرق له الحصان. لكن بوبو

عرف أنه، إن لم يسرق الحصان، فقد كان سيشهد نهاية كل شيء: نهاية الحرية والعمل مع صباح الاثنين التالي (كانت الأزمة قد بلغت ذروتها يوم السبت الماضي، يوم غادرنا جفرسون في السيارة مع بون. وسبب تفاقم الأزمة هو أنه كان للسيد فان طوش حصان تسهُل سرقته، خصوصاً أنه وضع في مكانه لتلك الغاية. كان ذلك الحصان هو لايتنينغ (أعني كوبرمين) الذي كان موضوعاً في إسطبل بانتظار البيع. وقد أخذه بوبو بنفسه إلى إسطبل البيع، لذلك كان يستطيع أن يذهب ويحضره دون أية صعوبة. المشكلة كانت في أن الرجل الأبيض عرف هذا ـ عرف بأنه حصان دُرِّب على السباق لكنه لا يركض مما أنزل قدره بالنسبة للسيد فان طوش والسيد "كلاب" مدربه، حتى أنه وُضِع في إسطبل للبيع بانتظار أوّل شار. وهكذا كان بوبو يستطيع أن يذهب ويأخذه دون أن يعرف السيد فان طوش إلا إذا استفهم. لذلك كان أمام بوبو مجال حتى صباح الاثنين التالي ليتدبر الأمر.

هكذا كانت الحال عندما تركْنا ند أمام منزل الآنسة ريبا عصر الأحد ودار حول المكان إلى شارع بيل ودخل أول حانة وجدها في طريقه. وهناك عثر على بوبو يحاول أن يهرب من مصيره بزجاجة وسكي. وهنا قال جدي:

"هذه هي الحكاية، إذاً. الآن ابتدأت أفهم: زنجي ليلة السبت. بوبو سكران، وأنت تسرع من جفرسون ولسانُك يتدلى عطشاً لتصل إلى أول حانة يمكنك أن تدخلها". وتوقف لحظة ثم قال وهو يكاد يقفز:

"انتظر. هذا خطأ. لم يكن ذلك مساء السبت، إذ إنكم وصلتم إلى ممفيس مساء الأحد".

وكان ند ما يزال يجلس في مكانه بهدوء، الكأس الفارغة في يده، حين أجاب:

"ليل السبت بالنسبة لنا يمتد حتى نهار الأحد". فأضاف الكولونيل لنسكومب:

"بل حتى صباح الاثنين. انتم تستيقظون صباح الاثنين، مرضى مصابين بوخمة السُكر، ملطَّخين بأقذار السجن، تنطرحون هناك، إلى أن يأتي أحد البيض ويدفع عنكم الكفالة ويأخذكم إلى حقل القطن مباشرة أو إلى أي مكان يشغِّلكم فيه ولا يمنحكم فرصة حتى لتناول الفطور. ثم إنكم تعرقون هناك من العمل وتظلون هكذا في اليوم التالي، واليوم الذي يليه، حتى يأتي يوم السبت، حين تتركون المعول أو المجرفة وتسرعون إلى السجن صباح الاثنين. لماذا تفعلون ذلك؟ والله، لا أدري". فأجاب ند:

"ولا يمكنك أن تدري. لستَ من اللون الملعون. لو استطعت أن تتحول إلى زنجي ليلة سبت واحدة، لما تمنّيت أن تعود رجلاً ابيض طيلة حياتك". فقال جدي:

"حسنا، أكمل".

وهكذا كشف بوبو لند عن متاعبه: كان الحصان على بُعد أقل من نصف ميل ينتظر من يسرقه، والرجل الأبيض الذي عرف ذلك أعطى بوبو مهلة لا تزيد عن بضع ساعات. وقال جدي: "حسناً أخبرنا عن قصة سيارتي". فقال ند: "سأصل إليها حالاً". هكذا ذهب ند مع بوبو إلى الإسطبل لتفقد الحصان، وحالما وقعت عيناي عليه تذكرت ذلك البغل الذي كان عندي.

كان بوبو مثلي، أصغر من أن يذكر ذلك البغل. لكنه، مثلي أيضاً، قد نشأ وهو يسمع تلك الأسطورة. وتابع ند قائلاً: "هكذا قرّرنا أن نذهب إلى الرجل الأبيض ونخبره بأن شيئاً ما قد حصل، وأن بوبو

لم يستطع أن يُخرجِ الحصان من الإسطبل كما تصوّر بوبو، لكننا نقدر أن نأتيه بسيارة بدلاً منه". ثم قال لجدي بسرعة: مهلاً، انتظر! كنا نعرف كما تعرف أنت أن السيارة ستبقى آمنة مدة كافية، نكون فيها قد انتهينا. وربما استطعت، بعد ثلاثين أو أربعين سنة، أن تقف عند زاوية شارع في جفرسون وتشاهد اثنتي عشرة سيارة تمر قبل الغروب لكن ليس الآن. وربما استطعت آنذاك أن تسرق سيارة وتجد من يشتريها دون أن يهتم كثيراً بكيفية حصولك عليها ولماذا تريد بيعها. لكنك لا تستطيع ذلك الآن. لذلك كان من المستحيل لرجل كهذا، كما أتصور هيئته (لأنني لم أره بعد)، أن يطوف المدينة محاولاً بيع السيارة بالسر وبسرعة. كان سيبدو كرجل يحاول بيع فيل بمثل هذه الطريقة. لذلك لم تجد أنت والسيد فان طوش أية صعوبة في معرفة مكانه واسترداد السيارة، أليس كذلك؟" فقال جدي:

"أكمل".

"آنذاك، كان الرجل سيسأل عن حكاية السيارة، فيترك بوبو الجواب لي. وربما كان الرجل سيسأل عما أفعله بالسيارة الآن فيخبره بوبو بأنني أريد ذلك الحصان لأنني أعرف كيف أجعله يركض. وأننا سنشترك في سباق يوم الثلاثاء. وإذا كان الرجل الأبيض يحب أن يربح ثلاثة أو أربعة أضعاف المئة والثلاثين دولاراً، فيمكنه المجيء معنا والمراهنة على الحصان. إذ ذاك لا يحتاج إلى التورط بمحاولة بيع السيارة. لأنني عرفت أنه من أولئك البيض الذين حصلوا على خبرة كافية لتجعلهم يميزون بين ما يُباع وما يودي إلى السجن. وهذا ما كنا سنفعله حتى أتيت وخرّبت كل شيء. كنا سندع الرجل الأبيض يراقب الشوط الأول دون رهان، وكان سيقبل بذلك، فيرى لايتنينغ يخسر الشوط حسب عادته. ثم كنا سنراهنه على الحصان مقابل السيارة،

دون أن نحتاج إلى إفهامه بأنه إذا خسر لايتنينغ هذه المرة أيضاً، فإنه سيأخذ الحصان بالإضافة إلى السيارة".

وهنا نظر جدي والكولونيل لنسكومب والسيد فان طوش إلى ند. ولن أحاول أن أصف التعبير الذي تضمنته تلك النظرة. لا أقدر. وتابع ند قائلاً: "ثم أتيت وخرّبت كل شيء". فقال السيد فان طوش:

"وكل ذلك لإنقاذ بوبو. لنفترض أنك فشلت في جعل كوبرمين يركض، وخسرتَه أيضاً. ماذا كان سيحل ببوبو؟"

"جعلتُه يركض. رأيتَ ذلك".

"لكن لنفرض ذلك جدلاً..".

"كان ذلك سيدّمره. لست أنا من نصحه بمغادرة مزارع القطن في ميسيسيبي واللحاق بمغامرات ممفيس ومقامراتها".

"لكن السيد بريست قال إنه ابنُ عمك".

"لكل إنسان أقارب لم يُرزَقوا عقلاً أكبر من عقل بوبو!"

فقال الكولونيل لنسكومب فجأة: لنشرب نخباً. ثم نهض وأخرج الخمر ووزعها. وقال السيد فان طوش: "حسناً" يا بريست. أنت استرجعتَ سيارتك وأنا استرجعتُ حصاني. ولعلّي خوّفْتُ ذلك النذل إلى درجة تكفي لإبعاده عن إسطبلاتي". ثم قال لند:

"ماذا أفعل ببوبو؟" فأجاب ند:

"احتفظ به. الشباب منا والأولاد، لا يقتنعون بسهولة".

"لماذا كان الزنوج وحدهم هكذا؟" فقال الكولونيل لنسكومب:

"ربما كان يعني آل ماك كاسلن". فقال ند:

"صحيح. آل ماك كاسلن والعبيد منّا يتصرفون بطريقة واحدة. أقصد الشبان. وإن يكن هذا ماك كاسلينيا زنجياً. ربما كانوا لا يسمعون جيداً. ويجب أن تعلِّمَهم تجاربهم أن الاحتيال لا يجدي. ولعل بوبو تعلّم ذلك هذه المرة. اليس هذا أهون عليك أن تبدأ من جديد مع شخص آخر غير مجرِّب؟"

فقال السيد فان طوش: بلى.

وظلوا جميعاً في أماكنهم صامتين. وعاد السيد فان طوش يقول:

"بلى. والآن إما أن أشتري ند أو أبيعك كوبرمين. هل يمكنك أن تجعله يركض ثانية يا ند؟"

"نجحت تلك المرة".

"قلت مرة ثانية. هل تعتقد، يا بريست، أنه يقدر أن يجعله يركض مرة ثانية؟" فأجاب جدي:

"نعم".

"إلى أي حد تعتقد ذلك؟"

"هل تخاطبني كصاحب بنك أم ماذا؟"

فقال الكولونيل لنسكومب: "نعم، ولكن بالطريقة الطبيعية العادية التي يلجأ إليها أهالي الشمال في ميسيسبي وهم يخاطبون أهالي جنوبيها، بكل ما أعطاهم الله من حقوق والإنسان من شرائع". فقال السيد فان طوش:

"حسنا، أراهنك بكوبرمين مقابل السر الذي يخفيه ند. فإذا استطاع ند أن يجعل كوبرمين يسبق حصان لنسكومب، احصل أنا على السر وأنت تأخذ كوبرمين. وإذا خسر كوبرمين لا أريد سرك، وأنت تأخذ كوبرمين أو تتركه مقابل خمسمئة دولار". فقال جدي:

"أي إذا خسر كوبرمين استطيع أن آخذه مقابل خمسمئة دولار. وإذا رفضتُ أخذه، أدفع لك خمسمئة دولار لتحتفظ به لديك". فأجاب السيد فان طوش:

"صحيح. ولكي أتيح لك فرصة للمزايدة، أراهنك بدولارين مقابل دولار بأن ند لا يستطيع أن يجعله يركض ثانية".

"إذن، إما أن أربحه، أو أن أشتريه بالرغم من كل شيء". فقال السيد فان طوش:

"تذكّر أنك هنا بين أصدقاء؛ فحاول ألا تتصرف كصاحب بنك ولو لفترة قصيرة، حاول!" حينئذ قال جدي:

"اثنان ونصف". فأجاب السيد فان طوش:

"خمسة".

"ثلاثة ونصف".

"خمسة".

"أربعة وربع".

"خمسة".

"أربعة ونصف".

"أربعة وخمسة وتسعون". فقال جدي:

"قبلت". ثم قال السيد فان طوش:

"قبلت".

وهكذا وقفنا للمرة الرابعة أنا وماك ويلي خلف شريط الانطلاق وأرجل الحصانين تتواثب وتتحفز. لم يكلمني ماك ويلي هذه المرة

مطلقاً. كان خائفاً ومغتاظاً، ومحتاراً ومصمِّماً. وأدرك أن شيئاً حدث يوم أمس وما كان يجب أن يحدث، على الأخص لصبي مثله في التاسعة عشرة، كان يحاول بكل بساطة أن يفوز في سباق حسِبَهُ عادياً بسيطاً. لم يختاروا لنا مواقعنا هذه المرة، بل تركوا لنا أمر اختيارها. لكن ند قال لي: "لا بأس هذه المرة. ماك ويلي بحاجة إلى الشعور بالاطمئنان. دعه يختار أولاً". لكن ماك ويلي رفض هذه البادرة، بدافع الفروسية أو الغضب، لست أدري. لكن صوت الحكَم حلّ المشكلة ووقفنا خلف الشريط.

ولاحظت أن ند لم يعمد إلى مداعبة وجه الحصان أو منخريه بيده كما فعل المرة الماضية. ولا أقول أنه نسي، لأن ند لا ينسى شيئاً. ولم يعطِني تعليمات اللحظة الأخيرة، لكن ماذا كان قد بقي لديه ليقوله؟ كان جدي والسيد فان طوش والكولونيل لنسكومب قد اتفقوا على أن يكون السباق خاصاً، أو قل سباق ثأر. ولكي يبقى السباق خاصاً في بارشم لابد من جهود خاصة. ذلك أشبه بإبقاء المطر سرياً وخاصاً بمرعى الكولونيل لنسكومب ـ ما دامت البلدة تتكون من فندق شتوي، ومخزنين، ومزلق للمواشي، ومحطة، وتقاطع خط حديدي، وكنائس ومدارس وبيوت مزارعين متباعدة في الريف البعيد. فكان أي خبر ينتشر في بارشم بسرعة، فكيف بخبر سباق خيل من هذا النوع بين هذين الحصانين بالذات؟ وهكذا حضر أهل البلدة جميعاً السباق، بمن فيهم الحارس الليلي الذي يفترض فيه أن ينام في النهار. إنما لم يكن الحشد كبيراً كيوم أمس، إلا أنه كان ولا ريب أكبر مما أراده جدي والسيد فان طوش. كانت هناك القبعات الملطخة، والتبغ والقمصان التي بلا ياقات، وملابس العمل، عندما ارتفعت صحية: انطلق!.

وانطلقنا يتقدمني ماك ويلي بخطوتين ثم اندفع لايتنينغ بسرعة وطواعية حتى صار خده بجوار ركبة ماك ويلي. وبقينا بعد ذلك نعطف ونجري، ووضعنا المتوازي يختل قليلاً ليعود إلى الانتظام. كانت المسافة بيننا تنفتح وتنغلق كالحلم، كالحركة الطبيعية التي أَلِفَها من يُطلق سرباً من الطائرات دفعة واحدة. وعند المنعطف الأول، ضربتُ لايتنينغ لأحثه على الاستمرار، قبيل أن يتمكن من التفتيش عن ند؛ ولم أتمالك من أن أستعرض وجوه المتفرجين باحثاً عن وجهه بنفسي. ثم بدأ لايتنينغ نفسه يبحث عنه بين الجمهور، دون أن يهتم بالاتجاه الذي يسير فيه. كان كل همه أن يرى ند، لكن دون طائل، إلى أن كانت الدورة الثانية ثم المرحلة الأخيرة. ورحتُ أدفع لايتنينغ نحو الحاجز الخارجي (حيث لا يستطيع أيكرون أن يحجب عنا الحلبة وشريط النهاية) فيتمكن لايتنينغ من الرؤية. لكنه إذا كان قد رأى ند هذه المرة فلم يشعرني بذلك. كما أنني لم استطع أن أخبره. وصحت: انظر! انظر هناك! هناك هو! لكن ند لم يكن هناك. لم يكن أمامنا غير الحلبة وخيط النهاية واهياً كشعاع من القمر. وفي هذه اللحظة، ضرب ماك ويلي حصانه بشدة، فاستجاب لايتنينغ كالسحر، ولحق به، محافظاً على مسافة قليلة إلى الوراء. فلو استطاع ايكرون أن يركض بسرعة ستين ميلاً في الساعة لركض لايتنينغ بنفس السرعة، محتفظاً بالمسافة ذاتها إلى الوراء. وواصلنا الركض متوازيين نتأرجح قليلاً كما لو كنا مشدودين إلى بعضنا. والتمع الشريط فوق رؤوسنا. وعدنا نتكلم، أنا وماك ويلي، ثانية. كان يصرخ لي في فرح جنوني: "ياه، ياه، ياه، مخففاً سرعته دون توقف، ومتَّجها إلى الإسطبل فوراً. كان المهللون والمحبون الذين تجمهروا حولنا يوم أمس قد تخلّوا عنا: قيصر لم يعد اليوم قيصراً.

وجاء ند بسرعة وهدوء وأمسك بالمقود، بشيء من نفاذ الصبر وعدم الانتباه. ثم جاء جدي وراءه يقول:

"ما الذي حدث؟ ما الذي حدث معه؟"

"لا شيء. لم أكن أحمل له سرديناً هذه المرة، وقد عرف ذلك. ألم أقل لك إنّ لدى هذا الحصان حساسية؟" ثم قال لي: "بوبو ينتظر هناك، خذ له هذا الكديش ليوصله إلى ممفيس. سنعود اليوم". فقلت:

"لكن انتظر. انتظر".

"أنس هذا الحصان. لا نريده. الرئيس استرجع سيارته، وكل ما فقدناه مبلغ أربعمئة وستة وتسعين دولاراً، والتخلص من هذا الحصان يساوي هذا المبلغ. إذ ماذا نفعل به؟ لنفترض أنهم توقفوا عن صنع تلك الأسماك القذرة! الأفضل أن يأخذه السيد فان طوش، فلعل كوبرمين يخبره يوماً أو يخبر بوبو عما حصل هنا يوم أمس".

لم نعد إلى جفرسون تلك الليلة، بل بقينا عند الكولونيل لنسكومب، حيث جلسنا في المكتب بعد العشاء. كان بون يبدو مُتعَباً مقهوراً، لكنه كان ذليلاً هادئاً، ونظيفاً أيضاً: فقد حلق ولبس قميصاً نظيفاً. أعني قميصاً جديداً ربما اشتراه من هاردويك. وكان يجلس حيث كان ند ليلة أمس. قال:

"كلا. لم أكن أقاتله بسبب ذلك. ولم أكن غاضباً من أجل ذلك. إنه من شأنها هي. لا يمكنك أن تنهي كل شيء دفعة واحدة. حين تترك، عليك أن تنظف البقايا: الأوساخ التي تخلّفت مهما تكن خطوتك الأخيرة صالحة. لكنني أردت أن أحطم عنقه لأنه دعا زوجتي عاهرة". فقال جدي: "تعني أنك ستتزوجها؟" فقفز بون، لكن ليس نحو جدي بل نحوي أنا قائلاً: "إذا كنتَ تقدر أن تواجه السكين

بيديك العاريتين دفاعاً عنها، فلماذا، بحق الشياطين، لا اقدر أن أتزوجها؟ ألستُ جديراً بذلك مثلك، وإن لم أكن في الحادية عشرة؟"

كان هذا كل شيء وحوالى الساعة السادسة بعد ظهر اليوم التالي، اجتزنا التلة الأخيرة، ومن هناك أطلت ساعة مبنى البلدية من فوق الأشجار التي تحيط بالساحة. كان ند في المقعد الأمامي مع بون فقال: "صه، صه، صه! أحس كأنني كنت غائباً مدة سنتين".

فقال جدي: "عندما تسوي دلفين حسابها معك الليلة، ستتمنى لو كان ذلك صحيحاً". فقال ند: "أو ربما تمنيت ألا أكون قد عُدت مطلقاً. لكن المرأة التي تظل تمسح وتكنس وتطبخ وتغسل طوال اليوم، هي بحاجة إلى بعض الإثارة من حين إلى آخر".

ثم وصلنا. وتوقفت السيارة، فلم أتحرك. ونزل جدي فتبعتُه. وقال بون: "المفتاح مع السيد بالوت". فأجاب جدي: "كلا ليس معه". ثم أخرج المفتاح من جيبه وأعطاه لبون. وعبرنا الشارع نحو البيت. هل تعرف ماذا قلتُ في نفسي؟ قلت "لم يطرأ عليه شيء". لأنه كان يجب أن يتغير ـ كان يجب أن يتحوّل بطريقة ما، ولو قللاً. لا أعني أنه كان يجب أن يتغير من نفسه، بل مما جئت أحمله له ـ مما اختبرته وعرفته في الأيام الأربعة التي غيّرتْني. أعني، إذا كانت هذه الأيام الأربعة الحافلة بالكذب والغشّ والاحتيال واتّخاذ القرارات وعدم اتّخاذها، والأفعال التي فعلتُها والأشياء التي رأيتُها وسمعتها والتي ما كان أبي وأمي ليسمحا لي بأن أفعلها أو أراها أو أسمعها أو أتعلّمها، والأشياء التي تعلّمتها ولم أكن مستعداً لها، لو أن هذه كلّها لا تجد مكاناً تُخزَن فيه أو توضع فيه، إذا كان هذا كلُّه لم يغيِّر شيئاً، وظل كلُّ شيء كما كان لم يصبح أصغر أو أكبر أو أكثر هرَماً أو أحكمَ أو أدعى إلى الشفقة، إذن لضاع شيءٌ ما، أُلقِيَ جانباً، صُرِف دون مقابل. وفي هذه

الحال، إما أنه كان خطأ وما كان يجب أنْ أبدأ بـه، أو أنـني أنـا الـذي كنت خاطئاً أو ضعيفاً، أو على الأقل لا أستحق ما حدث.

وقال لي جدّي: هيا! لم يقلْهـا بلطـف أو بخـشونة أو أيّ شـيء. وقلتُ في نفسي: "لو أن العمّة كالي تخرج الآن، سواء أكانـت تحمـل ألكسندر أم لا، وتبدأ تـصرخ بي!" لكـن لم يحـدث شـيء. كـان كـل شيء كما عرفتُه قبل أن أتمكـن مـن معرفـة غـيره. كانـت الـساعة قـد تجاوزت السادسة بقليل في عصر يوم من شهر أيار عندما كـان النـاس يفكّرون في العشاء. لابدّ أن بضع شـعرات بيـضاء قـد نبتـت في رأس أمي وهي تقبّلني وتنظر إليَّ، ثم أبي الذي كنـت دائمـاً... أخـاف منـه. هذه ليست الكلمة المناسبة، لكنني لا أقدر أن أفكر بغيرهـا ـ إذ لـو لم أكُنْ أخاف منه، لكان يجب أن أخجـل عنّـا كلينـا. ثم سمعـت جـدي يقول: موري! فقال أبي: "ليس هذه المرة، يا رئيس!" ثم قال لي: لِنُنْـهِ المسألة! فأجبت: "نعم يا سـيدي". وتبعتـه عـبر القاعـة إلى الحمّـام، وتوقفت عند الباب، عندما أخذ عدّةَ الحلاقة، وتراجعـتُ إلى الـوراء أفسحُ له كي يخرجَ ثم تابعنا. كانت أمي في أعلى درجات القبـو. كنـت أستطيع أن أرى دموعها ولا شيء أكثر. كلّ ما كان عليها أن تفعلـه هـو أن تقول: قف، أو أرجوك يا موري، أو لوشيوس فقط، لكنها لم تقـلْ شيئاً. وتبعتُ أبي إلى القبو حيث نحفظ الوقود في الـشتاء، وصـندوق الجليد في الصيف، وكانت أمي والعمّة كـالي قـد أحـدثتا فيـه رفوفـاً لوضع الأغذية المحفوظة والمربَّيات. حتى أنـني رأيـت كرسـياً هـزازاً لأمي والعمة كالي أيام كانتا تضعان المربيات هناك. وهكذا وصـلنا إلى اللحظة التي أمضيتُ أربعة أيام من الإرهاق والركض لأصل إليها. كان هذا خطأ، وكان كلانا يعرف ذلك. أعني كان يستطيع أن يجلدَني بعـد كل ما قمتُ به من كذب وغشّ وتمرّد واحتيال. إذاً لم يكن أبي يـصلح لي. إذا كان يمكن تسوية ذلك كلّه، بحلاقة الرأس، فقد كنـا حقيرَيـن

كلينا. أرأيت؟ كانت العقوبة تافهة حتى جاء جدّي يطرق الباب. ولم يكن مقفلاً. لكن جدّ والدي كان قد علّمه، وهو بدوره علّم والدي ووالدي علّمني، بأن ليس هناك باب يحتاج لأن يقفل: الباب المغلق وحده يكفي، ولا تدخلْ حتى يدعوك شخص ما للدخول. لكن جدي لم ينتظر هذه المرة، فقال أبي: "كلاّ. هذا ما كنت ستفعلُه بي قبل عشرين سنة".

"ربما كنتُ الآن أكثرَ فهماً. اذهبْ وأقنع أليسون بالصعود إلى الطابق العلوي والكفّ عن البكاء".

فخرج والدي وأغلق الباب ثانية. وجلس جدي على الكرسي الهزّاز. لم يكن بديناً، لكن وسطه كان ممتلئاً بما يكفي لجعل سلسلة الساعة الذهبية تتدلى بأناقة. قلت:

"لقد كذبتُ!".

تعال إلى هنا".

"لا أقدر. أقول لك إنني كذبت!".

"أعرف ذلك".

"إذن افعلْ شيئاً ما. إفعلْ شيئاً ما لمجرّد فعله".

"لا أقدر".

"اليس هناك ما يمكن عملُه؟ أي شيء؟"

"لم أقل ذلك. قلت لا أستطيع. لكنّك أنت تستطيع".

"ماذا؟ كيف أقدر أن أنسى؟ أخبرني كيف".

"لا يمكنك. لا شيء يُنسى. لا شيء يضيع. لكلّ شيء قيمة".

"إذن ماذا أقدر أن أفعل؟".

"عشْ وأنتَ تحملُه!".

"أعيش معه؟ إلى الأبد؟ طيلة حياتي؟ دون أن أتخلّص منه أبداً؟ لا أقدر. ألا تفهم أنني لا أقدر؟".

"بلى تقدر. وستفعل ذلك. الرجل يستطيع أن يعيش مع أي شيء. يواجه أي شيء. الرجل يتقبّل مسؤوليةَ أفعاله ويتحمّل ما ينتج عنها، وإن لم يكن قد اشترك هو نفسه بالتحريض عليها، بل أذعن لها فقط ولم يقُلْ لا، مع أنه كان يعرف أن عليه ألا ينصاع لها. تعال!".

كنت قد بدأت أبكي بشدة وأتّهمُه، وأنا أقف أو أركع بين ركبتيه، بينما كانت إحدى يديه على ظهري والأخرى على مؤخرة رأسي تضغط رأسي على صدره. وشمَمْتُ رائحته، رائحة النشاء وكولونيا الحلاقة والتبغ الممضوغ والبنزين الذي استعملَتْه دلفين لتنظيف البقع عن بزته، مع رائحة وسكي كنت أعتقد أنها من جرعة الوسكي التي يتناولها صباحاً عندما يفتح عينيه. عندما كنت أنام عنده كان ند يدخل في الصباح الباكر حاملاً صينية عليها إبريق ماء، وزجاجة الوسكي وسكرية وملعقة وكأس. فيجلس جدي في الفراش ويُعدّ الشراب ويشربه. ثم يضع قليلاً من السكر في قعر الكأس ويصب الماء فوقه ويحركه ويعطيني الكأس، إلى أن دخلَت جدّتي علينا فجأةً ذات يوم وأبطلَت تلك العادة. وقال لي أخيراً: "يكفي. هذا يكفي لإفراغ برميل. اذهب الآن واغسلْ وجهك. الرجل يبكي، لكنه دائماً يغسل وجهه".

كان هذا كلَّ شيء. وفي يوم الاثنين بعد الظهر، بعد انصرافي من المدرسة (وكان أبي قد رفض إعطائي ورقة ليعذروني في المدرسة

على تغيبي، لهذا وضعَتْ لي المعلمة إشارةَ تغيب. لكن الآنسة رودوس قالت إنها ستسمح لي بالتعويض عمّا فاتني)، كان ند يجلس على الدرج الخلفي فقلت له:

"لو أننا راهنّا بالنقود التي أعطانا إياها سام على لايتنينغ في المرة الأخيرة لكنّا رتبنا المسألة جيداً".

"لقد رتبتُها جيداً، وحصلت على خمسة مقابل ثلاثة هذه المرة، والعجوز بوسوم هود حصل على عشرين دولاراً لكنيسته".

"لكننا خسرنا".

"أنتم خسرتم. أما أنا فقد راهنت على إيكرون".

"أوه!" ثم قلت: "بكم راهنت؟" فلم يتحرك. أعني، لم يفعل شيئاً. أعني لم يكن يبدو عليه أي تغيير؛ وتلك الأيام الأربعة بطولها وما كان فيها من الاحتيال، والتعب، ومحاولة التخمين الصائب السريع، لم تترك فيه أيَّ أثر، مع أنني قد رأيته حين لم يُتَح له النوم، ولا كان يملك ثياباً يرتديها. (أرأيت كيف أنني ما زلت أدعوها بالأيام الأربعة؟ لقد غادرنا جفرسون أنا وبون بعد ظهر السبت وعدنا إليها بعد ظهر الجمعة. لكنها كانت بالنسبة لي أربعة أيام، بين ليلة السبت التي بتنا فيها عند الآنسة بالنبو ولحظة رأيت جدي وأنا على ظهر لايتنينغ - لحظة كان ند يحمل العبء وحده ويصدّ الطوفان ويدعم السدَّ المنهار بكل ما تصل إليه يده - حتى أنا - إلى أن تكسّرت بين يديه. أعني، أن الرجل يتمسك دائماً بكذبته، سواء أكشف عنها أم لا". كنت في الحادية عشرة فقط لكنني عرفت، ولا أعلم كيف. عرفت فقط: لا تسأل أحداً عن مقدار ربحه أو خسارته في القمار. لهذا أضفت:

"أعني هل تجمّع لدينا ما يكفي لدفع أربعمئة وستة وتسعين دولاراً للرئيس؟"

لكنه ظل مكانه ولم يطرأ عليه أي تغير. لماذا إذن نبتت لأمي شعرة بيضاء في غيابي ما دام عليَّ ألا أتغيّر أنا أيضاً؟ فقد فهمت تلك اللحظة ما عناه جدي: مظهرك الخارجي هو ما تعيش به، تنام به، وتكون له صلةٌ ضعيفة بما أنت وصلةٌ أضعف بما تفعله. فقال ند:

"تعلمتَ الكثير عن الناس في تلك الرحلة. ويدهشني أنك لم تتعلم شيئاً عن المال. هل تريد أن يهينني الرئيس، أم تريدني أن أهينه، أم الجهتين معاً؟"

"ماذا تعني؟"

"عندما أعرض عليه أن أفي ما خسره في الرهان، ألا أكون كأنني أقول له في وجهه أنه لا يملك ذكاء كافياً للرهان على الخيول؟ وعندما أخبره عن مصدر النقود التي سأدفعها له، ألا تأتي برهاناً على ذلك؟".

"لكنني لم أفهم حتى الآن من أين ستأتيك الإهانة".

فقلت:

"لأنه قد يأخذها".

وأخيراً جاء اليوم الموعود. فقد أرسلت إفربي في طلبي، فعَبَرْتُ المدينة إلى ذلك البيت الصغير الذي كان بون قد اشتراه من جدّي على أن يسدِّد ثمنَه بدفع خمسين سنتاً كل يوم سبت. كانت عندها ممرّضة، وكان عليها ألاّ تغادر الفراش. لكنني وجدتُها بانتظاري. حتى أنها مشَت عبرَ الغرفة إلى المَهْد ووقفت ويدُها على كتفي بينما كنا ننظر إليه. وقالت:

"حسناً، ما رأيك فيه؟".

لم يكن لي أيُّ رأي. كان مجردَ طفلٍ آخر؛ بشع مثل بـون، وإن كان عليه أن ينتظر عشرين سنة ليصبح في كبره. وقلت:

"ماذا ستسمّينه؟".

"ألا تقدرُ أن تخمِّن؟".

"ماذا؟".

"لوشيوس بريست هوجانبك!".



WILLIAM FAULKNER

The Reivers

يُعتَبَر وليم فوكنر واحداً من الروائيين الخمسة الكبار في تاريخ الأدب الأميركي. بل هو أحد كبار الروائيين في تاريخ الأدب العالمي. واعترافاً له بهذه المكانة مُنِح جائزة نوبل للآداب عام 1949.

ولد فوكنر عام 1897 في ولاية ميسيسيبي بالولايات المتّحدة الأميركية، وتوفّي فيها عام 1962. له مؤلّفات عديدة في حقول أدبية مختلفة أهمها الرواية.

تدور وقائع روايته " اللصوص"، التي نُشرت بعد وفاته، في ولاية ميسيسيبي الجنوبية، مطلع القرن العشرين، في حقبة انتقالية شهدت بداية ظهور السيارة وتطور المدن، كما شهدت أواخر مرحلة العبودية القانونية. وهي تصوّر مزيجاً من الشخصيات من أعمار وطبقات وأخلاقيات ومهن متفاوتة، بين مراهقين وبالغين، عبيد ومحَرَّرين وسادة أحرار، موظّفين ومحتالين، مُحصِنات ومومسات. تتحرك جميعها في سياق أوضاع اجتماعية وأحداث قاتمة - ضاحكة، بلهجة الجنوب الخصوصيّة.

لوحة الغلاف للفنان ديلان عابدين امين

9 789933 429614

التكوين